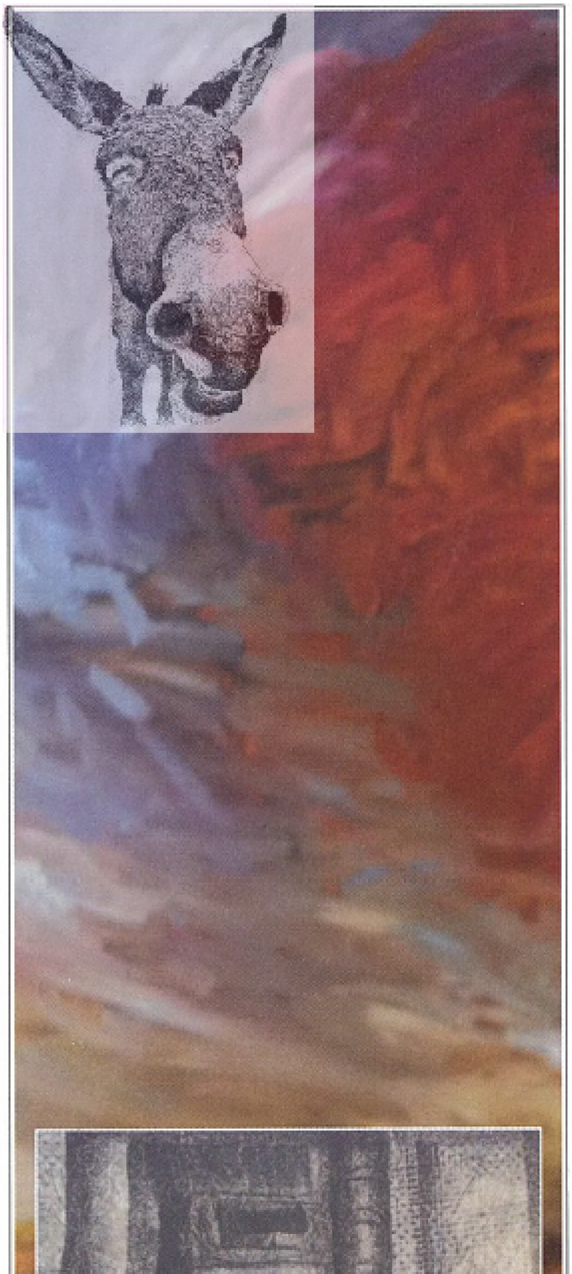

عيون المعاصرة

رياض معسعس

حمّام زنوبيا

تقديم
توفيق بكّار

دار الجنوب

رياض معسعس

حمّام زنوبيا

تقديم

توفيق بكّار

دار الجنوب

© جميع الحقوق محفوظة لدار الجنوب للنشر – 2012
79 نهج فلسطين – 1002 تونس
الهاتف : 179 785 71 (216+) الفاكس : 664 848 71 (216+)

e-mail : sud.edition@planet.tn
www.sud-editions.com

ISBN : 978-9938-01-062-6

رسوم الغلاف : لوحة زيتية ورسم بالفحم للفنّان السوري أحمد معلاّ
(مجموعة خاصّة)

من قَصَص العذاب

رواية الميّت الحيّ

« وللحرية الحمراء بابٌ   بكلّ يد مضرّجة يدقّ »

(شوقي)

من هول وويل لفظ هذا الكتاب، على النفوس قاسٍ لا يحدّثها، أكثر ما يحدّثها، إلاّ بأسود مرعب كثقيل الكابوس في ليل عناء طويل. نكدُ عيش وتشريد شباب، ومظالم وكمّ أفواه، ورشاوى تبتزّ، ووشاياتٌ تكيد، وسجونٌ وسياط عذاب، وأرواحٌ تزهق جملة وتفصيلا. محنة شعب الشام منذ أحقاب بحكّام لا يجيدون من أساليب السياسة في هذا العصر إلاّ شدّة القهر والبطش الرهيب. عتاةٌ شداد سطوا عليه بالعنف غرّة واستبدّوا بالنفوذ فيه آماداً، وسلبوه حقوقه والحريات، ونهبوه واستأثروا وذويهم والموالي بالمنافع والخيرات. ودعواهم بعد «البعث» و«الاشتراكية» حرصهم على أمن الدولة والعدوّ الصهيوني مرابطٌ على الحدود يتربّص بها شرّا. وهم في الأصل عساكر

دجّجوا بالسلاح وجيّشوا قوّة لصدّه عن أرض الوطن المفدّى، فأباحوها وما منعوه، وحموا نظامهم وما حَمَوْها. خسروا معه معاركهم في الساحات وتركوا له الجولان وانخذلوا. وعلى قدر هزائمهم ولا فخر استأسدوا في البلاد يذلّون رقاب العباد، لا يرعون لواحد في ذاته حرمة. يأخذون البريء أخذ الجاني بلا أسباب، أو لشبهة أو دسيسة أو نميمة، فيضيع في غيب سراديبهم من الظلام، وبذوي النفوس الأبيّة ينكّلون، وبذوي الرؤوس العصيّة، فيفتكون بأجسادهم والأرواح فتك الوحوش الضواري، سادرين في غيّهم لا يبالون بحساب أو عقاب، كأنّهم في السماء من الأرباب، يسألون ولا يُسألون، وليسوا، وإن طغوا، إلاّ على الأرض من ضعيف العباد. فلا في حربٍ أبْلَوا ولا في سِلم أجْدُوا ولا أَسْدوا لأمّتهم ما هي جديرة به من العيش الكريم. أهانوا شعب الشام وهو العزيز، فغنموا باذخاً، وأغرموه فاحشاً، ونعِموا، وأبطروا، وأشْقَوْه شقاءً عظيماً.

بشنائعهم، قبل هبّة الثائرين عليهم، يدكّون من صرح سلطانهم في كلّ يوم صخرةً، يشهّر المعسعس في قصّته هذه «**حمّام زنوبيا**»، في صحراء القطر. ويؤكّد، وأنّى لنا أن نكذّبه، بأنّ جلّ ما يقصّه علينا فيه «وقائع من المعيش»، ما عانى بنفسه في السجون، وما عاين من عذاب غيره من الخلق كثر، وما أُخبر به من بعد عن مصرع أصحابه على أيدي زبانية البغاة. فنسّق

بحذق بين تلك الوقائع وشذّب من مادّتها وهذّب، وفصّل فصولها ورتّب وأخرج الكلّ في شكل رواية، جُلُّ أحداثها من التاريخ، وإلى الأدب صياغتها والعبارة. فإذا هي من صدق الشهادة واللفظ المبين وحسن التأليف وجسامة الرسالة نصٌّ فاجعٌ فذّ. يزعج بما يصف من الجرائم ويعدّد ويُعْجِب بأساليب الحكاية. هو ذاك المزيج مروّعٌ رائق، مظلم نيّر. وحلّى سواده الفنُّ بألوانه، فغدا أوفى بالقصد وفي النفس أوقع وجلّ معناه وعظمت العبرة.

أورد الكاتب فيه الأحداث بلسان المتكلّم أنا، الضمير المأثور في أنواع السرد الذاتيّ. ومع أنّ القصّة قصّته فالمحدّث فيها بالأنا شخص سواه يُدعى **مالك حصيرة**، اسم بيّنٌ معناه، استعاره له فيها، وخلفه توارى، ولا للتخفّي، للتواضع حياءً أن يتحدّث عن نفسه بنفسه، وأن يبوّئها، وإن ضحيّة، في المقام الصدارة. ففرّق بينه وبينها وباعد مسافة حتى تلوح لآخر غيره. نَحَلَ مأساته **مالك** وأسند إليه الرواية كأنّه المَعنيّ بها المُعنَّى يبوح بويلاتها، فاعلاً مفعولاً به في الأحداث ومحدّثاً بها قائلا. وبدا هو، **المعسعس**، كمن كفاه من الفضل ألاّ يكون إلاّ المدوِّنَ، ناقلاً عنه أخباره بلفظه يردّدها على الملأ. ولا من صوت نسمع حقّا طول الحكاية إلاّ صوته كاتباً للنصّ منشئا، أنا **رياض المعسعس** فيها بدءاً ومنتهى، حاضراً وكالغائب، ناطقاً وكالصامت أو كرجع الصدى. والفائدة لا محالة حاصلة. لعبة الضمائر في القصّ

الحديث، يعلم سرّها ويتقن أدوارها. و«**الحمّام**» باكورته في هذا الجنس من الأدب.

وإذ قد تجرّد في نصّه من هويّته، كما كنّى عن أصحابه بغير أسمائهم، وتموضع في شخص **مالك** ومَوْضَعَهم في غيرهم من الأشخاص، جاوز بنفسه وبهم حدود الفرديّات وعلا إلى كليّة الأنماط. فتنمذج ونمذجهم حتّى عمّت صورهم صوراً، وشملت مصائرهم مصائر، فصاروا كالرموز يلتقى فيها أشباههم ممّن ذاقوا ما ذاقوا هم من ألوان المهانة والعدوان إلى حدّ التلف أحياناً.

ومن قصّته معهم هذه الدّامية، رأى من حسن التدبير أن يبدأنا بآخرها إلى ما قُبيل التمام، وبطله الراوي **مالك** على طريق في الصحراء يسابق الفجر لاهثاً مستغيثاً، ودويّ مقتلة من خلفه يلاحقه في الأجواء، لاجئاً إلى حمّام زنوبيا، يحتمي في مغاوره، ويكاد لا يصدّق بأنّه نجا، بل كأنّه قد مات بعد وبُعث حيّا. أحبَّ أن يلقانا في كتابه، أوّل ما يلقانا، باليُسر لا بالعُسر، بالخلاص بعد عناء الأسر، داعياً على الظلم بالنصر، هاتفاً بالحياة والحرية. إيمانا منه بغلبة الصمود والصبر، ولا مناص، على القهر أنّى اشتدّ.

ومن ذاك الحدّ قُبيْل النهاية، وقد هزّنا بالهول المحيق وأذكى فينا حبّ التطلّع على أسباب البليّة، عاد بنا إلى أوّل

الحكاية يدشّن لنا فصولها. فنصادف **مالك** مرّة أخرى، قبل ذلك بأعوام، على نفس الطريق الخالية عند الفجر يمشي مطمئنّ الخطى للحاق بورشة عمله الجديد على أميال من واحة تدمر.

كذلك من المدخل وازى **المعسعس** وعارض بين الخاتمة والفاتحة عوداً على بدء، فجراً بفجر، وجريا بسيْر، والطريق هي الطريق والصحراء، والشمس الطالعة، والحال غير الحال، النفس بعد الأمن هالعةٌ، وبعد الإقبال على الحياة من الموت هاربةٌ. وبهذه المزاوجة بالمماثلة والمقابلة قوي المعنى وهمّ وأبلغ الأداء وأجدى، والفنّ أغرى بمتابعة بقيّة الفصول.

وما حكاها على خطّ الزمان استرسالا، شطَحَ فيه شطحاً وردحاً، يقدّم لاحقاً ويؤخّر سابقاً، فيطّرد ويرتدّ جزراً ومدّا. لا يكاد يمعن في الآنيّ الراهن برهة حتى يعود إلى ماضيه يسترجع صوراً من حياته في الأسرة من الصّبا إلى أن تفتّى، أو لُمَعاً من دروس أستاذه في التاريخ. وينذر بمخوف قبل وقوعه ويُرجف، ويُرجئ الكشف عنه إلى حين يباغتنا به. وناوب بين الفصول على أوجُه من الوفاق والفراق متنقّلاً بنا ذهاباً وإيّاباً، مع الزمان، من مكان إلى مكان ومن إنسان إلى إنسان، تارة هنا مع هذا وتارة مع ذاك هناك، وطوراً في اليقظة وطوراً في المنام أو بين الحقيقة والإلهام. هذا إلى أشعار تُنشَد ومشاعر

شتّى وخواطر. وتلعب الأقدار فيها أدوارها بالإيهام والإيقاع أو بالبلاء والإنقاذ. والصّدف المثيرة توقّع في المفاصل مسارها تجدّد أطوارها وتُعدّد، حتّى شاقت بكثرة تقلّبها وتعاريجها كأنّها رواية مغامرات من هذا العصر، وراقت بمُدهِشاتها كحكايات العجيب في سالف الزمان. وأبداً تغالط بالظاهر عن الخافي، بالضرّ عن النفع وهي غادية، وبالخير عن الشرّ وهي رائحة. فتُصعّد بالنفوس وتُصوّب من وضع إلى ضدّ، من سعد إلى نكد ومن نكب إلى جَدّ. كذلك دواليك إلى النهاية، فتتجلّى الغاية، وَعْدُ المؤلّف بهذه الرّواية يكتبها «بدماء الشرايين»، إيفاءً إلى أرواح أصحابه وكلّ الضحايا. وهذا ما بدا لي من جواهر معانيها وفنّيات القص، حقائقها ووجوه الإبداع.

فقيرٌ وابنُ فقير، وفي الدنيا يتيم، قُتل أبوه ثمّ أخوه في الحرب تلو الحرب دفاعاً عن البلاد، وماتت الأمّ من بعد عليهما غمّا. فتى دَرَس في كلّية الآداب والنفس تطفح وطنيّة والرأس عامرة بِغَالٍ من دروس أستاذه في التاريخ **فاتح ماضي**، وكذلك يدعوه للإشادة بفضله عليه، وقد قُتل :

«ترحمت كثيرا على فاتح ماضي عندما علمت بوفاته. لقد علمنا قيما وطنية عبر سرده للتاريخ كما يقرؤه هو، وليس كما يقرؤه الآخرون. جعلنا نرى الأشياء بمنظار آخر. علمه، ونظرته للتاريخ، وغيرته الوطنية قتلته».

تخرّج بالإجازة، ولم يكن لها إلاّ في التعليم سوق رواج. فوَلِي التدريس أربعة أعوام في بعض قرى الجبال، فلا من أهلها وجد احتفاء، ولا اعتناء من التلاميذ، ولا من الراتب حدّ الكفاف. فاستقال وكره تسكّع البطالة فرضي وهو المثقّف النابه أن يعمل بيديه في تركيب أعمدة الكهرباء، يشقّ خطّها جوف الصحراء، وقنع من المال بما يستر الحال. وبذلك يفتتح في حياته طوراً من النشاط ثانيا. وهذا هو في غُرّة الشباب وبكر من ضياءالفجر، وسعة من أرض عذراء، وطيد العزم، متفائل بالغد، والآفاق مفتّحةٌ أمامه على كلّ إمكان، يسير ثابت الخطى إلى موضع شغله المنشود، مقتدياً بدواب الأرض ومجنّحات الهواء، وقد استيقظت من حوله، كلّها إلى رزقها تسعى، خنفسٌ ونملٌ وطير الفلا.

في الورشة لقي الذين سيصيرون له كالإخوة بعد فقدان الأسرة. ثلّةٌ من الرجال من الكهول والشباب رمت بهم الحاجة، والبعد عن أذى النظام إلى هذا المكان المعزول، وعلى وجوههم علامات الكدّ والشقاء. وما أشدّ ما بينهم من وجوه الاختلاف في الطبع والمذهب ! دَيِّنٌ متورّع، وشاعر سكّير، وشهم صُلب القناة، وهم أكبرهم، وبريء كمثله حيِيٌّ، وهما الأصغران. التقيّ لا همّ له إلاّ السبحة والسجّاد، ولا شأن للأديب الماجن إلاّ كأس وأنثى يبطحها، والمُجِدُّ الحازم لهوفٌ على الأخبار يتلقّطها من الإذاعات في الخارج لصدق تصويرها لواقع الحال، وطُمُوح العَفِّ الغرير

توفير المال للترسّم في المدرسة العسكرية لعلّه يتخرّج في سلك الضبّاط. ووُزّعوا في المبيت قسمة عادلة : الفتى الغرير مع الشيخ الصالح في خيمة، يصون أخلاقه، وفي أخرى مع الحرّ الإباحيّ، **مالك** يخرجه من سذاجته، وانفرد ذو الهمّة بالثالثة لهيبته... وكثرة شخيره. **أبو حفص** الإمام، **وألْيَس** (الليث)، والزعيم **أبو عسكر**، **ومنقذ**: كِنًى وألقاب بهم دعاهم الكاتب في هذه القصة ولا بما عُرِفوا به في الدنيا. وإن كتم أسماءهم عن الآذان جلّى للعيان سيماءهم، يشخّصهم برسم الكلام في صور أمينة عسى أن تُبقى في الأذهان، ذكرى لهم بعد الفوات بين الأحياء.

والكهول وجوه من شتّى المعارضات المناهضة لجور «**الذات العليا**»، إسلاميّ إصلاحي وشيوعيّ قديم وقوميّ ناصريّ، وكلّهم قد عاف الأحزاب ومِللها، والوقت وقت الهزائم والنفوس في صبر وغيظ كظيم :

«دعنا من السياسة لعن الله السياسة والسياسيين. الإمبرياليين منهم والشيوعيين، اللينينيين والستاليين، الماويين والتروستكيين، الاشتراكيين الواقعيين وغير الواقعيين، القوميين والشعوبيين، الانفصاليين والوحدويين، لعنهم الله أجمعين».

وسبقت لهم مع سدنة النظام سوابق. مشبوه فيه أبو حفص لدى المخابرات متّهم لتديّنه بالانتماء إلى جماعة «الإخوان» ؛

وسُجن أليس وعُذّب لقصيدة تنادي بالحرية ؛ والزعيم ضابط مرفوتٌ من الجيش لأنّه عصى أوامرهم في الحرب بالانسحاب أمام عدوّ لم ير ولا ظلّه. وليس **لمنقذ** من ولاء إلاّ إلى البلاد، ولا **لمالك**. أربعة وخامسهم بطلنا الراوي. رقمٌ موسوم في عقائدنا الشعبية بالسحر يُزعم فيه من الغيب سرٌّ مكتومٌ يُتبارَكُ به أو يُتطيّر. ميمونٌ «كالخُمسة» (يد فاطمة)، تعويذة لدرء الضرّ؛ مشؤومٌ كالأصابع الخمسة ترمي في العين للكيد طلاسم فتُعمي البصرَ والبصيرة عن مهاوي الهلاك. وكأنّما قد حقّ فعلاه في هذا «الحمّام» من الصَوْن والدُون. وَقَى **منقذ** من شرّ القتل لينقذ بدوره آخر القصة **مالك** وقد أشرف على الهلاك. ودها الكهول الثلاثة بالموت الفاجع، ولا مردّ للمحتوم.

وعزا الكاتب نحس تلك المصائر في دنيا الأشخاص إلى حكم الأقدار، ولا ندري أهي بالفعل منها أم من تسطيره في القصّ، وحسبُنا في التأويل ما ينطق به النص إلينا عند التسآل.

عُصبة من الرجال تآلفوا بالعشرة كأنّهم إخوة في أسرة، متعاونين في الأعمال متكاملين في الأدوار. أطايب على العلاّت يسود علاقاتهم، على ما هم عليه من الاختلاف، ودّ عميق لا يفسده ما ينشأ في الحين بعد الحين من تشاكس في السياسة بين ألّيس والزعيم، وخاصّة بينه وبين الإمام في الأخلاق. وكثيرا ما ينهاه الشيخ عن الموبقات وينهر، وعلى أفّه في كلّ مرّة يردّ الماجن

بضحكة المارح ولين من القول مسامح. والزعيم في خيمته يشخر غارقاً في السّبات. وتزول الخصومات ولا تترك في النفوس آثارا، ولا حتّى وقعة الديك. **ومالك** منتظم في الجماعة منسجم معهم، يراضي بينهم عند الخلاف، ويقضي لهم شتّى الأمور، عوّض للإمام الديك النجس بآخر طاهر من ماله، و بمقدار منه أعان **منقذ** على اللحاق بمدرسته المشتهاة.

في أوقات العمل يكدّ معهم بجدّ، وفي ساعات الفراغ يذهب وأليس إلى حمّام زنوبيا الأثري :

«ولجنا الغار سريعا. الظلام يعم المكان، بعض من أشعة الشمس تسربت من كوات صغيرة في سقف الغار. فبدت كنجوم في قبة سماوية وانعكست أضواؤها على سطح الماء، وبدا بخار الماء المتصاعد كدخان متحرر من حريق خمد لتوّه». فيسبح في حوض مائه الكبريتي الساخن ويستجمّ. وبتداعي الخواطر من وحي المكان يتصوّر الملكة القديمة في الحوض شبه عارية الجسم جميلة، تغتسل وتتعطّر، ثمّ ترتدي ثيابها وتتبختر جليلة في موكب من جواريها.

فيقلع السرد بنا لحظة عن تقرير الواقع الراهن ليحلّق عالياً في أجواء الأوهام. وإذا نحن، بعد أن سبحنا مع **مالك** في حوض الحقيقة، نسبح مثله مع «الأميرة» في حضن الأحلام. ومشهدها بلا مراء يغري ولا يخلو من بعض التشبيب الإيروسي

كأن مالك المعسعس أو رياض حصيرة عن وعي أو غير وعي قد اشتهاها ولم يكن قد طَعِمَ بعد شيئاً من لذّة النساء.

أو يسيح في الصحراء يستجلي أسرارها، ويتمرّس بأوعارها. أو يعتبر بأوساعها ووقارها. فخبُر أديمها من الرمل والحصى، وألف أجواءها، قيظ الشموس وأنسام العشايا، وراعه في الليالي صفاء سمائها بضياء القمر والنجوم اللألاء.

ووقى شرّ سوامّها من العقارب والحيات، ورعى أفراخ طيرها من اليمام في أوكارها. وعرَف أهلها من الأعراب، قوافلهم في الترحال ومضاربَهم في الإقامة، وما بين عشائرهم من الفتن، والثأر والدم. ولقيَ بها ويا سَعْدَهُ من أوانس الحيّ شامة، وإيه لها من فتاة ! بدوية أصيلة قامة وشهامة ونهد وخدٌّ وعين شهلاء، وفي العنق طوق وفي الأنف قُرط، جميلة على الطبيعة، ولا أدهان ولا مساحيق. تختال في مواشيها بعزٍّ كأنّها صورة من زنوبيا الأميرة في أبّهة سلطانها أو بهجة مهرجان. واغتصب جسمها بعض الأعادي وثَأَر لها أبوها وسُجن، ولا كزنوبيا أُهينت في نفسها طيلة أسرها بروما وما فداها أحد.

وفي الليالي يسهر مع ألْيس ينادمه على العُقار وقد علّمه الشُّرب ويستمع إليه يقصّ عليه مغامراته مع بائعات الهوى في دور البغاء، فيُلقّنه بفحولته معاني الرجولة. أو يزور البدو في مجالس السمر وهم يتذاكرون ملاحم أبطالهم واستشهادهم في

مقاومة الفرنسيين بعد الأتراك. وعلى وتر الربابة يُنشدون من أشعارهم في الحماسة. أو أمام الخيمة يرنو خاشعاً إلى السماء يُسائل الكواكب عن أسرار الكون ويفتكر ؛ أو عند **شامة** يُعلّمها الكتابة وتُعلّمه ركوب الخيل، وفي الخفاء يغازلها بالنظر.

فكيف لا يكون لهذه الصحراء بعد ذلك في النص حضور مشهود ؟ ولا كإطار لمسرح الأحداث، ككائن حيّ يثير المشاعر ويُلهب الخواطر، بل كفاتنة من إناث الرواية و**مالك** رقيق النفس مرهف الحسّ كلّما نادته إليها لبّاها باللقاء نفساً لنفس في شبه عناق حميم. و**المعسعس** وصّافا له عين رسّام فمثّلَها لنا بالكلام في أدنى تفاصيلها من الأشكال والأحجام والألوان وفي شتّى أحوالها من البرد والحرّ، واللين والشدّة، والأضواء والظلال. وكساها من خياله الشعري ببديع الصور من بِكر التشابيه والاستعارات.

يعيش فيها **مالك** في وئام وسلام، راضي القلب، قرير العين، كسبٌ وصَحْبٌ واللهو والهوى. صفوٌ ما كدّره إلاّ ما لم يكن منه بُدٌّ من النوائب الطارئة، كلّما خشينا منها سُوءاً على المُصاب رجعت عليه عاقبتها بالحسنى. هَرّته ليلة كلاب فنهشته في الرجل والفخذ، فلقي فجأة **شامة**، آوته وداوته، وجُنَّ بها وهام كقيس بليلاه. ورُبّ ناب أنشب حبّا، وعضة كلب عضةَ قلب من الهوى. ووقع **منقذ** في جُبّ فارتطم وتعطبت ساقه فانتشله

مالك من ورطته وجبر له الكسر. وعلى جميله هذا سيردّ **منقذ** في نهاية الحكاية بأجمل منه. وقد يكون في غدر الزمان إنقاذ روح إنسان، وفي عثرة رِجْل سلامة رَجُل. هو المنطق الخفيّ يعلّل من تحت نسق الأحداث في هذه الرواية أول أطوارها والهناء في ازدياد والسعد طالع وكل مكروه يؤول فيها إلى مستحبّ، الكُلُوم إلى مراهم، والإيلام إلى إنعام.

وكان يمكن أن يدوم طيب العيش **لمالك** لولا الكنز اللعين، كنز مروان بن عبد الملك آخر ملوك بني أمية طمرته بنته عَبدة بعد مقتله، وماتت تحت تعذيب العباسيين وما أقرّت لهم بمكانه. خبَرُه في التاريخ ثابت، عَلِمه **مالك** من أستاذه **فاتح**، إلاّ أنّ كشفه في الرواية أكذوبةٌ من إبداع القَصّ. أهمّ شيء زاده على الحقيقة في ما أسرّ لي. اختراع غاية في الخطورة، مفصليّ، حاسم، منه يبدأ انحدار **مالك** من الذروة إلى الهوّة ومعه تنعكس في القصّ آي منطقه الباطن وكلُّ مِنَّة بعده على المحنة دليل. والدّاعي إليه شقراء حسناء من بنات فرنسا، وهي من «معيش الواقع» ولا من ابتداع الكاتب سمّاها **ماري**، وكأنّها بالاسم من الآن تُماري قبل خداعها بالجمال. جاءت وأخاها **جاك** تدّعي السياحة والغرام بحضارة سوريا العتيقة، وحلّت بالورشة فشره لها **أَلْيَس** وهو قَرِم إلى لحم النساء. وأوجس منها **أبو حفص** فتنةً للأصحاب وشؤماً. إلغاز من حِيل القصّ، ينذر بخطر داهم ولا يهتك له

سترا إلاّ في مكانه وأوانه من القصّ بتقرير كاتب النصّ. وتطوّع لها **مالك** دليلاً. وبدأ الأمر بينهما بالغَواية. في حمّام تدمر وقد ساقها إليه للتنزّه دعته إليها وهي في الحوض تسبح عارية شهيّة، كأنّها حواء تُغري آدم بالثمرة الحرام، أو داهية من جنّيات اليمّ تناديه بصوتها الساحر لتفقده الرّشد فتُوقعه في هاوية. ويعود بنا القصّ إلى الإلهام بتداعي المعاني وتجاوب الصور من دانٍ وقاصٍ وشاهد وغائب، فيثير في الأذهان ذكرى الأمثال الأوائل من قصص الأديان وأساطير اليونان توسّع الرؤية إلى ما يُرْوَى من شؤون الواقع وتزيد من معانيه بالتدلال، وذاك من وحي النص عند القراءة، ولا بالضرورة من مقاصد المؤلف عند الكتابة. فتردّد **مالك** طويلا من فرط حيائه الشرقيّ في الاستجابة إلى دعوة **ماري**. ثمّ رغم حبّه **لشامة**، تعرّى وارتمى في الحوض يتعاطاها في الماء، ولم تكن بكراً فأفقدته عُذرتَه وأتمت عليه رجولته. فاكتملت نفسه وصفا الحسّ وعلا به حتى كأنه في نشوة فردوسية مع حورية من حور الجنان. إن هو، ولا يعلم، إلاّ في قبضة الشيطان. وهل عُسيلتها المهداة إلاّ الطّعم في شصّه به شكّه إليه من ذَكره الجوعان ؟ ما كان يدري أن وراء لذّتها السنية السمّ الزعاف. وكم من وجه ملائكي قناع للرجيم، ومن عذب مريء في طيّه مرّ العذاب، وحذار بعد حلم الغفوة من رعب الإفاقة.

وفي تلك الليلة راب **مالك** سخاء **ماري** له بالنفس بكلّ ذلك اليُسر وعصفت بفكره الهواجس. أفلا يكون لكلّ ذلك ثمن يُدفع من بعد. ما ألف من الدهر أن يحبوه بمثل ذلك النعيم الأسمى. سعادة ما فوقها سعادة. والشيء إذا جاوز حدّه انقلب إلى ضدّه. وبتخوّفه اشتدّ اللغز وازداد إثارة، وعَرُمت رغبة القارئ في معرفة حقيقة البلاء المهدِّد. ثمّ قادها إلى **قصر الحير**، وهي طول الطريق، ولم ينتبه من غفلته، تُعلِّم على الحجارة بما يهدي إلى وجهته. ورأته فاندهشت لعظمته وأخذت في يدها خريطة تقيس وترقم، وفي ناحية منه بالخصوص تخطّ خطوطاً وتَرْشُم. وظنّ **مالك** لسذاجته أنّ ذلك من علمها بالآثار، وفي إضمارها خطة عنه تُخفيها، غالطه الشيطان فيها بظاهرها عن حقيقتها الباطنة.

وفي صباح اليوم الموالي افتقدها من الورشة. باكرت وأخاها على السيارة إلى **قصر الحير**، والطريق إليه لديها مرسوم. فخَمِن **مالك** في التوّ مكانها وأسرع وأَلْيَس إليه، وظلاّ، في حذر، يراقبانهما عن كثب، وهما يتناوبان بالآلات على الحفر في الأرض حتى أخرجا الكنز بعد ساعات من مَكْمَنه، ثلاث جِرار من الذهب المصفّى، دنانير وحُليا، تبرق كعيني الشيطان تُعشي البصر عن شرّه الدفين بِغادر من الأصفر الوهّاج. فلبّس على الصاحبيْن الظن باليقين، حتّى حسِبا أنّ السائحيْن

يسرقان من كنوز البلاد. فوثبا عليهما ودارت بينهما معركة أُصيب فيها **جاك** في رأسه بجرح ثخين. ولم يعد شكّ في قرب الكارثة. فعجّلت **ماري** بأخيها على السيارة وبجانبها مالك إلى المستشفى. وتركا **أَلْيَس** واقفا على الكنز. وعادا يتطايران فما وجدا أليس ولا وجدا الكنز، ذهب به حيث لا يعلم أحد. فنزل كالصاعقة على رأس **مالك**. كانت **ماري** قبل مجيئها قد اتّفقت مع ضابط سامٍ مقرّب بالذات العليا على البحث له عن الكنز ولها، إن وقعتْ عليه، من غُنمه قسط وله البقية وكان يتاجر بقطع الآثار في أسواق العالم، وذاك دفاعه عن ثروات بلاده. وها قد ضاع عليه وعليها. ظهر فجأة وما لبث أن اختفى وما كان له أن يدوم وهو أكذوبة. أدّى دوره وانتهى، وحسبه من بعده آثاره تفعل فعلها وهو وخيم. فازداد **مالك** تدحرجاً من أعلى الهناء إلى العناء الأشقى. ما أبخسه من كنز ! كأنّه منذ دهر مرصودٌ للأصحاب كجنّ الخرافة، وفي الأجل المكتوب حُرّر من قمقمه ليخدعهم خدعة الموت ويذهب ؛ أو كالفخّ المنصوب لهم، من غدر الزمان، ينطبق عليهم فكّاه ليطحنهم طحنا. على غرار «الآلة الجهنّمية» في فواجع الإغريق القدامى، ولا من «آلة الجهنّمية» في هذه الرواية إلاّ جهاز الدولة ودواليبه القاتلة. في الغداة أحدق بالورشة الجنود، فلمّوا من وجدوا من الأصحاب وكان **منقذ** قد فارقهم منذ حينٍ إلى المدرسة العسكرية وأليس

قد ذاب كأنّ الأرض ابتلعته. حشروهم في الشاحنات وشتّتوهم بين الزنزانات من فرع حمص من إدارة الأمن العسكري بتهمة التعاون مع جواسيس أجانب على نهب خيرات البلاد. وكان آخر عهد مالك بأصحابه، إلاّ منقذ، له عوّد آخر المطاف.

وبعد يومين من التوقيف أعدّوا له «حفلة الاستقبال»، فجلدوه جلداً مبرّحاً ثمّ سألوه عن الكنز وماري. فقصّ عليهم القصّة كما جرت. وكأنّما قد غاظهم من القضيّة أن يكون قد استأثر دونهم بمتعتها فعاقبوه من حيث «أذنب»، عضوه الذي غرّر به.

ثمّ نقلوه إلى سجن دمشق في قلعة الناصر صلاح الدين. فوجد نفسه في «قاووش» ضيّق مكتظّ بمعتقلي السياسة وبجانبه «أبو ثائر»، فدائي فلسطيني، كذلك كنّاه لروحه المتمرّدة. وعصابة تجّار المخدّرات عليهم سادة، وبهم سعاةٌ قوّادة لدى الضابط المدير، والطعام حقير ونَتْنُ المرحاض يسطع، وصَنان الأجساد من العرق والأوساخ، وروائح القيء والدم.

ومن كوّة المراقبة في السقف حارس يبول للشماتة على سجين يتخبّط من شدّة التعذيب في دمائه. وما لبثوا أن استأنفوا معه التحقيق، وتوالت عليه «الحفلات» بتفنّن إبليسي في أساليب العنف ووسائله : بعنق الزجاجة في الدبر تمزّق الشرج بعد الجَلْد بعيدان الخيزران تُلهب اللحم وتجرح. ثم

بكيّ السجائر وقلع الأظافر، ثم «بالحصان الألماني». هذا إلى وابل من الشتائم الفاحشة. وعبثاً يتبرّأ إليهم من الكنز ويتشفّع، أوباش كالوحوش لا قلب لهم ولا ضمير. حتّى يغمى عليه فيُرفع إلى طبيب السجن يداويه لكي لا يموت قبل أن يبوح لهم بمكان الكنز «ساديٌّ» هذا اللعين، أوقعه في المحنة ويحفظه من القتل، ليديم عذابه.

ويوماً وهو يتمشّى في ساحة السجن للتروّض، شهد حارساً فظّا غليظاً يضرب شيخاً هزيلاً فوثب عليه يدفعه عنه بعنف، فإذا المضروب **أبو شامة** سجيناً منذ سنين. فاعجب له من اتّفاق مدهش، ولا تسأل من المقدِّر له، خالق الناس مالك الأرواح بمشيئته يقضي لهم أو عليهم في الحياة، أم منشئ النص مبدع الأشخاص يُدير بتدبيره مصائرهم في القصّ. فضيّقوا على **مالك** في الحبس ونفوه في جناح معزول من القلعة وحده في زنزانة وضاعفوا له في التعذيب. أمعنوا في عقابه وما خطر لهم ولا يخطر للقارئ أنّهم بذلك إنّما يهيّئون له أسباب الهروب. ومن القيد ما هو للنجاة سبيل. واشتدّي أزمة تنفرجي. أيّام أمضاها **مالك** مريرة ذاق فيها نار الجحيم، ولم يجد فيها مفرّا من شدّة الآلام إلاّ في الأحلام. في اليقظة يَعُودُه طيف **شامة** مراراً، فيبوح إليها بالأشجان، فتُوصيه بالصبر وتُمنّيه يوماً بالسلامة وبالقران المنون. وفي المنام يقف عليه لماماً شخص

صلاح الدين الأمير في لباسه الحربي يرثي له حال العرب اليوم من الذلّة والمهانة. ويحثّ الأحرار من ذوي الهمم والعزائم على المقاومة والعناد. مدد روحيّ يغذّي فيه إرادة الصمود.

إلى أن حلّ به ضيفٌ غير مُرتقب فأر - من حقيقة لا من خيال - كان قد حفر ثغرة في صخرة من الجدار أوهنتها الرطوبة بطول الزمن. جاءه كالمبعوث من لدنه يهديه طريق الخلاص، فاستأنس به **مالك** في وحشته وأطعمه من قوته الشحيح، وبملعقة أقبل على الثغرة يزيد فيها. وبعد مدّة لحق به «**أبو ثائر**» لعصيانه، فلم يزالا يوسعان من الثغرة حتى صارت فَلاً منه في الليل استلاّ هاربيْن إلى حدود لبنان. عَبَراها على الأقدام منحدرين من الأعالي إلى تلّ الزعتر والمعركة على أشدّها. صدفة أخرى مدهشة، وما عجبنا لها لكثرة ما ألفنا من التقلّبات في هذه الرواية، فلا بطلنا يستتبّ على حال ولا الأحداث يقرّ لها قرار. توقّعناها لسابق علمنا بأنّ ما هكذا كان الفرار. وشِمْنَا أنّ فرحته عابرة وأنّ وراءها الأسوأ. وما أخطأنا في الحساب، فإن هي إلاّ أيّامٌ استأنف فيها «**أبو ثائر**» القتال وتفرّغ **مالك** لمداواة الجرحى، حتّى زحف الجيش السوري فقبضوا عليه. رجعوا به إلى البلاد، وأودعوه سجن تدمر الرهيب، وقد عظمت التهمة، التمرّد بالسلاح في وجه جيش الوطن. لم تكن حرّيته إلاّ كالجملة الاعتراضيّة في سياق الكلام، ولكنّ دورها في مسار القصّة بالغ

الأهميّة. محور مركزيّ في منتصف مشوارها تدور عليه متراجعة إلى بدئها من معاناة السجن. إلاّ أنّ المأساة قد تفاقمت، ومالك يَهْوِي من العَنَاء الشديد إلى العذاب الأشدّ. واستوى منطق القصّ في الدلالة، فما عاد يدلّ بالضدّ، إن شرٌّ فشرٌّ وإن خيرٌ فخيرٌ. رُدّ إلى القاووش في ظروف أسوأ، فإلى الضيق والاختناق وألوان المعافن والطعام الخسيس، ترتجّ من حوله الأرجاء بصراخ المعذّبين في دهاليز الجحيم، وأصوات الماثلين للإعدام عند عيدان المشانق، لا سيّما من «الإخوان»، يهلّلون ويكبّرون ثم يستشهدون. ورتّبوا له في كلّ أسبوع حِصصاً ثلاثاً من التعذيب. ويُنكر ولا يصدّقون، ويسترحم ولا يُشفقون، حتّى ذاب منه اللّحم ولم يبق إلاّ الجلد على العظم، وشاب الرأس ورثّ الثوب وتمزّق الحذاء. ودام على ذلك النظام وهو مع سائر المساجين في عزلة عن الدنيا خارج السجن، لا خبرٌ منها يدخل ولا زائر. ولتبادل المعلومات فيما بينهم اصطنعوا لغة «المورس» دقًّا على الحيطان في حذر سؤالا وجوابا، دقّةً بحرفٍ. فعلموا فيما علموا أنّ المدير الجديد قد أباح الزيارات مقابل كيلو من الذهب المصبوب يُدفع في يد أمّه العزيزة. عساكر ما كفاهم الظلم والقهر وابتزاز أموال البلاد حتّى أخذوا يسلبون الأهالي آخر أرزاقهم. ثمّ أُنبئوا وهذا أخطر أنّ جماعة «الإخوان» قد حاكت مؤامرة ضدّ السلطان الأعلى، فرَانَ على السجن رُعبٌ شديدٌ توقُّعاً لمغبّتها عليهم بعُنف

التشفّي. خِفنا منها على المساجين وما خِفنا على **مالك** شيئاً. حاصلٌ في يقيننا أنّه لا محالة ناجٍ، وإنّما بقينا ننتظر ساعة خلاصه. وقد طال به الزمان في الحبس بلا محاكمة ولا أمل في الخروج حتّى وقع في الفاقة الكبرى وأقصى اليأس. ولكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان، سوء العيش كطيبه. فلمعت في آفاق القصّة بوارق الانفراج. فإذ قد تقادم عهد **مالك** بالسجن جعلوه من «البَلَديّة» عوناً في المطبخ على إعداد طعام الأسرى **لأبي العزّ** وهو من أقدم معتقلي السياسة، يعلّمه الطهي ومن حين إلى حين يحشو في فمه خلسة قطعة من الدّسم. فتنفّس **مالك** في طلق الهواء من اختناق القاووش وترقّعت صحّته وأحواله. وآن للمُنجي أن يأتي، فعاد **منقذ** إلى الظهور، بمقتضى الاسم، بعد أن غاب عن القصّة طويلاً. كأنّه ملاك الرحمة أُرسل إليه من السماء ليُنقذه من الهلاك، فتعارفَا في صمت، وتخاطبَا سرّا بالرّقاع. وسأله عن أصحابه فأخبره أنّهم قد صُرعوا جميعاً، فتأسّف عليهم أسفاً شديداً. ورقّ **منقذ** لحال صاحبه ومحسنه القديم، فرأى من الوفاء أن يقصّ على قائده المدير قصّته من أوّلها، فانتدبه هذا الأخير في خدمته، وخصّه بزنزانة قريباً منه ورفع عنه العذاب. فترفّهت حاله، واسترجع قوّته. وتأكّدت تباشير الفكّ عنه قريباً من قيْد الأسر. أمّا كيف فبقي سرّا في غيب القصّ إلى حين، إلى يوم جاءه **منقذ** مكفهرّ الوجه يُنذره أنّ هولاً عظيماً سيحلّ بالمساجين

وأنّه سيكون في عِداد القتلى، فانزعج **مالك** وما فُجعنا، وما خاب التخمين، سرعان ما عقّب **منقذ** بقوله سيموت في الدفتر الرّسميّ اسماً، وأمّا جسماً فيبقى في الوجود حيّا، بتواطؤ مع المدير مراعاةً لتضحيات أسرته، وطمعاً في الكنز إن لَقِيَه يوماً. يقايض في كلّ أمر، لا يعطي شيئا بلا شيء. وهي نكتة الختام. وواعده آخر الليل وفي الوقت المعيّن فتح له باباً خفيًّا فاندفع منه **مالك** لا يلوي على شيء، وقد اندلعت من خلفه المقتلة، يجري ويبتهل لمالك الأكوان أن يطيل له الظلام إلى أن يصل إلى حمّام تدمر، ليغتسل في مائه من أوساخ السجن ويتداوى من آثار الجَلد ويتطهّر من أدران المهانة، ويخرج منه مُعاد الخَلق في براءة الطفل الوليد، بلا هويّة والاسم جديد ؛ وينظر إلى آتي أيّامه وفي أفق الرؤية وجه **شامة** حبيبة الروح وكأنّها بالاسم مؤنّث **الشام** ورمزه، والبلاد قد تصوّرت فيها غادة، مغصوبة الجسم قهراً كمثلها، والروح لا تزال كمثلها عفيفةً أبيّة.

وينعقد طرفَا النصّ آخراً بأوّلٍ، واستدارت القصّة على نفسها لتنغلق بما بقي من قُفلها، في جُمَلٍ تقصر وتطول كالسطور في حديثنا من الشعر المنثور، ووِجدانيّة شجيّة كالقصيد الغنّاء، بل كالنشيد،

تغريد طيرٍ في الفضاء طليق يشدو للبعث بعد «الموت»، وبعد عناء الأسر بالحريّة البِكر.

تلك رواية الميّت الحيّ، كتاب المعسعس، وهذه قراءتي لها على سبيل التقديم للتذويق والتشويق، وإنّها لجديرة عندي بكلّ تقدير. ودونك الآن أيّها القارئ نصّها يحدّثك عنه بلفظه. وليس من الصِّغار، أقلّ ما يقال فيه.

توفيق بكار

تونس في يوم الجمعة 25 ربيع الأوّل 1433 هـ

الموافق ليوم 17 فيفري 2012 إداريًا

إلى الشهيد البطل محمد البوعزيزي
مفجر الثورات العربية الكبرى
ضد الطغيان.

لو لم يتبقّ لي من العمر سوى ثلاث كلمات لقلت :

الحرية

الحرية

الحرية

توطئة

عقود ثلاثة تعاقبت، وأنا أكتب هذه الرواية، في فكري أولا. يلوكها، يعصرها، يقلبها ظهرا لبطن، يبحث عن بداية، عن سرد قريب من فهم الجميع، عن قالب موضوعي ودقيق، لا تهويل، ولا تقليل، بل ذكر الأمور، هي هي، كما وقعت، من تجربة شخصية بحتة، وتجارب آخرين. ثم بدأت تأخذ صورة مجسدة حبرا على ورق، منذ عدة أعوام، أكتب صفحة أو صفحتين، أمزقهما بعد حين. لعدم الرضى عن النفس، أو عن الأسلوب. كإعلامي وهاو للأدب، لم أكن أمتلك ناصية أدبية معينة، ولم أكن أطمح لذلك، فالولوج في أديرة الأدب وصوامعه ومعارجه لم يكن هدفا بحد ذاته. بل المقصود هو إيصال هذه السيرة المعيشة، التي تقترب كثيرا من سيرة ذاتية، مع شيء من الرومانسية، إلى القارئ. فمعظم أحداثها من الواقع المعيش من قبل الكاتب، أو من قبل مقربين إليه. روايات موضوعية، تعكس صورة سوريا في فترة من

أحلك فترات تاريخها. بدءا بالنكبة في العام 1948 وانتهاء بمجزرة سجن تدمر الرهيبة في العام 1980.

لم يكن الغرض منها مقارعة الأدباء في أدبهم، ولا البحث عن إضافة اسم بين الأسماء الأدبية. بل مجرد شعور عميق وملح لإبراز حقيقة مرّة في جميع مقاييسها عاشها الشعب السوري في معاناة يومية تحت وطأة الظلم الثقيلة، والقمع المريع، وسطوة الأجهزة الأمنية.

سنوات العنف السلطوي، وجثوم الأجهزة الأمنية على صدور السوريين في صحوتهم ومنامهم، جعلت منهم رعايا بِرَهْن الاعتقال في أية لحظة، أكان جراء تقارير مخابراتية ملفقة من قبل مخبرين تضخمت أعدادهم، وكثرت افتراءاتهم، أو لمجرد التعبير عن رأي، أو رفض واقع مرير، أو الانتماء لحزب سياسي محظور، أو كتابة مقال ناقد في صحيفة. فامتلأت السجون بمعتقلي الرأي، ومورست ضدهم أقسى أنواع التعذيب. فمات من مات، وخرج من خرج، بعاهات وأمراض مستعصية، وبقي من بقي ينتظر فرجا ربما يأتي، أو لا يأتي.

قبل أيام عدّة من اندلاع شرارة الثورات العربية الشعبية الكبرى في سيدي بوزيد في تونس، على يد محمد البوعزيزي، الذي أحرق نفسه قهرا وكمدا دفاعا عن كرامته كإنسان مقموع ومهمّش كمعظم المواطنين العرب، كنت قد

انتهيت من كتابة روايتي. التي حاولت فيها أن أعطي صورة عما يعانيه المواطن السوري، بكل أمانة، ودون أية خلفية سياسية، أو طائفية، أوعرقية. بل مجرد نظرة إنسانية عميقة للواقع السوري. وهذا هو الجزء الأوّل من الرواية، وسيصدر الجزء الثاني فيما بعد.

آمل أن تنال رضى القارئ وتفي بالغرض الذي من أجله كتبت.

المؤلف

I

أيها الليل.

أيتها النجوم.

أيها الفجر.

هل فعلا نجوت ؟

أما زلت حيّا ؟

لا أكاد أصدّق.

هل حقّا، أنا أنا بشحمي ولحمي، أركض سالما، أسابق الريح هربا ؟

هل فعلا نجوت؟

لا، لم أنج بعد؟

لا، لم أنج بعد؟

أيها الفجر، أتوسل إليك إذن، لا تنبلج. تأخر ولو قليلا. خالف ولو مرة ناموس الطبيعة. أعص قوانين الكون. لا تقضم أذيال الليل بأنياب نورك. هب لي فرصة التخفي

تحت آخر جلباب ظلام. دعني أصل إلى مغاور حمام زنوبيا ثم افعل ما شئت.

يا ما وراء الكون.
يا نور السماوات والأرض.
يا سر الأسرار.
يا نا فخ الروح.
يا قابض الروح.
استجب لدعائي هذه المرة.
خذ بيدي وبقدمي.
هب لي من لدنك قوة.
أعم على أبصارهم وأفئدتهم.
انتشلني بيديك الجبارتين من بين براثنهم.

أقدامي تكاد لا تلامس الأرض من سرعة الركض، ولهاثي كأنفاس طريدة طرية العود تنجو من مفترس شرس. الريح تحملني كطائر غر غض الجناحين يخفقهما حينا ويحط به الضعف حينا، وأنا أتجه، لا ألوي على شيء، نحو حمام زنوبيا، المكان الوحيد في هذه الصحراء الذي أعرفه عن ظهر قلب، ربما كنت الوحيد المتقن لمسالكه ودهاليزه وأنفاقه الممدودة في كبد الأرض كأصابع قفاز مارد.

صوت هدير طائرات.

صوت هدير طائرات.

لأختبئ إذا في أي مكان، وراء صخرة، فوق شجرة، في قعر حفرة.

ولكن هنا في هذه الصحراء الممدودة ككف سائل، أين أجد مكانا كهذا. كأن يدا كونية طويلة الأصابع مسحت الأرض. مهدتها. جعلتها قاعا مستويا كبطن صبية. علي أن أتوجه إلى أول مقبرة تدمريه. المقابر ليست بعيدة من هنا.

عنفات الطائرات ترعد عن بعد وتملأ قلبي رعبا وهلعا. طلقات الرصاص مازالت تدوي في الفضاء. طلقة، طلقة. رصاصات موجهة إلى الرؤوس للتأكد أنها فارقت الحياة.

لن ينجو أحد.

لن ينجو أحد.

ربما كنت الشاهد الوحيد على المجزرة. عواء ذئاب، ونباح كلاب مسعورة تملأ المكان وتدب في قلبي القشعريرة، وفي عظامي رجفة الهلع. يجب أن أسرع أكثر قبل أن يفضحني جزر الظلام، ومد الفجر. الطبيعة لا تغير نواميسها مهما توسلت. هي سرمدية، منذ أزل ما، وإلى أبد ما. الأفضل أن أعتمد على ساقي وأعجل الخطى أكثر.

تجلد.

تجلد.

حمام زنوبيا لم يعد بعيدا، حمام زنوبيا لم يعد بعيدا. بات على مرمى حجر، أو مرميين.

تجلد.

تجلد.

لكن الموت يجري خلفك بأسرع مما تتصور. يلازمك حذو النعل بالنعل.

لن يرحموك.

لن يرحموك أبدا.

سيتلذذون بتعذيبك. سيطلقون على جسدك ألف رصاصة تخترق لحمك وتهشم عظامك. أسرع. أسرع، وإلا فإن الموت سيكون أسرع منك.

ساقاي لم تعودا تحملاني. قدماي لم تعودا تسعفاني، كما كانا منذ سنين مضت، عندما كنت أجوب هذي البوادي، قبل سنين السجن الطويلة والتعذيب الذي هد جسدي، عندما وقفت لأول مرة، ذات هزيع أخير من ليل بهيم، على قارعة الطريق العتيقة، التي تربط حمص بتدمر، أنتظر سيارة تقلني إلى الفرقلس.

2

الليل الهرم عسعس، والصبح الفتي تنفس. زفر آخر نفس مع أول شعاع شمس نفذ من وراء الأفق البعيد. السماء لعقت بلسان هرة جائعة آخر قطرة دم مسفوح نزفها الشفق على حوافها. نسمات باردة انكسرت شوكة لسعاتها على جلدي المقشعر. الطريق انبسطت رمحا أسود على بطن البادية. حجارة كسيحة محنية وقعت على حافة الطريق، نقش على ظهرها بقايا من كتابات، ترشد المسافرين إلى طريق تدمر، قضمت أنياب الزمن أحرفها. أشواك جافة الشرايين تملأ العين في هذا الرحب الفسيح. القرص الأرجواني عرج، كعادته السرمدية، سريعا سكة القبة الزرقاء. المدى الرملي، الممتد إلى نهايات تصطدم بالأفق البعيد، استرد لونه الذهبي من بهيم الظلام.

الحجارة الباردة تحتي رضعت حرارة جسدي، كحجارة هذه الزنزانة الرطبة. فوق الطريق الرمح انطلقت نظراتي.

صعدت أدراج السماء. مسحت سقفها بلحظة. هبطت القاع، وقعت على خنفساء عابرة سبيل، صحت قبل النمل، تدفع القهقرى بكراعيها بعرة بعير. راقبتها طويلا وهي تكد وتكدح منذ ساعات الفجر الأولى. تعاطفت معها كونها وحيدة مثلي في هذا القفر. وسأكون مثلها قريبا، أكد وأكدح لكسب زادي كفاف يومي، دراهم معدودات، بعرق جبيني. هنا حطت بي الأقدار، سدت في وجهي أبواب الأفق، وتاهت بي السبل كما تاهت أمام الآلاف مثلي، وأنا أبحث عن لقمة عيش كريمة. تمنيت لو أني عرفت وجهتها كي أوصل لها البعرة إلى المكان المقصود، موفرا عليها عناءها. لكن لا لغة مشتركة بيننا، فكيف يمكنني إيصال هذه الرغبة إليها ؟

التقطتها. تمعّنت في تكوينها وهي ترفس بأكارعها في كل اتجاه. أعدتها مطمئنًا ففرّت لا تلوي على شيء، تاركة البعرة وراءها. ندمت على فعلتي لتدخّلي في شؤونها بنيّة مساعدتها فأفسدت كلّ شيء. وصلت إلى قناعة، أنّ من يريد مساعدة الخنافس، لا بدّ وأن يتقن أوّلا لغة الخنافس.

نملة خرجت من جحرها مهرولة كأنها تؤنب نفسها لرؤية خنفساء سبقتها إلى العمل هذا الصباح. كانت تدور مسرعة في كل اتجاه بحثا عن حبة. حشرات محلقة أرسلت

طنينها في أذني. قبرة قفزت من وراء شوكة، حرباء تحركت تسعى وراء رزقها، حرارة الأرض ارتفعت. الحياة عادت تدب في هذا القفر. الكل يعمل هنا بحثا عن رزقه. ونحن لا نجد عملا نطعم به أولادنا.

هجرت المكان. سلكت الطريق الرمح. منذ نسمات الفجر الأولى لم تعبر أية سيارة. الطريق هنا شبه مهجورة، تؤمها حافلات السياح القاصدين مدينة تدمر، أكبر وأشهر مدينة أثرية تشهد على عظمة الملكة زنوبيا التي تحدت روما في منطقة الهلال الخصيب، أكثر من أية مركبات أخرى، كون المنطقة شبه خالية من السكان. قرى صغيرة مبعثرة على الطريق، وقبائل بدو رحل، من تيهاء جدباء، إلى بادية أقل جدباً، معتمدين على بهائمهم في التنقل أكثر من أي مركوب آخر، عالم المحركات لم يدخل بعد في حياتهم اليومية إلا ما ندر. السكون يلف المكان خلا حفيف خفيف لشويكات تلهو بها نسمات الصباح توخز بعضها بعضا.

المشهد قمري. لا زرع، لا ضرع. لا صخرة، لا حفرة. لا دابة تدب، لا سكن، لاساكن، سكون لا شيء سوى السكون. حتى الريح راحت مكانا آخر تنشر فيه عويلها.

ساعة، ساعتان، ثلاث ساعات مرت بطيئة مقيتة. ساعة، ساعتان، ثلاث ساعات المشهد لم يتغير. الصمت لم يتبدل. صمت كصمت المقابر بلا قبور.

حشرجة صوت محرك سيارة فضت بكارة السكون. خيال شاحنة طل من بعيد، نباح محركها تعاظم أكثر، اقتربت تسير وئيدة كأنها تحمل صخرا، أو حديدا، مخلفة وراءها جعجعة ودخانا كثيفا كقطار فحمي قديم. لوحت بيدي ملهوفا كأعشى ليل آنس نارا.

الشاحنة توقفت مخلفة جلبة كبيرة. أطل السائق برأسه من النافذة يسأل بحركة من رأسه دون كلام.

أجبت بلهفة: الفرقلس.

الشاحنة انطلقت بمحرك مكشوف الأحشاء. مكوناته تدور بقدرة قادر. على الزجاج الأمامي ملصق كتب عليه، سيري فعين الله ترعاك، عين الحاسد تبلى بالعمى. السائق اكتنز شحما ولحما. كرشه البارزة كادت أن تلتصق بالمقود. ثوبه المشدود على بطنه مرقط ببقع زيت عتيقة. كوفية مهترئة وضعت على رأسه بإهمال. لحية قصيرة العمر نبتت على وجهه المنتفخ، أنفه الريان التصقت أرنبته بشاربين كثين غزاهما الشيب

انسدلا على حافتي فمه كشاربي مغولي قادم من أفجاج التاريخ.

بتر الصمت بموال أشبه بخوار بقري، ذكرني بقرة جدي التي رافق خوارها صباي. أنهى نصف مواله. توقف عن الخوار. تناول قربة ماء مدلاة خارج باب الشاحنة ودلقها على فمه متحاشيا في قيادته، في الوقت نفسه، الحفر والنقر في الطريق، كأنه غيبها عن ظهر قلب، ثم مسح ماء اندلق على لحيته بكم ثوبه وقال: الحمد لله رب العالمين. ثم أردف قائلا: الماء أثمن ما يملك الإنسان في هذا المكان. لو روي هذا القفر ماء لعاد، كما كان، جنة للناظرين.

العرق كان يتصبب من جبينه، وقطراته تنزلق مترجرجة على خديه، عاكسة رجرجة الشاحنة وكأنها مقياس دقيق لوعورة الطريق. أخرجت من جيبي منديلا ومددته له قائلا:
- إمسح عرقك.

تناوله مني شاكرا، مسح به وجهه ثم قال:
- أحب إلي قطرات عرق جبيني.
- لماذا؟
- لأن أمي سردت لي ذات مساء في طفولتي قصة، قايضتني بها لأنام بعد أن ألححت برغبتي في السهر، لكنها حفرت في

التلافيف الأولى لذاكرتي أخدودا عميقا، ولم أعرف معناها إلا بعد أن دفنت طفولتي مبكرا، ودخلت حياة البالغين وأنا لم أبلغ بعد.

- ماهي هذه القصة؟

- قالت وهي تمرر يدها الحنونة على شعري الناعم: كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، أن سحابة عبست فنفثت مطرا. تساقطت حباته من عل. قطرة سألت جاراتها: من أي ماء أتت؟ أجابت الأولى متغنية بجمالها: تبخرت صباح يوم مشرق من سطح بحر أزرق.

قالت الثانية متكبرة متعجرفة: تبخرت من نبع صاف في جبل في جزيرة كالجنة في المحيط.

قالت الثالثة: أتيت ذات ظهيرة حارة من بحيرة جميلة في بلاد فارس.

قالت الرابعة باعتزاز : جئت من بركة سباحة متلألئة المياه في قصر طاغية عربي.

قطرة حزينة قالت: ولدت من دمعة على خد طفلة تبكي جوعا في نفس هذا البلد.

قالت التي سألت: ربما كنت أفضلكن حسبا ونسبا جميعا.

تجهمت القطرات سائلات: لماذا؟

- إني أتيت من عرق جبين عامل ينحت بصخرة ليفلقها وينقلها حجرا تبني بيوتا وقصورا ليطعم أطفاله.

صمت السائق قليلا، نفخ دخان لفافته في الهواء ثم قال:

- لهذا السبب أحب حبيبات العرق التي تنبت من جبيني كحبات اللؤلؤ. أشعر معها بأني أكسب عيشي منها بشرف وكرامة، دون منة أحد، وأطعم أطفالي خبزا حلالا، ليس كمن يسرق رزق الناس ويكدس أموالا في البنوك الأجنبية.

لن أنسى درس أمي ما دمت حيا.

صمت برهة ثم التفت إلي سائلا باستغراب:

- من لك في الفرقلس؟

- لا أحد. سألتحق بشركة تمديد خطوط الكهرباء عبر الصحراء للعمل هناك.

جحظ عينيه وقال:

- ألم تجد مكانا أفضل من هذه الجهنم؟

- أمثالي ليس لهم الحق في الاختيار إلا بين الجحيم وجهنم فاخترت الأخيرة.

ضحك ضحكة مجلجلة كشفت أسنانه المهشمة، التي وجد فيها السوس مرتعا منذ زمن، وقال:
- كان الله في عونك. العمل ليس عيبا يا بني، حتى في جهنم، ولا تنس قصة حبات المطر.
- قصتك يا سيدي روتها لي أمي أيضا، وحفرت في تلافيف ذاكرتي أخدودا عميقا كأخدودك.

جذب علبة تبغ معدنية لف لفافة غليظة أودعها زاوية شفتيه. عب منها بنهم ونفث دخانها من منخريه كتنين آسيوي، ثم عاد إلى الخوار.

أطلت النظر في الأفق البعيد. نهاية الطريق صبت في بحيرة. المياه لمعت متلألئة تحت أشعة الشمس.
- ما اسم هذه البحيرة؟ سألت السائق بتعجب.

نظر إلي نظرة استغراب، وأردف قائلا:
- السراب. السراب يا بني السراب. السطوح المائية التي تراها ليست سوى سراب، كوعود زعمائنا الأشاوس، يبدأ كلامهم ككلمة سراب، دائما بحرف السين يقولون لك: سنفعل، سنقوم، سنحرر، سنقضي على، سندمر، كلام سراب بسراب، كهذا السراب، بحار رمل حارة تعكس صورة المياه تراها من بعيد ولكن لا وجود لها. هذه هي جهنم التي اخترت.

وأنا مستلق في زنزانتي مغمض العينين كنت أسترجع كلام السائق الذي فاجأني بسؤال:

- الأخ متعلم ؟

-تخرجت من كلية الآداب منذ عدة سنوات.

- آداب! قالها مستهجنا. ثم تابع بقوله: الآن عرفت من دفع بك إلى هذه الصحراء. أدباء اليوم ليس لهم مكان في بلادنا سوى الصحراء. يعودون إلى سيرة الأدباء الأوائل، كانوا هم أيضا في الصحراء.

صمت قليلا ثم قال بسخرية جلية:

- الصحراء، على أية حال، موقع إلهام. ألم ينطلق منها امرؤ القيس، وزهير، وعنترة، ولبيد، وطرفة، وجميل، والمجنون، وبن كلثوم، والشنفرى، معلقاتهم مازالت عالقة على كل لسان. ثم أخرج يده من النافذة وراح ينشد بصوت عال قائلا:

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم
قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
لخولة أطلال ببرقة ثمهد
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

ولا تبقي خمـور الأنـدرينا

عفت الديـار محلهـا فمقامهـا...

نظرت إليه وهو يردد مطالع المعلقات الجاهلية مقاطعا بسؤال:

- أأنت هاو للشعر؟

أجاب بقوله مستهزئا وهو يشير بسبابته إلى صدره:

- أنا مثلك خريج آداب يا بني، فنيت عمرا بين الكتب، ولكن ماذا أفادني هذا الأدب. ماذا قدم لي تأبط شرا، أو الشنفري، والأصمعي، والمتنبي، وبدر شاكر السياب، ونزار قباني. قضيت أربع سنوات عجاف سدى في الجامعة، وتقلبت في مهنة التدريس والكتابة، أما في التدريس فكان الراتب هندي، والمصروف أمريكي، لغلاء المعيشة وضعف القوة الشرائية لليرة، حتى أن الفجلة باتت تناطح الليرة. والكتابة وإن كانت تدر بعض المال، لكنها أخطر مهنة في هذا البلد. فلا مندوحة عن التبجيل والتبخير للذات السلطانية العليا، وإلا فإن سجن القلعة بانتظارك.

صمت قليلا ثم تابع متحسرا:

- في النهاية جلست وراء مقود السيارة. آكل لقمتي بكرامة، وعدت إلى الصحراء، موئل الأدباء الأوائل.

قلت:

- وأنا قضيت مثلك سنوات أربع عجاف، في العلم، وأخرى أعجف في التعليم. وخرجت منها أحمل على كتفي الأيمن دواوين الشعراء ومؤلفات الأدباء، وعلى كتفي الأيسر كل فلسفات الشرق و أديانه، وأنبيائه، وخرافاته، ومشيت على دروب آلامه، وشربت دموعه وها أنذا أعود إلى الصحراء، موئل الأدباء الأوائل.

شفتاه رسمتا ابتسامة ساخرة. تنهد بعمق ثم قال متحسرا: العلم في بلادنا لم يعد يجدي نفعا هذه الأيام، حملة الشهادات العليا يقيسون الشوارع طولا وعرضا، ويتربصون بالفرص للهرب للخارج، لأي بلد يؤمن لهم عيشا أفضل يصون كرامتهم، ويمنحهم الحرية، حتى ولو كان في جزر الواق الواق. العقول تهاجر كالطيور، إلى أمكنة الدفء والعيش الكريم. تجدهم في باريس ولندن وواشنطن، الدول الأجنبية تستقبلهم لأنهم خبرات رخيصة تأتيهم جاهزة للاستخدام بعد أن استغنت عنهم بلادهم والغربة الغربية دائما غريبة. الجائعون يهاجرون من أجل لقمة أولادهم، تجدهم في دبي وأبو ظبي والكويت والدوحة وطرابلس، وهذه البلاد تستقبلهم كعمالة متمرسة برواتب خسيسة. بالنسبة لي حسمت الأمر. أخرجت الأولاد من

المدرسة وقلت لهم: ما فائدة إضاعة الوقت في التعلم إذا كانت النهاية هي الوقوف وراء عربة خضار، أو مقود سيارة أجرة، أو الهجرة، والمهاجر يبقى ذليلا، الفاقة تضرس هؤلاء المساكين بأنيابها وتدفعهم لطلب الرزق حتى على أطراف المريخ، أو جهنم كما فعلت.

عب من لفافته نفسا عميقا ونفثه في الهواء وكأنه يجتر مرارة كبيرة، ثم تابع قائلا:

- وضعت إبني الأول عند نجار ليتعلم النجارة، والثاني لدى ميكانيكي مصلح سيارات، والثالث فتح دكان حلاقة وهو يتعلم الحجامة في رؤوس اليتامى، إذا صح التعبير، والرابع يعمل في معمل للحلويات. أما البنات فزوجتهن لأول من تقدم لهن. فلا علم ولا هن يتعلمن، ولا أدب ولا هن يتأدبن.

صمت قليلا ثم قال:

- أناس فوق الريح، وأناس تحت الصفيح. هذه هي حياتنا بالعربي الفصيح.

كلامه كان مخرزا وخز مني الكبد. الشهر الماضي وصلت للقناعة ذاتها، فتخرجي من الجامعة لم يعطني أية فرصة عمل سوى سائق سيارة أجرة عرضها علي أحد الأصدقاء. أو نائب

مدرس بالوكالة في قرية نائية على هضبة منسية حتى من السماء، ورغم كل صلوات الاستسقاء لأهلها وتوسلهم إلى الله لم تنهمر على رؤوسهم، منذ زمن بعيد، قطرة غيث واحدة تبل رمق الأرض الجافة الحلق التي لم تعد تنبت سوى الشوك والقراص، والحريق والعليق، فهجرها معظم شبابها للمدينة للبحث عن أي عمل ليزيدوا في طوابير العاطلين طولا، وفي أحزمة البؤس التي تتحلق حول المدن عرضا، أما شاباتها فقعدن ينتظرن غيثا من نوع آخر، ولا من مغيث.

عندما وصلتها ذات مساء كئيب، كان المدرس الذي سبقني إليها قد أمضى فيها شهرين قاسيين وهرب دون الالتفات إلى الوراء، جراء القمل الذي سرح في رأسه بفعل عدوى الطلاب الذين وجد القمل في رؤوسهم مرتعا سهلا وآمنا من سطوة الماء والصابون، ومن تهديد الطلبة له الذين أمضى بعضهم عدة سنوات على مقعد الدراسة في الصف ذاته، فكان ليس من المستغرب أن نجد طالبا بشاربين عريضين إلى جانب طالب آخر مازال زغب الحواصل.

بدوري هربت بعد أقل من شهرين طالبا النجاة بعد أن هاجمني أهل القرية، وأشبعوني قذفا ببيض الدجاج البلدي باعتباري مفسدا للجيل، وكوني حاولت تبرير تحرير المرأة وضرورة تعليمها كالرجل. فبنات هذه القرية كمعظم

القرى،لا يعرفن سوى جدران المنزل وأعمال الحقل. حتى أن أحد الطلاب المعقوف الشاربين، ومن رعيل الكسالى القدامى، قذفني بحبة بطاطا كادت أن تفجم رأسي صارخا في وجهي: خذ هذه درسا لك حتى تتعلم كيف تضع علامة صفر على ورقة الامتحان.

أيقظني السائق من شرودي بخوار جديد. أيقظ معه كل شياطين أشجاني بتحسره على أيام خوال وفراق الأحبة. بعد أن أنهى مواله التفت إلي وقال:

- خذ حذرك يا بني هذه الصحراء مليئة بالعقارب والأفاعي والضباع والذئاب والثعالب.

نظرت إليه وقلت بعد صمت وجيز:

- ربما كانت أرحم بكثير من بني البشر.

ضحك وقال:

- والله صدقت يا بني. بنو الحيوان أقل وحشية من بني الإنسان. وتابع بقوله ساخرا: وظلم بني الإنس أشد مضاضة من ضرب الحسام المهند.

الطريق باتت لسانا طويلا تتوغل باستمرار في حلق الصحراء. في المدى البعيد ارتسمت أشكال مكعبة بيضاء تناثرت كأحجار نرد أفضت بها يد تلهو بإهمال.

وقافلة جمال تمشي وئيدا في خط مستقيم يتقدمها حمار متكاسل.

رمقت القافلة بنظرة طويلة وهي تمر أمامنا متثاقلة، ثم سألت السائق قائلا:

- أسائل نفسي لماذا يوضع الحمار دائما على رأس قافلة الجمال؟

ضحك مرة أخرى وأجاب بشماتة واضحة:

- لأن العير لا تثور على الحمير، فكيف لك أن تتغير الأمور، لهذا السبب ستبقى الحمير على رؤوس القوافل.

قطع السائق حديثه وأشار بيده إلى البيوت التي باتت أقرب، وقال:

- هذه الفرقلس. بضعة دور وتنور وعزرائيل يتربص بالجميع بعد أن وجد فيها مرامه لشدة الفقر والجهل والمرض.

كبس بقدمه على الكابح. المحرك أطلق سعالا متصلا ثم توقف كمن لفظ الروح. تجمع الأولاد حول الشاحنة يتصايحون. حفاة نصف عراة. غمامة ذباب تطن طنينها وتتطاير فوق رؤوسهم ثم تحط على أجفانهم حتى لا تكاد العين ترى. تدافعوا وتنافروا وتجاذبوا. ضرب أحدهم

الآخر. بكى الأخير وضحك الآخرون. صاح بهم السائق بصوت بقري قائلا :
- أغربوا عن وجهي يا أولاد الكلب.

هرب الأولاد لا يلوون على شيء. ثم راحوا يشتمونه من بعيد ويقذفونه بالحجارة.

- يا أولاد الشياطين، يا قليلي الأدب والتربية، إذا أمسكتكم سأريكم نجوم الظهيرة.

وأخيرا التفت إلي وقال : اذهب يا بني في عون الله وتوفيقه، رافضاً أن أنقده الأجرة، ثم تابع :
- يا أدباء العالم اتحدوا.

3

على باب مكتب الشركة وقف عامل كسا عضلاته الناتئة جلد قهوي محروق. رشقني بنظرة حادة تحاشيتها. عبرت الباب. ساحة الدار الواسعة الأرجاء كثرت في جوانبها الحركة. عاملان يتشاجران. يتدافعان، ثم يتشاتمان. مجموعة أخرى التفت تلعب الورق. في الزاوية عامل ينهش لفافة شارد الذهن. علامات الشقاء كانت أقنعة لبست الوجوه. مذياع قديم قبع في إحدى الزوايا يتقيأ خطابات، وشعارات سياسية تعد بالحرية والتحرير، والوحدة والاشتراكية، والناس في لهو عنه.

سألت عن المهندس نوري. قالوا:

- في الورشات.

لملم النهار شبكة ضيائه من صحن الدار. مجموعات العمال آبت من ورشات العمل. بؤس عريق سكن

الوجوه التعبة المغبرة. تدافع العمال على صهريج الماء يملأ كل منهم وعاء لغسل الوجه واليدين قبل تحضير وجبة العشاء.

دخل المعلم نوري. توجه صوبي سائلا: أنت العامل الجديد؟

- نعم.

تنهد وقال: وصلت في الوقت المناسب. ستبدأ العمل غدا في منطقة تياس وستشرف على مجموعة الفرز.

قطع حديثه ونظر إلي مستفسرا: أخبروني بأنك تجيد لغة أجنبية أليس كذلك؟

أجبت بخجل: أعتقد ذلك.

فرش خريطة أمامي. أشار إلى الأعمدة والطريق التي ستسلكها. الخط يبدأ من بحيرة قطينة في ضاحية حمص، ويعبر الصحراء. يمر من الفرقلس، وتياس، والتي فور، والبيضاء، وينتهي بالقرب من تدمر في مناجم الفوسفات.

تابع بقوله: الورشة تتكون من ثلاثة عمال، والسائق أليس الذي سيأتيك غدا صباحا لصحبتك إلى الورشة الواقعة في عمق الصحراء.

استطرد في الشرح قائلا:

- أعمدة الكهرباء تأتي قطعا معلبة في صناديق. كل صندوق يحتوي على عدد من قطع معينة من العمود. تفرز وتجمع القطع اللازمة لكل عمود بحيث إذا تم تركيبها الواحدة تلو الأخرى تبني عمودا متكاملا، واختيار هذه القطع يتم حسب مخطط مدرج فيه رموز تحدد كل قطعة بأرقام وأحرف لاتينية.

ثم وجه سبابته إلي وقال:

- إياك ثم إياك أن يتم رفع أي عمود قبل التأكد من متانته، فهناك وحدة مراقبة قاسية تقوم بالتفتيش المستمر على الأعمدة. ثم ضرب على كتفي وقال: وفقك الله.

كان الصباح رطبا . العمال على عجلة من أمرهم ذا يلبس مهرولا، وذاك يدلق على رأسه ماء عكرا من إبريق عتيق، وآخر يبول في العراء، وعيس ناعسة تلوك لاشيء ربضت على مقربة من باب الدار.

شاحنة أطلت من بعيد. توقفت قبالتي، هبط منها رجل متوسط القامة ممتلئ الجسد، ناهز الثلاثين. شال بدوي التف حول عنقه. وجهه المليء الخدين، الكامل الاستدارة أضفى عليه بعض الوسامة. عينان سوداوان واسعتان، أنف

دقيق. شاربان كثان ملآ نصف وجهه السفلي وحجبا معظم شفتيه. عيناه الكبيرتان الباسمتان تومضان بفرح دائم. فوق أذنه انحصرت لفافة تبغ غليظة. مد يده وأطبق على كفي بعنف. قبضته القوية هصرت أصابعي. رمقني بنظرات مستقيمة وقال:

- أليس، أهلا بك في صحرائنا.

في زنزانتي كم لعنت الساعة التي تعرفت بها على أليس رغم إعجابي به ومحبتي له. لقد قلب كل شيء في حياتي رأسا على عقب. كل المصائب التي حلت بي، فيما بعد، كانت بسبب تصرفاته. ربما عن غير قصد، ولكن النتيجة كانت كما لو أنه تعمدها. ولكن أين هو الآن، وأين دفن الكنز؟

لا أحد يدري.

الشاحنة انطلقت. عاجت صوب درب تائهة. مخرت خضم القفر. أثارت وراءها نقعا عظيما. بتنا نقطة في هذا البحر الرملي.

بتر أليس حبل الصمت. داهمني بسيل من الأسئلة. من أكون؟ وماذا؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ وأين؟

بدا سعيدا بمعرفتي. مد يده إلى أذنه وقدم لي لفافة التبغ. اعتذرت بلطف.

قال متعجبا:

- لا تدخن!!!.

ثم أردف مستنكرا:

- لا تقل لي بأنك لا تشرب أيضا.

- لا أدخن، ولا أشرب.

صمت قليلا ثم قال:

- هل أنت من الأخوان المسلمين؟

- كلا.

سألني متجهما:

- وماذا يمنعك إذن؟

- صحيا، وعقليا، وضيق ذات اليد.

أجاب قائلا بعد أن لحس اللفافة بلسانه وأشعلها وأودعها زاوية شفتيه:

- أما صحّيا «فسيأتيكم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة»، وعقليا ما أجمل أن يهرب الإنسان من عقله في هذه البلاد، فالذين حاولوا الاحتفاظ بعقولهم سليمة انتهوا أخيرا إلى مستشفى الأمراض العقلية لكثرة التفكير في وضع هذه البلاد المؤلم. أما ضيق ذات اليد، فهذه آفة الجميع، كلنا أفقر من الصحابة، و«اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب».

ثم مج اللفافة مجا، ونفخ الدخان في الهواء وكأنه مدخنة موقد انطفأت ناره بغتة، ثم قال:

- ستغير رأيك قريبا. ثم تابع بالقول:

- ألم يقل عمر الخيام:

واغنم من الحاضر

سألته قائلا: أأنت أيضا هاو للشعر؟

أجابني مفاخرا:

- بل أنا شويعر.

- لم أسمع عنك.

- لم أستطع نشر دواويني. اعتبروها من الممنوعات.

- هل انتقدت أو هجوت أحدهم؟

- طالبت فقط بالحرية.

- ألا تعلم أن المطالبة بالحرية في بلد كهذا هي من المحرمات.

- علمتها في السجن عندما اتهموني بالتحريض على أمن الدولة.

خزانات نفط كبيرة برزت عن بعد. رائحة قوية تزكم الأنوف. أشار بيده إليها وقال:

- إنها نقطة التي فور. إحدى مضخات النفط العابر إلى المصافي الشاطئية التي تغذي معامل الغرب ومدافئه.

ثم تابع بالقول:

- نحن نشم رائحته فقط. كما يقول المثل: شم ولا تذق. الذهب الأسود القادم من المنابع، من الجزيرة العربية يسلك طريقه إلى أوربا عبر هذه النقطة. الذهب يذهب للغرب، والأسود يبقى لنا.

كلامه أعادني إلى ذكريات الطفولة، عندما كنت أسمع عن تفجير هذا الخط النفطي من قبل الجيش السوري دعما لمصر إبان الاعتداء الثلاثي في حرب السويس. كنت في السابعة عندما رأيت أمي تضع أذنها على المذياع الكبير في غرفة جدي، الذي كان حيا آنئذ، تصخي السمع والقلق باديا في عينيها.

شعرت بخوف شديد. سألت بسذاجة الطفل:

- ماذا تسمعين يا أمي؟

أجابت مستنكرة:

- سيقتلون ويسفكون الدماء مرة أخرى. سيحتلون أراضينا ويرموننا كلاجئين. لقد دمر جيشنا خط أنابيب النفط الذي يعبر أراضينا، ولن يدعنا الغزاة دون عقاب. هؤلاء القتلة، لا نسلم منهم، إنهم يهاجموننا حتى في عقر دارنا، ويعتدون علينا، ويسلبون ممتلكاتنا لماذا كل هذا الجور والحقد؟

كان الحديث موجها إلى جدي، المكوم في زاوية الغرفة، أكثر من أن يكون موجها إلي. رفع جدي رأسه ببطء شديد ثم قال:

- يا بنيتي إن هؤلاء القتلة يرفضون تأميم قناة السويس التي حفرت بأياد مصرية، وعلى أرض مصرية. إنهم يصرون على استعمارنا، لكن اللوم يا بنيتي لا يقع عليهم فقط بل على العرب جميعا الذين لم يجتمعوا على كلمة، ولو اجتمعوا لما تجرأ أحد على الاستفراد بنا. ثم رفع يديه إلى السماء وراح ينادي بأعلى صوته:

- الله ينصرك يا ناصر على أعدائك، الله يبلي كيدهم بنحرهم. اللهم انصرنا على الكفار والمعتدين إنك أنت السميع المجيب.

كان جدي قد فقد بصره، وخفتت حاسة سمعه منذ سنين بعد أن بلغ من الكبر عتيا، فتكوم في زاوية الغرفة لا يبرح المكان إلا قليلا، وبيده مسبحة طويلة تدور بين أصابعه النحيلة كناعورة ماء في دوران مستمر، وكأنها عداد للزمن. كل حبة تنزلق بين أصابعه بثانية. حبة، حبتان، حبات ثلاث، ثانية، ثانيتان، ثوان ثلاث. أمضى بقية عمره في هذه الزاوية يتمتم والثواني تمر بين أصابعه

حتى آخر ثانية لفظ معها نفسه الأخير وكانت آخر حبة تسقط من السبحة.

كنت أنصت إلى كلام أمي وجدي بكثير من الجدية، كان يصعب علي فهم الأشياء. تصورت المهاجمين هنودا حمرا، وزنوجا سودا يغيرون علينا بالفؤوس، والأقواس والنبال، والرماح، والبنادق، تماما كما رأيت، ولأول مرة في حياتي، شريطا سينمائيا في صالة العرض اليتيمة التي افتتحت في القرية قبل أشهر قليلة. المجرمون كانوا الهنود الحمر في أمريكا الذين يهاجمون عربات المهاجرين المساكين ويقتلونهم، ويقتلون أطفالهم، ويسلخون جلود رؤوسهم. وككل الأطفال كنت متحمسا لبطل الفيلم الأبيض ذي العينين الزرقاوين، والقامة الجميلة وهو يصوّب بندقيته إلى هؤلاء الأشرار ويقتلهم فردا فردا، وينقذ عربات المهاجرين وما تبقى من الناس الأحياء ممّن جاؤوا إلى هذه الأرض لإعمارها. وظل الهنود الحمر في مخيلتي أشرارا يقتلون الأبرياء ويستحقون الموت، إلى أن قرأت، بعد سنين عديدة، قصة احتلال أمريكا من قبل الأوربيين، وكيف كانوا يرتكبون مجازرهم ضد الهنود الحمر حتى قضوا على أكبر عدد منهم كي يسيطروا على

أراضيهم. تماما كما كان تصوري عن الزنوج عندما شاهدت فيلم طرزان لأول مرة، هذا الرجل الأبيض الذي تربى في أحضان قردة، لكنه كان رجلا خارقا يهاجم الزنوج المتوحشين الذين يعلقون الرجال البيض، كل منهم من ساقيه على شجرتين مطويتي الجذعين بحبلين مشدودين ثم يطلقونهما فجأة لتعودا إلى موقعهما بعد أن تكونا قد شرختا الرجل المقيد بهما إلى نصفين ثم يوضع في قدر ماء يغلي ليكون وجبة شهية لآكلي لحوم البشر من أبناء القبيلة. هؤلاء الوحوش كانوا يقضون مضاجعي ويزورون أحلامي، وكم من مرة حلمت بطرزان يأتي في اللحظة المناسبة لينقذني من أيديهم. حتى أني عندما قابلت أول رجل أسود في حياتي، وكنت برفقة والدتي لزيارة أحد الأقرباء في دمشق، انتابني رعب شديد، واختبأت وراء أمي أطلب النجاة. ولم أفهم كنه وغاية هذه الأفلام إلا عندما قرأت كيف كان الرجل الأبيض يأتي إلى أفريقيا بأسلحته الفتاكة، وقواته الجرارة، ليحتل القارة السمراء ويبعث بشبابها وشاباتها مكبلين بقيود حديدية ليعملوا كالحيوانات في المزارع الأمريكية. وتعجبت كيف لهذا الصبي الأبيض الذي رضع من قردة وترعرع كالقرود بات الكائن الوحيد في

هذه الأدغال الذي يتحلى بقوة خارقة تمكنه من مصارعة التماسيح والأسود والتغلب عليها، بل إنه الوحيد الذي يستطيع أن يفهم لغة الحيوانات وينادي الفيلة للهجوم على أكواخ الزنوج القتلة وهدمها. هل هذه الأفلام كانت بمثابة تبرير لشنائع الغرب الذي يجب أن يبقى متفوقا على الآخرين بقوته وفكره وحضارته، حتى ولو تطلب ذلك قذف الأعداء بالقنابل النووية. هذا السؤال ما زلت أطرحه على نفسي حتى اليوم؟

لصغر سني لم أفهم ما هو النفط، وما هي قناة السويس، ومن هو جمال عبد الناصر، ولكني فهمت أن المسألة خطيرة وأن هناك حربا بين العرب والمجرمين، وأنهم ينوون الهجوم على قريتنا كالزنوج والهنود الحمر. قلت لوالدتي بصوت متيقن:

– يجب أن نستغيث بطرزان.

ضحكت والدتي وقالت مداعبة:

– لن ينقذنا يا ولدي سوى طرازانات بلادنا.

– وهل لدينا نحن طرزان أيضا؟

– لا. ولكن لا بد وأن تلد نساؤنا طرازانات كثيرة يوما.

في ذاك اليوم شاهدت أهل القرية يطلون النوافذ باللون الأزرق، والناس جيئة وذهابا يُقرأ الوجل على جبهاتهم، صعدت أمي على سلم خشبي عتيق لتطلي نوافذ بيتنا الصغير باللون الأزرق كباقي سكان القرية.

- لماذا تطلين هذه النوافذ يا أمي ؟
- طائرات المجرمين تقصف ليلا وهذا الطلاء يحجب النور المنبعث من المنزل ولا يمكن للطائرات رؤية قريتنا ليلا.

تلك الليلة نمت بين ذراعي أمي خائفا أن تقصف الطائرات بيتنا، وأن نصبح دون مأوى، أو أن يقتلوا أمي، أو أخي الوحيد. كنت أرتعد في فراشي، ثم أشاهد أحلاما مرعبة. الهنود الحمر يقبضون على أمي تارة ويريدون ذبحها، ثم الزنوج يريدون أن يضعوني في قدر ماء تغلي وأنا أصيح.

استيقظت أمي على صراخي. راحت تهدئ من روعي، وتضمني إلى صدرها.

- لا تخف يا بني لا تخف.
- لماذا يريدون قتلنا يا أمي، ماذا فعلنا كي نستحق القصف بالطائرات ؟

- لا تخف يا بني إن الله معنا وهو سيحمينا من هؤلاء القتلة السفلة.

- هل هم الهنود الحمر الذين قتلوا أبي؟

نظرت إلي باستغراب ثم قالت: الهنود الحمر!! ثم استدركت نفسها وأجابت: نعم، هؤلاء القتلة قتلوا أباك ولكنهم هنود بيض، لا تحزن، أبوك صعد شهيدا إلى الجنة، وهؤلاء القتلة سيعاقبهم عز وجل بجهنم.

حقدت عليهم حقدا شديدا، ونمت بين ذراعي أمي خائفا مرتعدا.

أمي الأمية التي لا تكاد تفك الحرف، ككل بنات جيلها وأترابها، كانت تنضح بالوطنية والشجاعة والتضحية. كنت أسمع النساء اللواتي كن يأتين لزيارتها يقلن : سنبيع شعرنا وحلينا لنصرة العرب. ويرفعن أيديهن إلى السماء ويقلن : نصرك الله يا ناصر.

في تلك الفترة كانت النفوس متأججة لنصرة مصر. وعندما قام البحار السوري جول جمال بعملية انتحارية بطوربيد ضد مدمرة فرنسية، رأيت الناس يهللون لهذا الفدائي الذي كانت قصته على كل لسان. وعلقت صوره على واجهات المحلات التجارية إلى جانب صورة ناصر.

عندما انتقلت والدتي إلى دمشق لتعمل خادمة في إحدى المستشفيات، بعد أن ضاق بنا العيش في القرية، أدخلتني مدرسة إعدادية كان اسمها: جول جمال. توقفت قليلا أتأمل اسم المدرسة، وأستخرج من أنفاق وكهوف الذاكرة التي عادت بي إلى سنين مضت عندما كنت أرى صوره على واجهات محلات قريتنا في تلك الفترة الحالكة المريرة من حياتي ومن تاريخ هذه الأمة.

الآن أمرّ أمام هذه الأنابيب الممتدة كشريان الدم في الجسد في هذه الصحراء لتصب في مصفاة بانياس، ومنها إلى حاملات النفط العملاقة. لم يتغير شيء، مازال الذهب يذهب غربا، والأسود يبقى لنا، لكن بتنا أسوأ حالا، وأكثر فقرا، وأمر مذلة. لا غثا أصبنا ولا سمينا. الثروات النفطية الهائلة تقبع في مصارف الغرب وتضخم في حجم أرصدة الحيتان الكبيرة المسيطرة على هذه الثروات الوطنية، وتزيد في رصيد البؤس والشقاء في بلادنا.

أيقظني أليس من سفري في ماضي ذكريات الطفولة الأليمة قائلا:

- أين سافرت يا صاح؟ ومالي أراك متجهما لمجرد أني كلمتك عن أنابيب النفط؟

- لا شيء، مجرد ذكريات عبرت أفق خيالي.

ارتفعت درجة الحرارة. وصلت الشمس إلى أعلى درجات السماء. أليس خلع القميص والشال عن كتفيه. رسوم وشم ملأت ظاهر ذراعيه مفتولتي العضلات: خنجر معقوف. نبلة تخترق قلبا يقطر دما. وردة. جمجمة وعظمتان.

لاحظني أتفحص هذه الرسوم باستغراب. رمقني بنظرة ثم قال بفخر واعتزاز :

- هذه مخلفات السجن.

قلت بدهشة :

- دخلت السجن ؟!!!

انقبضت قليلا. لاحظ ارتباكي. حاول طمأنتي بقوله :

- لا تخف لم أقتل.

ابتسم قليلا قبل أن يقول وقد لاحظ أني أنتظر الجواب:

- اتهمت بالمحرمات.

- أقمت بعملية تهريب مخدرات؟

- معاذ الله.

- هل اغتصبت قاصرا؟

- ليست من شيمي.

- هل سطوت على مصرف؟

- يا ليت.

- تعاملت بالسياسة إذن؟

- لم أمتهن الكذب والاحتيال والفساد.

تنهد بعمق وقال بصوت فيه الكثير من الأسى:

- آه من أولاد الحلال. أحدهم كتب تقريرا إلى الجهات المختصة قال فيه بأني أتعامل بالسياسة وأني شتمت الرئيس بقصيدة.

صمت قليلا ثم قال:

- هنا في هذا البلد يمكنك أن تشتم الأنبياء والرسل، لا أحد يعيرك اهتماما، أما أن تقول كلمة في الرئيس فتلك الفاحشة الكبرى، ويحق عليك القول، وتساق كالنعجة إلى المسلخ. ورغم أني أكدت لهم مرارا وتكرارا بأني أعمل ضمن القانون، وأني لم أهجُ الرئيس، وإنما كانت قصيدة عبرت فيها عن مرارتي لأوضاع بلدنا، إلا أنهم أشبعوني ضربا وتعذيبا لأقر بصحة ما جاء في التقرير. وكان القصد أيضا تلقيني درسا في الرعب لأكون عبرة لمن اعتبر. لكل من تسوّل له نفسه المساس بالذات العظمى. ولم يفرجوا عني إلا بعد أن قضيت عدة سنين في أقبية سجن قلعة دمشق، وبعد عشرات جلسات التحقيق والضرب والتعذيب. حتى أني عندما خرجت من هذا السجن اللعين لعنت فيه أمي التي ولدتني في هذا البلد. ومنذئذ هجرت الشعر والنقد والكتابة، ولاشيء يهمني في هذا العالم، بعد اليوم، سوى بطحة العرق وفروج النساء الطازجة.

صمت قليلا. أخرج لفافة جديدة. عب من جوفها ونفث دخانها في الهواء بمرارة واضحة وكأني فقأت دمل آلامه، ثم نظر إلي وقال:

- أرجو أن يبقى هذا الكلام سرا بيننا.

ثم تابع بقوله:

- دعنا من السياسة لعن الله السياسة والسياسيين. الإمبرياليين منهم والشيوعيين، اللينينين والستالينيين، الماويين والتروستكيين، الاشتراكيين الواقعيين وغير الواقعيين، القوميين والشعوبيين، الانفصاليين والوحدويين، والبعثيين القوميين منهم والقطريين، لعنهم الله أجمعين.

- لماذا كل هذا الحقد عليهم؟

- لأنهم جميعا كاذبون، منافقون، وصوليون، لولبيون، حلزونيون، يتلونون كالحرباء، ويحتالون كالثعالب، ويمكرون كالقرود، وينهشون لحمنا كالضباع.

صمت قليلا ثم قال:

- كلمنا عن النساء فهن وإن كان كيدهن عظيم إلا أنهن أقل خطرا من التعامل بالسياسة والسياسيين، وبالشعر والشعراء، وبالثقافة والمثقفين.

أخذ نفسا عميقا من لفافته ونفث دخانها في الهواء ثم قال:

- أنا اليوم كأبي نواس أتبعه قولا وفعلا:

لا الصولجان ولا الميدان يعجبني
و لا أحن إلى صوت البواشيق
وإنما العيش في اللذات متكئا
وفي السماع وفي مج الأباريق

نظرت إليه متأملا وقلت بخجل:

- لا يوجد لدي ما أقوله عنهن.

رشقني بنظرة حادة ثم قال:

- لا تشرب، لا تدخن، لا تقامر، لا تعاقر النساء، لماذا تعيش إذا. ادخل أول مقبرة تصادفك وادفن فيها نفسك من الآن. فإن عشت على هذه الحال فالحياة ستبدو لك طويلة ومملة، ولا فارق كبيرا بينها وبين القبر. والأفضل لك أن تذهب مبكرا إلى الرفيق الأعلى ليسكنك فسيح جنانه فهناك ستجد ما لذ وطاب من خمر وقيان وحوريات حسان.

ثم قهقه وسألني بشيء من السخرية:

- ألم تر رجليك أربعة في فراش؟.

فهمت القصد، وأحسست بمرارة شديدة. وكي أهرب من خجلي قلت:

- كان لي بعض المغامرات، أي قبلات ولقاءات سطحية العمق.

مط بوزه وصاح مستنكرا:

- مغامرات سطحية العمق !! لا خير يا صاح إلا في العمق.

وتابع متنهدا:

- آه يا هند آه.

- ومن هند هذه؟

أجاب بشيء من الفخر:

- أجمل ناقة علا سنامها الداعي لك بالخير.

ثم تابع بقوله:

- ألا حبذا هند وأرض بها هند.

- مفرداتك حيوانية صحراوية.

ضحك من الأعماق، وضحكت معه. ضرب على فخذي بقوة وقال:

- إنه تأثير المحيط يا صاح. إنه تأثير المحيط. مضى علي حين من الدهر في هذه الصحراء لم أر فيها سوى الحمير

والبعير والثعالب والذئاب وبنات آوى. ومفرداتك ستصبح قريبا مثل مفرداتي... واستمر في الضحك.

بيوت شعر سوداء بانت من بعيد. إبل تلوك أشواكا وتمشي وئيدا على مقربة منها. كلاب مسعورة انطلقت نحونا وهرتنا بعنف مكشرة عن أنيابها.

التفت إلي وقال :

- إنها كلاب قوم عذاب أبي شامة. ثم ضم أصابع يده وقبلها وتابع بقوله : شامة، ناقة سمراء، إذا ابتسمت أضاءت القلوب، قد أسطوري، ووجه قمري، وجيد مرمري، ونهدان مكوران بارزان كرمانتين ناضجتين صلبتين، وعجيزة يعجز الشعراء عن وصفها. إذا مشت ترجرج جسدها وترجرج معه قلبك. وكما يقول عنترة في عبلة يا صديقي :

تريك إذا ولت سناما وكاهلا

وإن أقبلت صدرا لها يترجرج

- جعلت منها عبلة؟

- أية عبلة هذه يا صديقي، إذا حانت لك فرصة يوما ورأيتها ستذهب بلبك لا محالة، كما ذهبت بألباب الكثيرين من

قبلك. وستجعل منك عنترة تحارب جيشا بأكمله من أجلها.

قصتها قصة. تسكن مع والدتها وكلابها وإبلها وقطيع غنمها بعد أن أودع والدها السجن.

- ماذا فعل المسكين هل كتب قصيده يهجو فيها الذات العليا هو الآخر؟

- لا أدري تحديدا. سمعت أنصاف كلام هنا وهناك. يتحدثون عن صراع عشائري، وأن أباها قتل شخصا من عشيرة أخرى أخذا بالثأر فأودعوه السجن. ثم جاء بدوي من هذه العشيرة، فتحين فرصة من هذه الفتاة، عندما كانت ترعى بعيدة عن مرامي خيام والدها، واغتصبها بعد أن قتل الراعي الذي كان يرافقها وكلبين كانا بحراستهما. فقام أخوها بملاحقته في كل مكان دون أن يعثر عليه. وتحين مرة فرصة منه عندما رآه صدفة في تدمر فقتله رميا بالرصاص. أودع على إثرها السجن أيضا. وكادت أن تشتعل الحرب بين العشائر بسببها ومنذ ذلك الوقت لا أحد يريد الاقتران بها، وهي ترفض الزواج على أية حال.

في زنزانتي شغلت معظم تفكيري. احتلت رأسي. صوتها ملأ مسمعي. كنت أتذكر ضحكتها الحزينة وعينيها الواسعتين بلون الكستناء. عيناها كانتا ستارا يحجب

أعماقها. تصدان ناظرهما. تلسعانه. تجمدانه في مكانه. تحبسان أنفاسه. تردانه على أعقابه.

في محاضر الاستجواب لم أذكر اسمها، خشيت أن أدنسه، أو أن تطلب للتحقيق. اليوم بيني وبين أبيها مسافة قصيرة، يجمعنا حب مشترك. لم يفهم لماذا دافعت عنه في باحة السجن عندما اعتدى عليه أحد السجانين الذي دفعته وصرخت فيه قائلا:

- دع الشيخ عذاب وشأنه.

عندما نهض عذاب نظر إلي مليا بصمت ثم قال:

- حماك الله يا ولدي، كيف عرفت اسمي؟

لم يكن يعرف قصتي وحبي لابنته التي كان اسمها يملأ جدران زنزانتي. كنت أعد بها الأيام ككل المساجين الذين يرسمون خطوطا عمودية متوازية على الجدران، كنت أكتب شامة، شامة، شامة. امتلأت الجدران باسمها، ولم أعد أعرف أين بدأت، وأين انتهيت. لقتل الوقت كنت أعدها يوميا، أسترجع صورتها. أتذكر كل كلمة قالتها لي. أتخيلها معي. أحلم بها. أعانقها. أقبلها فلا أرتوي. أركض خلفها لاهيا فتركض أمامي. أستيقظ فجأة فأراها تركض على الجدران شامة، شامة، شامة. مذ رأيتها

عصفت في قلبي رياح شديدة العصف والقصف. كنت أبحث عن قلب نبيل ووجدته مكنونا في هذه الصحراء، ككنز دفين لا تجده إلا صدفة. حبها أصاب شغاف قلبي، وبات لها فيه إقامة دائمة، وأحرقني جواها. تيمتني بحبها، وطيفها سكن روحي. حياتي البكر بدأت معها. صارت شفائي من سقمي، من حزني المظلم الذي يفري كبدي. ومن الوقت الذي باتت ثوانيه دهورا تنتقل بثقل شديد على عقارب السقم والمعاناة.

4

ساعات السجن طويلة. تتمطى. تتكاسل. لا تنقضي إلا بشق الأنفس. الزمن ليس له مقياس. لا أحد هنا ينظر إلى عقارب الساعة، وإن اقتنى أحدهم واحدة. السجناء يقولو ن :

- كلما سألت عن الوقت وتابعته ازددت عذابا وألما وإحساسا به. يجب أن تنساه، وتنسى نفسك، وتعيش وكأنك خارج الزمن. التوقيت الوحيد هنا عند المساجين هو الخروج إلى الساحة «للتهوية». تراهم يمشون بخطى متسارعة بمسار دائري، ليحركوا الدم الخامل في عروقهم، كدابة مشدودة إلى ناعورة على بئر مهجورة. وعندما يعودون إلى المهاجع يتحايلون على الزمن. يحاولون قضاء الوقت في شغل المحفظات والسبحات من خرز رفيع . كل خرزة بغرزة، وكل غرزة بثانية. خرزة بغرزة، خرزة بغرزة. خرزة بغرزة. ثوان تقتل في غرزات، كأنهم يوخزون الزمن بإبرهم ويقولون

له : نحن وراءك يا زمن والدهر طويل. إننا نتحداك. أنت طويل النفس، ونحن أطول نفسا.

من بين أيديهم تخرج روائع فنية، حقائب يد، ولوحات، وأشكال أخرى. سجناء آخرون يخرجون من إطار الزمن ويضعونه وراء ظهورهم بتدخين الحشيش. قطع الحشيش تدخل مع الطعام الذي يجلب من الخارج أثناء الزيارات، أو من قبل الحراس أنفسهم الذين يتاجرون به ويجنون منه أرباحا تريح جيوبهم عندما يصرفون آخر ورقة نقد من رواتبهم الهزيلة. هؤلاء الحشاشون كان يطلق عليهم فرقة الحشاشين، يترأسهم أحد أكبر مهربي المخدرات في البلد الذي كان يقدم رشاوى حتى لمدير السجن، ليغض الطرف عن مساوئه وجرائمه. بعض السجناء كانوا يلقبونه بأبي الحسن.

أبو الحسن كان رجلا ضخما، برأس يلمع عندما يقع عليه شعاع ضوئي، بعد أن هربت آخر شعرة فيه منذ زمن. شكله يشبه كرة ضخمة. وجه ممتلئ الخدين كفطيرتين منتفختين، وثؤلول بحجم حبة الفاصولياء فوق أنفه، وأسنان قصيرة تغطيها شفتان رقيقتان حادتان، ورقبة قصيرة تكاد تغور بين كتفيه. عندما كان يستلم دفعة

الحشيش، كان يقوم بتقطيعها وتوزيعها على زبانيته الذين يقدمون له الولاء الأعمى، وكانوا مستعدين أن يدخلوا في معارك حامية ضد أي سجين آخر لا يخضع لسلطته أو يتحداه. كان أبو الحسن يرمي قطعة الحشيش إلى نائبه الملقب بـ«النمر الحردان» ويقول له : كسر وربك ييسر. وترى دخان الحشيش يتراقص في المهجع وكأنهم في ملهى أو ماخور رخيص.

النمر الحردان كان شابا طويل القامة، ضخم الجثة، عريض المنكبين، كفه كأنه مدراة. أصابعها بأربع سلاميات. إذا قبض على يد أحد هصرها هصرا، كأن أفعى الأناكوندا التفت حولها.

مجموعة أخرى من السجناء كانوا يقضون أوقاتهم في لعب القمار. لعبة البوكر كانت اللعبة المحببة لديهم. البعض كان يغش في اللعب فتصدر صرخات حادة من اللاعبين الآخرين: يا غشاش سرقت بنت الديناري، وخبأت الأس في كمك، وعندما تتعالى الصيحات، ويكثر الضجيج، يتدخل أبو الحسن فيصرخ بهم قائلا:

- اخرسوا وإلا فجمت رؤوسكم. أفسدتم علينا «التحشيشة». الغشاش منكم سأسلط عليه النمر الحردان ليوجه إليه ضربتين

على يافوخه ليكف عن الغش. فيعيد الغشاش الأوراق التي خبأها دون أن ينبس ببنت شفة، ويتوقف ما كان بينهم من شحناء، وتعاد اللعبة من أولها رهبة من أبي الحسن وخوفا من اليد المدراة للنمر الحردان.

عندما دخلت القلعة لأول مرة من بابها الحديدي الكبير الكائن بمحاذاة العصرونية، كان يوما يعتصر حزنا. كانت السماء مكفهرة، غيومها الداكنة المتلبدة بدت كعين بقرة ميتة، لا ضياء ينفذ من كواتها. تبصق رذاذا شتويا بلل أرضها المرصوفة بحجارة هرمة صقلتها النعال. أصعدني السجانون بضع درجات لأصل إلى باحة على يمينها يقع مكتب مدير السجن، فوق بابه علقت عبارة بالخط العريض: « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ».

صعدت درجا صغيرا على يمينه مهجع، أو «قاووش» بلغة السجن، يغص بالمساجين. منهم من وقف وراء القضبان ينظرون إلى السماء بذهن شارد نافثين دخان لفافاتهم في الهواء. نظروا إلي بصمت. تابعتني نظراتهم حتى غيبني درج ثان على يسار الأول، يفضي إلى ساحة صغيرة تطل على الباحة الرئيسية، وعلى يمينها «قاووش»

آخر، عدد من السجناء وقفوا ينظرون إلي، أحدهم قال بصوت عال «الله يهون عليك». نهره السجان الذي كان يربط يده بيدي بكلاب حديدي قاس قائلا:

- «اخرس يا كلب» سأفعل بأمك كذا وكذا.

فتح السجان باب «القاووش» ووراءه أربعة حراس يصوبون بنادقهم نحو السجناء تحسبا لأي طارئ. دفعني السجان بعنف إلى الداخل وأغلق الباب بسرعة ثم قفل راجعا مع باقي الحراس.

وقفت على عتبة المهجع حائرا، أنظر إلى السجناء فردا فردا، كأن عيني آلة تصوير سينمائية تمسح المكان. استقبلني أبو الحسن مرحبا. وقفت حائرا لا أعرف أين أجلس لما يشكو هذا المهجع من ضيق واكتظاظ.

جاءني يسألني:

- ما هو جرمك؟

- لا شيء، أنا بريء ومازلت تحت التحقيق.

- بريء! قل هذا الكلام لغيري. قالها باستهزاء ثم تابع بالقول: كل من يدخل هذا السجن يقول إنه بريء في البداية، ثم نكتشف العكس فيما بعد.

- هل قتلت نفسا؟

- لا.

- هل اغتصبت أنثى أو ذكرا؟

- لا.

- هل تاجرت بالمخدرات؟

- لا.

- هل سرقت منزلا؟

- لا.

- إذن مشكلتك مشكلة سياسية، أم أني مخطئ يا تشي غيفارا، قالها بسخرية وهو يضحك.

كان وجهه كقطعة من رخام لا تتحرك فيه عضلة واحدة، لو دق فيه مسمار للوي عنقه. قبض على ذراعي بقوة وجحظ عينيه قائلا:

- في قوانين السجن الأمكنة في «القاووش» تحجز بحسب الجرم وعدد سنين الحكم. والولاء لأبي الحسن. الأكبر جرما والأطول مدة يحتل صدارة المكان، وبما أنك بريء فمكانك في العتبة. هذه هي قوانين السجن، فكل سجين جديد لا جرم له يبدأ بالعتبة ثم ينتقل منها نحو الداخل كلما جاء سجين جديد آخر، أو خرج سجين بعد قضاء حكمه.

صدر المكان كان للزعيم أبي الحسن وزبانيته. كانت رائحة المهجع مقززة كرائحة عفن قديم تختلط برائحة البراز والبول المنبعثة من الحمام الوحيد الكائن في زاوية منه. في البداية كانت تنتابني نوبات من التقيؤ كلما دخلت لقضاء حاجتي. بقع البول على الأرض، وبقايا من براز قديم على الجدران، وقيء في الزاوية لم ينظف منذ شهور.

أبو ثائر، السجين بجانبي كان قد وصل قبلي بعدة شهور، ويفوقني أقدمية وجرما، قال لي مبتسما:
- قريبا ستتأقلم على هذه الروائح وستبدو لك كرائحة العنبر. وهذا «القاووش» عندما ستعود إليه من أقبية التحقيق سيبدو لك قصرا منيفا.

أبو ثائر كان من لاجئي فلسطين في لبنان. ألقي عليه القبض في سوريا لانتمائه لمنظمة التحرير الفلسطينية على إثر الشقاق وعدم الوفاق بين الزعماء. اقترب مني وقال بصوت منخفض:
- يبدو أنك شاب طيب، خذ حذرك من أبي الحسن إنه أخطر من المافيا. وأشد سما من الأفاعي الرقطاء.

الأيام مرت بطيئة، متشابهة، متكررة بتفاصيلها المعتادة ثقيلة كصخرة سيزيف، كما تقول الأساطير اليونانية، التي كان يصعد بها الجبل كل يوم، وقبل أن يصل القمة تسقط من بين يديه وتتدحرج سريعا إلى السفح. ثم يعيد الكرة من جديد.

ذات مساء ثقيل، جاثم على الصدر كحجر طاحونة، كنت ساهم الوجه، شارد الذهن، أفكر بشامة، اقترب مني أبو الحسن وطلب مني أن نتحدث على انفراد بشأن هام.

- ليس عندي ما أقول.

- بلى، لديك الكثير.

نظر إلي بعينين شريرتين جاحظتين كعيني تمساح في حالة انقضاض، وتابع قائلا:

- من الأفضل لك أن تتبعني.

مشيت وراءه إلى زاوية قريبة من الحمام. نظر إلي بعينيه الشريرتين وقال:

- يجب أن نتعاون في العمل معا.

- ما نوع العمل؟

- لا تكن غبيا. تعاون معنا بالتي هي أحسن.

- لا أفهمك.

- لا تعتقد أني لا أعرف أسرارك.
- أية أسرار ؟
- الكنز، أين الكنز ؟

فهمت على الفور أن مدير التحقيق في السجن قد أسر له بقصتي واتفقا أن يعرفا مكان الكنز.

- لا أعرف أين مكانه.
- بلى أنت تعرف. أصغ إلي جيدا، يمكنني أن أدبر لك هروبا من السجن، أو إخلاء سبيلك بسهولة إذا كشفت لي عن مكان الكنز.
- أقسم أني لا أعرف.
- إذن ذنبك على جنبك، سمعت أن مدير التحقيق ينوي تعذيبك عذابا أليما حتى تقر بمكان الكنز، فمن الأفضل لك أن تقر الآن وأنا سأجنبك كل هذا العذاب. وإذا رفضت فإن مدير السجن ينوي أن يحولك إلى سجن تدمر، وهناك ستذوق الأمرين، وستتمنى لو أنك مت قبل أن تصل إليه. فالداخل إليه مفقود، والخارج منه مولود.
- لو عرفت مكانه، لكشفت عنه وأرحت نفسي من هذا العناء منذ اللحظة الأولى.

صار وجهه أزرق غيظا. عض على شفته السفلى وقال:

ستندم حين لا ينفع الندم. وستأكل الخيزرانات قطعا من جلدك. ساعتها ستأتي إلي متوسلا أن أخلصك من براثن التعذيب.

أيام قليلة مريرة انقضت حسبتها دهورا ما بعدها دهور، ذات مساء كنت ممددا فوق فراشي وأبو ثائر بجانبي، مد إلي لفافة تبغ وقال:

- دخن علّها تنجلي.

- شكرا، لا أدخن.

- هذه ليست بمخدرات. خذ كأس الشاي هذا معها وسترى بأنك ستنسى همومك وأحزانك.

- همومي وأحزاني أقوى بكثير من لفافتك، ولن يكون لها أي مفعول.

- لا بد أنك عاشق إذن، لا شيء يقاوم الموت البطيء سوى العشق. إنعم بهذه النعمة يا صاح، ثم راح يغني مبتسما:

ما أضيع اليوم الذي مر بي

من غير أن أهوى وأن أعشق.

- أصبت يا أبا ثائر. ولكن لا أرى لي مخرجا.
- توكل على الله وقل يا مفرج الكربات.

نظر إلي مطولا ثم قال بصوت خافت:
- سأسر لك سرا إياك أن تبوح به. أحد المساجين القدامى أخبرني بأن الزنزانات الشرقية التي تطل مباشرة على سوق الحميدية، جدرانها باتت أقل صلابة ومتانة لأنها أقدم جدران في القلعة، ويبدو أن من السهولة إزاحة أحجارها بعد عملية حفر بسيطة في أطرافها بعد أن أكلتها الرطوبة والعفونة. يتبقى فقط أن نجد طريقة للوصول إلى هناك. والوسيلة الوحيدة إلى ذلك هي أن تضرب سجانا، أو تدخل بمشاجرة كبيرة مع أحد المساجين، فتعاقب بالسجن في هذه الزنزانات.

- ولكن أنا لا أبحث عن الهرب. فأنا بريء ويجب أن أثبت براءتي.
- كل السجناء يقولون إنهم أبرياء، وترى كلا منهم قد ارتكب أبشع الجرائم. وأنا سأصدقك على كلامك. لكن هذا لا يعني أنك ستنجو من عقاب هؤلاء السفلة. بالنسبة لي هذه المرة لن يحكم علي بأقل من عشر سنوات.

- ماذا فعلت؟

- قبضوا علي مع الذين قبض عليهم من الفلسطينيين في مخيم اليرموك، وبعد مشاجرة عنيفة مع أفراد المخابرات ضربت أحدهم برصاصة اخترقت فخذه، ولولا ألطاف الله لاخترقت قلبه .

- لماذا لا تنتظر الحكم أولا ؟

- لا داعي فالرسالة تظهر من عنوانها. وحتى أنت لن تخرج من هنا قبل سنوات عديدة.

- أخشى فقط أن يحولوني إلى سجن تدمر.

- وهذا سبب آخر للهروب، فإذا حولوك إلى سجن تدمر لن تخرج من هناك حيا.

- لننتظر ونر إلى ما تؤول إليه الأمور.

ليل السجن بهيم ثقيل كالطود، الأنوار تُطفأ في العاشرة، توقد الشموع بعدها في الزوايا ويكثر حديث الليل بين المساجين، وتدخين سجائر التبغ والحشيش وشرب الشاي. بين الفينة والفينة تسمع صراخ السجناء الذين يخضعون لجلسات التعذيب في القسم المخصص للتحقيقات. صرخات استغاثة تصم الآذان، تفطر القلوب، تدخل الرعشة في الأوصال، والكآبة في النفوس.

في زنزانتي المنفردة التي زججت بها بعد مشاجرتي مع السجان الذي اعتدى على أبي شامة، والمطلة على سوق الحميدية، كنت سعيدا فيها لأني تخلصت من «القاووش» ومن أبي الحسن ومن روائح الحمام القاتلة، والعفن والرطوبة في زواياه. وكنت أداوي جروحي وقروحي التي تقيحت بعد عمليات التعذيب والضرب بالسياط والأسلاك المعدنية تأديبا لي. في هذه الزنزانة أكاد أسمع حركة الناس في السوق وضجيج الحياة فيها من وراء الجدار الحجري السميك، تذكرت كلام أبي ثائر حول إمكانية الهرب منها. مررت بيدي على حجارتها الصلبة وبين شقوقها، وحلمت بالهروب، فجلسات التعذيب ستتوالى بوتيرة منتظمة حتى أقر لمدير السجن بمكان الكنز، ولن يصدق كلامي بأني لا أعرف المكان الذي خبأه فيه أليس واختفى، مهما فعلت. ولكن هل هذا سهل المنال؟ بت أحلم بالهروب، وأخطط له، والجهة التي أقصدها إذا هربت.

هنا، في هذه الزنزانة، لم يكن يوجد ما هو أفضل من النوم لقتل الوقت، أو الشرود والتفكير واستحضار الذكريات. في كل مرة كنت أسترجع قصتي مشهدا مشهدا. أغوص في التفاصيل. أحاول تذكر الأحداث والكلام، وكل

شيء حصل منذ سنوات وسنوات. إنها الوسيلة الأفضل لقتل الوقت والقضاء على حليفيه: السقم والملل. شريط ذكرياتي مر أمام مخيلتي مرات ومرات. كنت أكتشف دائما أني أهملت أحد التفاصيل في المرة التي سبقتها.

يا ابن القحبة أخرج رأسك الوديع وخذ طعامك. قالها السجان بلؤم. قطع شريط ذكرياتي. الساعة إذن الواحدة. حان وقت الطعام. شرودي كان عميقا. لم أسمع خطوات السجان الثقيلة. الطعام برغل بالعدس. إذن اليوم الأربعاء. فلتت مني سبحة الأيام. غدا الخميس بطاطا بالزيت. الأيام هنا كالطعام لا طعم لها.

أخذت الطبق من يد السجان. نظر إلي وقال : لن تخرج من هنا إلا على عكاز، ثم استدرك قائلا: هذا إذا خرجت. ثم قهقه قهقهة اختلطت نهاياتها بصدى بداياتها المرتطمة بالجدران الحجرية العتيقة التي شيدت في عهد صلاح الدين الأيوبي.

في الأيام الأولى تذكرت أستاذ التاريخ فاتح ماضي ودروسه التي كنا مولعين بسماعها. كان يتغنى دائما ببطولات العرب وأمجادهم التليدة. كان يروي لنا أحداثا تاريخية جعلت من العرب أمة تهابها الأمم وتحسب لها ألف حساب،

ثم يقارنها بأحداث أخرى معاصرة جعلت من العرب أمة ممزقة، ومتناحرة، كل مزقة تتوجس مزقة أخرى، وتستقوي بسيف الخارج لتنتصر عليها بعد نزاع على شبري تراب، أو على زعامة ما. لا تهتدي إلى سبيل، ولا يهابها أحد، ولا تزن في الميزان الدولي مثقال ذرة. بل إنه كان يقول لنا بأسى وحسرة كبيرين: لقد خرج العرب من التاريخ، ورويدا رويدا سيخرجون حتى من الجغرافيا.

من بين شخصياته المحببة كان صلاح الدين. كان يحكي لنا كيف انتصر على الصليبيين في معركة حطين، بعد أن وحد نور الدين الزنكي الإمارات الشامية ومصر. وكيف بنى الدولة الأيوبية التي فرضت هيبتها على الجميع.

فاتح قال لنا: لولا صلاح الدين لربما فقدت هذه البلاد هويتها العربية ولكنا اليوم عبيدا للممالك التي تحتلها، لكن حكام العرب لم يحافظوا على إرثه. بل إنهم عادوا إلى سيرتهم الأولى في الاقتتال على جلد عنز حتى جاءهم من هو أقوى منهم ووضعهم تحت الحذاء. ومذاك لم تتغير حال حكام العرب، ولكن تغيرت الأحذية.

ذات يوم طلب منا أن نزور ضريحه في زاوية المسجد الأموي ونترحم على روحه، ونتضرع إلى الله لتلد إحدى

نسائنا بطلا مثله يخلصنا من الصليبيين الجدد. وأوصانا أن نمر على قلعته القريبة من سوق الحميدية لنلمس بأيدينا عظمة عهده.

عن هذه القلعة أذكر أنه قال : إن بناءها بدأ في العهد السلجوقي قبل ألف عام، وقام الملك العادل شقيق الناصر صلاح الدين الأيوبي بتوسيعها وبناء ما تبقى من أبراجها. وقد اتخذها صلاح الدين مسكنا، وكانت منطلقا لجيوشه في حروبه ضد الصليبيين، ومركزا عسكريا لحماية دمشق، وتجمعا هاما للجيش المحرر للقدس. دفن فيها فيما بعد، قبل أن تنقل رفاته إلى ضريحه في زاوية المسجد الأموي. مر عليها كبار القادة والملوك والعلماء وشهدت أيام عز ما بعدها عز.

ثم أضاف قائلا بمرارة كبيرة وبكلمته المعتادة:

- وا أسفاه، وا أسفاه، بعد هذا الماضي التليد حولت هذه القلعة الآن إلى سجن رهيب يغص بالمساجين وتمارس في أقبيتها أقسى عمليات التعذيب. حتى جدرانها الحجرية التي جلبت من صخر جبل قاسيون تبكي على سالف زمانها.

رحم الله فاتح ماضي لقد مات وفي قلبه شيء من وا أسفاه. لم أكن أتوقع يوما أني سأصبح سجين هذه القلعة. وأستاذ التاريخ فاتح، الذي كان يخصني بمحبته وعطفه، ما كان ليتصور قسوة التعذيب التي عانيتها هنا.

وكم تمنيت أن أراه مجددا لأحكي له قصة قلعة صلاح الدين، وكيف أن جدرانها التي عرفت الملوك والسلاطين والعلماء وكبار الشعراء والكتاب باتت لا ترى اليوم سوى عمليات التعذيب، ولا تسمع سوى صراخ السجناء، ولا تشم سوى رائحة الموت. والعفن.

توقف السجان عن الضحك فجأة. مسح شاربيه الغليظين ثم عقف إصبعه الوسطى وأبرزها قائلا: سأقعدك أنت وأبا شامة على هذا الخازوق. أنا وأنتما والدهر طويل. نظرت إليه باشمئزاز. كدت أتقيأ جوعي. عيناه الجاحظتان كعيني ضفدع مريض، ومنخراه المفتوحان كسردابين مظلمين واللذين يتدلى منهما شعر كثيف، وأسنانه النافرة كأنها تريد الهروب من فكه لفرط فظاظته، زادت في نفسي الاشمئزاز والتقزز. لقد تعود أن يشتمني كل يوم منذ أن حاولت صده عندما هاجم أبا شامة وضربه ضربا مبرحا في باحة السجن. هرعت ساعتها أخلصه من بين يديه دون شعور بالعواقب، كأن شيئا دفعني لأمسك به وأقذفه بعنف ليسقط على الأرض. دون حساب للنتائج مهما كانت مؤلمة. بعدها نهض مسعورا وراح يضربني ضربا مبرحا بسوط كان يحمله، ثم جاء سجانون آخرون وانهالوا علي ركلا وضربا بالعصي وجروني إلى حفرة التعذيب وهناك كان الضرب

يأتيني من كل جانب حتى أغمي علي. ولتأديبي بعد أن استعدت الوعي في مستوصف السجن دفع مدير السجن بي إلى هذه الزنزانة. لم أفتعل ذلك للوصول إليها هدفا للهرب من السجن كما كان يخطط أبو ثائر، ولكن الصدف والأقدار تفعل فعلها، بعض الأحيان، دون سابق تخطيط. لم يفهم أبو شامة لماذا هرعت لنجدته من بين كل السجناء. وقف مبهورا صامتا ينظر إلي وهم يقتادونني إلى الحفرة.

قفل السجان راجعا وهو يضرب على الجدار الحجري بمغرفة الطعام حنقا وغيظا حتى غيبته عتمة السرداب الطويل.

5

خيمتان برزتا في الأفق البعيد. معالم أخرى توضحت أكثر. صناديق خشبية، وصهريج ماء، وثياب جافة تتأرجح على حبال خيمة. رجل في خريف العمر، على رأسه قبعة بيضاء، وضعت بشكل مستقيم فوق شعر اشتعل فيه الشيب. جبين عريض ظهرت على صفحته تجاعيد عرضية عميقة. حاجبان كثان، وعينان صغيرتان تنمان عن ذكاء وفطنة، وأنف دقيق وسط خدين ممتلئين غلب عليهما اللون الأسمر من حدة الشمس، ولحية طويلة تضفي عليه وقارا وجلالا. قد طويل مليء، كسي بثوب أبيض، وبيده سبحة طويلة، وكأنه عائد لتوه من غياهب تاريخ الفتوحات. كان الجميع ينادونه بالحاج، أو بأبي حفص، ولم أعرف اسمه الحقيقي إلا فيما بعد في جلسات التحقيق. عندما كان المحققون دائما يسألوني عنه، وعن اتصالاته. وقف على باب الخيمة الأولى على صوت هدير الشاحنة. نظر إلي متفحصا ثم قال:

- أهلا بك بيننا ثم سأل أليس على الفور بلهجة فيها الكثير من الحدة:
- هل اشتريت ما أوصيتك به أيها السكير؟

أليس أجاب بابتسامته المعهودة:
- لقد اشتريت لك أفضل ديك ودجاجة لم تلدهما بيضة من قبل قط يا أبا حفص.

عاملان آخران خرجا من الخيمة. أحدهما صغير السن، لا يتجاوز العشرين من العمر. وجه شاحب. عينان صغيرتان منكسرتان. شفتان رقيقتان تنبلجان عن أسنان قصيرة. أنف طويل. خدان مقعران. جسد نحيل طويل منحن قليلا إلى الأمام. توجه إلي مرحبا معرفا بنفسه: منقذ، ثم أشار إلى الشخص الآخر الذي بدا غير مكترث كثيرا بقدومي، وإنما خرج ليتسلم بعض المواد الغذائية التي حملها له أليس، قائلا:
- الزعيم أبو عسكر.
توجه أبو عسكر إلى أليس وقال:
- عربيد بيك. هل جلبت تبغ النرجيلة والشاي والسكر؟
رد عليه أليس بابتسامة أخرى على شفتيه:
- هل يمكن أن أنسى طلبا لك يا زعيم. إذا نقص السكر أضع لك إصبعي في كأس الشاي.

أجابه أبو عسكر بابتسامة متبادلة:
- سيتحول طعمها إلى علقم لا شك.

الزعيم كان على عكس منقذ. متوسط القامة، بدينها. أصلع الرأس. كثيف اللحية والشاربين. منفوخ الخدين. هيأته تشي بأنه كان في موقع مسؤولية ما، أو زعامة. نظر إلي مليا وجال بنظره نزولا صعودا فوق جسدي وكأنه يبحث عن تكوين انطباع أولي عني من المظهر الخارجي. فالمظاهر الخارجية غالبا ما تنم عن صفات معينة للشخص، خاصة في بلاد تتقيد ببعض المظاهر الخارجية. بصوت رخيم وبنظرة من طرف عينه توجه إلي وقال:
- حللت سهلا.

دخل أليس الخيمة وجذبني إلى الداخل قائلا:
- ستقيم معي في خيمتي ولا تكترث بما يقوله أبو حفص، فهو يمسك بسبحته كل يو م، يحمد الله بحبة، ويلعنني بأخرى. أما الزعيم فهو رجل شهم ممن خاضوا حرب النكسة، وطرد من الخدمة لأنه رفض الانسحاب من الجولان. انتظر العدو أن يصل إليه ليلتحم معه. وكان يفضل أن يروي دمه أرض المعركة من أن يفر هاربا منها، وقوات العدو لم تصل بعد المكان. بعد خروجه من السجن الذي أمضى فيه سنتين، لأنه لم يطع أوامر

الانسحاب، لم يجد مكانا يعمل فيه سوى هذا المكان. يظل صامتا معظم الأحيان وليس له من لذة في هذه الحياة سوى تدخين النرجيلة، ومتابعة الأخبار من محطات أجنبية.

تهب نسمة الصحراء مساء فتحمل معها سعادة خفية. في هذا المد الصحرواي لا تسمع زقزقة عصفور، ولا تغريد بلبل، ولا زقاء ديك، ولا خوار بقرة، ولا مواء هرة، ولا حفيف شجرة، ولا خرير ماء، ولا نقيق ضفدع، ولا صرير باب، فلا أبواب، لا نوافذ، لا أبنية، لا شوراع، لا أرصفة، لا مخافر، لا محلات تجارية، لا كهرباء، لا ماء، لا مجار صحية، لا مستشفيات، لا عيادات طبية، لا حدائق، لا ملاهي، لا حانات، لا مقاه، لا مطاعم.. هنا لا تسمع سوى همس الصمت، وبين فينة وفينة ينبح كلب، أو يعوي ذئب، أو ينهق حمار، أو يصهل حصان. أو يأط بعير. لا لغو فيها، ولا صراخا. الحياة تسير في أبسط معانيها ومظاهرها. لا حاجة هنا لأحد بنجار، أو حداد، ولا بحلاق، أو خباز، ولا لعطار، أو بائع حلويات، فلا أسواق، ولا بيع، ولا شراء. البدو يكتفون ذاتيا. ينسجون، ويعجنون، ويخبزون، يرعون الماشية ويعيشون على حليبها وصوفها ولحمها. وربما قام البعض بتهريب بعض البضائع من الدول المجاورة لبيعها في الأسواق السوداء. أما وسائل نقلهم فالجمال والخيل

والحمير. بعض أمراء العشائر والأغنياء فقط يمتلكون وسائل نقل حديثة، والبعض الآخر يمتلكون جرارات تستخدم لجلب ونقل المياه، أندر شيء في هذا اليم الرملي، حيث لا أحد فيه يخشى البلل، سماؤها شحيحة، شتاؤها صيف، وصيفها جهنم.

النسمات المسائية تخفف لظى النهار. الظلام يرافقه السكون، ويفتح باب السماء على الكون، فيطل الدبان، الأكبر والأصغر، ونجمة الشمال. القمر يبدو أقرب ويصبغ الأرض بلون أقرب إلى لون براعم النرجس قبل التفتح. وشهب تقدح قدح عود ثقاب في القبة الكونية.

أمام هذا المشهد الليلي كنت أستلقي يوميا للتأمل بروعة وغموض هذا الكون. أسائل نفسي كيف، ومتى سيتمكن الإنسان من سبر أغوار أسراره المتمادية في العمق والغموض؟ وأطرح على نفسي أسئلة كبيرة يتعذر على عقلي العاجز، كما يتعذر على عقول أكبر العلماء والفلاسفة، الإجابة عليها. كنت أشعر أني ذرة رمل تتنفس، أغوص في سحب اللامعقول، في عالم الرهبة واللانهايات. وينتهي الأمر بتجمد فكري بعد أن يكون قد تخبط في مستنفع إشارات الاستفهام الكبيرة. من أنشأ

الكون؟ ومنذ متى؟ ولماذا؟ وقبل أن ينشأ ماذا كان؟ العقل لا يمل من طرح الأسئلة كلما عجز عن التفسير. والسؤال في الأرض حق مشروع، والإجابة على هذه الأسئلة تبقى في السماء.

تلك الليلة كنت أعد النجوم دون تفكير. أنتقل من نجمة إلى أخرى بطرفة عين. أمسح السماء بين أطراف الصحراء بنظرة. كم هو الكون واسع أمام العقل، وكم هو ضيق أمام العين.

صاح أليس بموال من تحت الخيمة. عرفت أنه أجهز على أول بطحة عرق، وأن دبيب النشوة قد سرى في عروقه. قلبه ينبض بالعرق يضخه بدل الدم. عندما كنت أقول له:

- أنظر إلى بداعة الكون وعظمته.

كان يقول لي:

- تعال لأشربك كأسا تجعل روحك تطير إلى أبعد نجم، ويقيم في الفردوس، في المكان الذي طرد منه آدم، وتبعته حواء، وهناك يا صديقي ستجد أجوبة على أسئلتك المستعصية على عقلك الصغير. عقل العصافير الحالمة بفردوس لا يوجد إلا في رؤوسهم. ثم يستطرد بقوله:

- أما أنا فهذه هي جنتي التي أعيشها كل مساء.

السكير كريم. وأليس أكثر من سكير. تراه في النهار يكدح كدح العبيد، وفي المساء يدخل في طقوسه الليلية اليومية. يغسل وجهه من غبار النهار. يبلل شعره ويمشطه إلى الخلف. يلبس ثوبه الفضفاض ويلف لفافة يدخنها بلذه كبيرة وهو يحضر أطباق المازا. يقطع الخيار، والبندورة، ويصب زيتا على صحن لبن مصفى، ويضيف إليه النعناع المجفف، وبعض حبات الزيتون، ويقطع بخنجره شرائح من البسطرمة، ويسخن رغيفا من الخبز على صاج وضع فوق موقد، ثم يصب كأسا من العرق، ويضيف إليه شيئا من الماء المبرد في زير يوضع على باب الخيمة فيتحول السائل إلى لون الحليب. يأخذ منه بلعة، ثم بلعتين، ويتبعها بثالثة، يبدأ بعدها بغناء مواويل بلدية شجية، أكثرها في تمجيد النساء والتغني بجمالهن، والتحسر على أيام خوال كان بصحبة إحداهن قبل أن تهجره إلى الأبد.

صاح من تحت الخيمة قائلا:

- آه كم أنا تواق لصبية لم يقبل فمها إلا أمها.

رد عليه أبو حفص من الخيمة الأخرى:

- لا تستحق والله ولا حتى عنزا مقطوعة الذيل. ثم تابع بقوله:

- من هم من أمثالك لا يستحقون سوى الخصي حتى ينقطع نسلهم إلى الأبد.

أجابه أليس ضاحكا:

- ما دخل نسلي بذنوبي، تظلمهم من الآن قبل أن يروا النور يا حاج، ولا تعرف صالحهم من طالحهم.

رد عليه أبو حفص:

- التيس مثلك لا يخلف سوى التيوس. والأفضل لك أن تبقى عازبا أبدا حتى لا نرى ذريتك.

كانت النساء هوسه الدائم. يغني لها. يحكي عنها قصصا وطرائف، ويضحك حتى تظهر آخر ضرس نخرة في فمه. ثم يستشهد بأشعار الغزل والفخر التي كان يحفظها أو نظمها. كان يحكي عن حوادث دخل فيها بمشاجرات عنيفة. وكم من مرة استل خنجره وكاد أن يغمده في ذراع فلان، أو يشطب به وجه فلان. ويشير في كل مرة إلى بعض الندب في جسده والتي تذكره بمشاجرة ما، ويقول باعتزاز:

- هذا الشطب تسبب به أخو القحبة فلان الذي غدره، وذاك الشطب تسبب به ابن الكلب علان الذي غدره أيضا. كلهم غدروا به لكنه كان يخرج دائما منتصرا. ثم يقول مفتخرا:

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فيرد عليه أبو حفص سريعا قائلا:
لا الخيل ولا الليل ولا البيداء تعرفك ولا السيف ولا الرمح ولا القرطاس ولا القلم
ولاتعرفك سوى المومسات والخمارات وأقبية المخابرات كلما أتحفتنا بقصائدك العصماء.

ناداني كرة أخرى. جلست قبالته. كان يقلب في موجات المذياع. لم يفلح بالوقوع على أغنية تطربه. ركله باستياء ثم قال:
- لم أدر هذا المذياع مرة إلا وسمعتهم يتكلمون عن الرئيس: استقبل الرئيس، وافتتح الرئيس، وسافر الرئيس، وأكل الرئيس، وشرب الرئيس، وبال الرئيس، وضرط الرئيس، طبخوا رؤوسنا بالرئيس، وكأن في كل هذه الدنيا لا يوجد سوى الرئيس، يمكن أن تمطر السماء على فرعون ضفادع وتسمعهم في الإذاعة يقولون:
- « تجول الرئيس في رحلة تفقدية في مناطق مختلفة من البلاد للوقوف على الشائعات المغرضة بهطول السماء ضفادع، فلم يسمع سوى تغريد العصافير، وهديل الحمام،

في هذه الجمهورية الفاضلة، التي يعجز أفلاطون عن وصفها، وسمع فقط نقيق ضفدع أو ضفدعين في زاوية مهجورة ، أو زاويتين، وقضي عليهما قضائين مبرمين».

رد عليه الزعيم أبو عسكر من بعيد قائلا:

- أخفض صوتك أيها السكير وإلا ذهبت إلى بيت خالتك. سكرك هذا سيودي بك إلى كارثة. تذكر أنك دخلت السجن أول مرة بسبب قصيدتك العصماء يا متنبي القرن العشرين، وإن لم يكن في هذه الصحراء جدران فالآذان في كل مكان يا عربيد.

أجابه أليس بعد أن دلق الكأس في جوفه قائلا:

- ليت السماء تمطر عرقا فتتحول غدائر وأنهارا أسبح فيها، وبعدها أهلا وسهلا بجهنم. ثم أردف قائلا:

- أما بيت خالتي فلا يخيفني فالسجن للرجال.

صاح أبو حفص قائلا:

- ستسبح في نار جهنم بكل تأكيد، وبئس المصير إن شاء الله أيها الملحد. أنتم الشيوعيون سيخسف الله بكم الأرض يوما.

ضحك أليس وقال بصوت عال:

- يا أبا حفص أنت تضع الله في كل شاردة وواردة، حتى

في صحن المجدرة التي نأكلها، الله أكبر من ذلك بكثير، ولا يهتم بمثل هذه السفاسف يا حاج.

أخذ من كأسه رشفة ثم تابع بقولة:

- إني لأعتمد على وساطتك،على أية حال، عند الرفيق الأعلى، ودعواتك في صلواتك لرب العالمين حتى يبعث لي برسالة الغفران.

رد عليه أبو حفص قائلا:

- أنت تقول مثل هذا الكلام تحت مفعول الكحول. ولا أحد يأخذ كلام سكير على محمل الجد، ويجب أن تعلم أن لا أمل للأبالسة والشيوعيين في المغفرة. والله لو وضعوا جبرائيل على يمينك، وميكائيل على يسارك لن يغفر لك، وسيبقى الشيطان ملازمك حتى يأخذ رب العالمين هذا الروح الدنس من بين أضلعك.

- قل ما يحلو لك يا حاج فكلامك على قلبي أحلى من العسل. قالها أليس وهو ينفث دخان لفافته في الهواء. ونحن الشيوعيين مطمئنون فالعم لينين قال لنا إن هناك حتمية تاريخية. والشيوعية ستعم العالم عاجلا أم آجلا.

رد عليه أبو عسكر بسخرية قائلا:

- إن حتمية عمك لينين، وخالك ماركس، وابن عمك هيجل

وماديته الجدلية ليست سوى سفاسف وستثبت لك الأيام أنها ستهوي وينفرط عقدها.

أجابه أليس بالقول:

- أنتم الناصريين لا ترون سوى ناصر وتصوروه كالبطل الملهم الذي سيخرج هذه الأمة من محنتها بخطبه الطنانة الرنانة. ها هو قد هزمت جيوشه أيضا كما انهزمت جيوشنا في أول معركة. فمن الأفضل لكم أن لا تنشروا غسيلكم الوسخ على الملأ يا أصحاب القومية العربية.

بعد أن حمي الوطيس وكادت أن تشتعل بين الجانبين حرب داحس والغبراء. فض أبو حفص النقاش بقوله:

- أصلح الله الجميع لما يحبه ويرضاه يا جماعة. لكم دين ولي دين.

صب أليس لي كأسا وأغلظ بالأيمان أن أشربها قائلا:

- اشرب يا صاح. حليب السباع للسباع. ولا تسمع لغو أبي حفص. ثم تابع بقوله اسمع كلام أبي نؤاس وراح ينشد:

نشرب الليل إلى الصبح صغارا وكبارا
ونغني ما اشتهينا ٥ من الشعر جهارا
اسقني حتى تراني أحسب الديك حمارا

وجدت نفسي مندفعا لدخول عالمه. الكأس لامست شفتي. ترددت قليلا ثم دلقته في جوفي دفعة واحدة. لسان من نار اندفع من أحشائي. تبعه موجة سعال حادة. ضحك أليس ضحكة هيستيرية لم تنقطع لدقائق. صب لي كأسا أخرى وقال:

- تداوى منها بها.

نشوة عارمة عمت رأسي. جناحان نبتا بجانبي. وسن خفيف سكن الجفنين. النجوم بدت أجمل. الدبان الأكبر والأصغر رقصا معا. ونجمة الشمال غابت عن ناظري.

صب الثالثة وقال:

- اشرب يا صاح. لم يعد ينقصنا في حفلنا هذا سوى فتاة بعمر الورد.

قلت بلسان متلعثم:

- أعدت إلى النساء!. دعنا منهن وغن لنا، أو دع الصمت يطربنا.

أجاب وهو يضرب كأسا بكأس:

- أرجو أن لا تكون مخنثا. ألا تعلم أن في رأس كل رجل فرج امرأة.

أجبت والجفنان يتكسران على الجفنين:

- لكن الفرج يملأ كل رأسك يا كازانوفا.

وضع يده على رأسه وقال:

- لا يا صاح أخطأت التقدير. رأسي تملؤه فروج كثيرة.

- أسمعت بالمثل القائل عند المساء تتساوى النساء؟

رد مستنكرا بعد أن نفث الدخان الذي يملأ رئتيه في الهواء قائلا:

- يجب أن تعلم إن كنت لا تعلم بأن لكل امرأة فرجا، ولكل فرج، كفنجان القهوة، نكهته، وشكله، وشخصيته، ومذاقه الخاص به. فرج تراه مكشرا مستنكرا، وآخر تراه صامتا فاغراً فاه كالسمكة، وثالثا تراه مغلق الشفتين كمحارة تنغلق على لؤلؤة. وهناك ما هو منتفخ الضفتين يسخر منك، ويتحداك بمد لسانه الصغير. وفرج مختوم بالشمع، واعلم إن كنت لا تعلم، أن قوة المرأة وسلطانها في فرجها مهما كان شكله، وهي لا تتوانى عن استخدامه وقت الحاجة لتفتح به كل الأبواب المغلقة. أما الرجل فقوته أمامها في عضلاته وفحولته. يجب أن يثبت رجولته ساعة الامتحان.

- لابد وأن يكون للعقل حكمه، فالعقل سلطان.

صمت قليلا بعد أن شرب رشفة من كأسه ثم قال:

- كم أنت مغفل وساذج يا صديقي. أمام سلطان الفرج يتعطل سلطان العقل. ألم تسمع عن هؤلاء الذين يفقدون

عقولهم ويقومون بأعمال قتل وسطو، أو أنهم ينتحرون من أجل فرج امرأة. ألا تعلم أن، ومن الفرج ما قتل.

- نعم ولكن هذا بدافع الحب وليس بدافع الجنس.

قهقه قهقة مجلجلة، وهو يحرك كأسه بيده ثم قال:

- آه يا قيس العامري ! آه يا جميل بثينة، آه يا المعتمد بن عباد، ألا تعلم أن هذا الحب العذري ينتهي مع أول مضاجعة، ويبدأ فعل سلطان الفرج.

أفرغ الكأس في جوفه ثم قال بسخرية واضحة:

- على أيه حال من أين لك أن تعرف وأنت لم تر شكله يوما، أكان عموديا أم أفقيا.

مددت الكأس إليه بيد مرتعشة ليصب لي الرابعة وقلت: أقر وأعترف بأن خبراتي في هذا المجال ضحلة جدا، لكني لا أخطئ بالشكل على أقل تقدير، أيها الزير سالم. فمن أين لك أن تعرف الحب وتقوم النساء العفيفات، الشريفات، وأنت لم تعاقر سوى المومسات ؟ نساؤك أهداف سهلة المنال، كل من دب على الأرض وقال أنا ذكر يمكنه أن يصيبهن.

أجاب مستنكرا:

- لقد سمعت مرة مثلا فرنسيا يقول: «كل النساء عاهرات ماعدا أمي، لأني لا أجرؤ على نعتها بهذا الوصف احتراما

لها». ثم ضحك حتى بانت أسنانه النخرة في مؤخرة فكه.
ضرب كأسا بكأس وقال متفاخرا:

- أقسم أني ذات ليلة ركبت تسع نوق دفعة واحدة.

سألت متعجبا:

- كيف كان ذلك، وأين وجدت هذا العدد من النساء في مكان واحد، وكيف وافقن على مضاجعتك. هل كانت حفلة مضاجعة جماعية؟

وضع الكأس أرضا. تناول قطعة من الخبز. وضعها في فمه ثم قال:

- سكرت ذات ليلة. دخلت أحد المواخير. أقسمت قسما غليظا، بعد أن راهنت أحد الأصدقاء، بأني لن أخرج منه إلا بعد ركوب جميع مومساته، واحدة تلو الأخرى، ودفعت السعر المطلوب مقدما للجميع، وكذلك الرهان. بيد أني أقر اليوم بأني نمت على بطن التاسعة ولم أستيقظ إلا على ضرب عصا القوادين على مؤخرتي، لكنهم عندما عرفوا بقصتي ربتوا على كتفي، وهنؤوني على فحولتي، وفتحوا زجاجة عرق احتفالا بهذه النتيجة المشرفة. وكنت سعيدا بالنتيجة، ولو أني خسرت الرهان. فأنا كزعمائنا الأشاوس خسرت معركة لكني لم أخسر حربا.

قلت: تتكلم وكأنك فزت في سباق الماراتون أيها البطل الرياضي، أو بمعركة ضد عدو صنديد.

أخذ الكأس ودلقه في جوفه دفعة واحدة وقال باعتزاز:

- إنها أصعب من رياضة الماراتون يا صاح. ويا لها من معركة أن تنتصر على امرأة. إن بمقدور كل امرأة أن تنهك عشرة رجال. القول لنا، والفعل لهن.

وأردف بقوله متفاخرا: لكن هنا أخوك أليس شيخ الشباب.

صمت قليلا بعد أن دلق كأسا أخرى في جوفه ثم قال:

- كان يجب أن تتساءل أيضا يا صاح ماذا يملأ رؤوس النساء. وراح يقهقه من أعماقه قبل أن يستلقي وينام.

كانت الليالي تتابع متشابهة، بعد عمل يوم مضن وشاق، لم يكن أفضل من السمر، والضحك. ذات سكرة سألني قائلا: ما هي أحب أوقات اليوم إليك ؟

أجبت: الفجر

- لماذا؟

- لأنه مولد النهار. يلد من رحم الليل. لون الشفق يثير في نفسي همة لاستقبال اليوم الجديد بكثير من الأمل. فالشمس المشرقة تأتي بكل جديد، لذلك يقول الناس عندما

لا تأتي بجديد، أن لا جديد تحت الشمس. الفجر ينتشلني من الفراش، يدفعني إلى معركة الحياة، إلى المعرفة، إلى التجربة. أمي كانت تقول لي دائما:

- «صابح القوم ولا تماسيهم»

عندما أدق الأبواب طلبا للرزق. أما الغسق فيدخل إلى نفسي حزنا خفيا، كأن النهار يتحسر على آخر لحظات في أنفاسه. أعرف أنه لا يبقى أمامي سوى ساعات لأدخل عالم الغيب والأحلام. وأنا لا أؤمن إلا بعالم الواقع والحقيقة، بكل ما هو حسي وملموس.

- لكن يا صاح أنا قد خلقت لليل وللخمر.

ثم رفع الكأس إلى السماء وصاح بأعلى صوته منشدا:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر
فما الغَبن إلا أن تراني صاحيا
وما الغنم إلا أن يتعتعني السكر

رد عليه أبو عسكر على الفور:

- والله لا تستأهل أن تسقى سوى عصار الحنظل يا أبا نؤاس القرن العشرين.

6

استيقظت مذعورا من حلم جميل يجمعني بشامة على صوت السجان وهو يصيح بأعلى صوته:

- يا حيوان، يا بهيم، يا ابن العاهرة استيقظ. حان وقت الزيارة الطبية.

في هذه الزنزانة بت أحب الليل والنوم، لأن الأحلام كانت لي حياة ثانية أعيشها في هذا السجن الذي تتواتر أيامه تترى، متشابهة كأمواج متكاسلة، ترتمي على الشاطئ منهكة القوى. كنت أحلم كثيرا بأني أطير فوق أسوار هذه القلعة-السجن، وأهرب بعيدا متوجها نحو الصحراء. كنت أسائل نفسي وأنا في أعماق حلمي:

- هل أنا في حلم أم في حقيقة؟ ثم أقول لا يوجد إنسان يطير وأستنتج بأني في حلم. ورغم ذلك كنت أتمنى، وأنا في حلمي، أن يطول هذا الحلم، وأبقى طائرا سابحا في السماء حتى أصل ديار شامة، وأستمتع بالحرية حتى ولو كانت في

الحلم. لكن في كل مرة كان حلمي يتبدل فجأة لأرى بعدها السجان يشتمني، أو المحقق يضربني ويقول:

- تتجرأ على الحلم بالهروب من هذه الأسوار!! تتجاسر على الحلم بالحرية!! سنقصم ظهرك أيها الكلب اللعين، لا يوجد في هذا البلد من يحلم بالحرية. سنعاقبك على هكذا أحلام، وينهال علي بعصا غليظة فأستيقظ مذعورا، واحمد الرب بأني كنت في حلم وليس في الحقيقة، التي بت أمقتها لأن فيها ألمي وتعذيبي وسقمي. كانت الأحلام حياة أخرى أعيشها ليلا، وأتذكرها نهارا. أذيب معها، ومع ذكرياتي، الوقت في محلول التفكير. أحاول شغل تفكيري في أشياء تلهيه عن رؤية الواقع المرير، الأليم، العفن، المهين، السقيم.

في أحلام أخرى كان يأتيني صلاح الدين الأيوبي، كأن روحه يسكن هذه الأسوار. رأيته مرة يرتدي ألبسة من زرد، وخوذة من ذهب، ويحمل سيفا مفلولا وهو يبكي.

سألته:

- ما بك يا محرر ثالث الحرمين الشريفين؟

أجاب بحسرة كبيرة:

- أبكي على ابنتي. ضيعتم ابنتي. تركتموها بأيدي المغتصبين ووليتم الأدبار هاربين، أنتم أيها الأعاريب الجدد، أين همة أجدادكم؟ أين الكرامة؟ أين الشهامة؟ أين

العزة؟ تحتل أراضيكم وأنتم نيام. تغتصب نساؤكم وأنتم نيام. يستولى على ثرواتكم وأنتم نيام. أما آن الأوان أن تستيقظوا. ثم راح يردد بصوت عال:

ابنتي عروس السماء
ابنتي عروس السماء
ابنتي عروس السماء

كان حلما متقطعا حاولت جاهدا تذكره بعد أن استيقظت. أذكر أنه قال:

- أيمكنك أن تحررني من قبري.

قلت:

- لكني سجين مثلك. أنا سجين الحياة، وأنت سجين الموت.

تذكرت أنه قال بغضب:

- فك هذه الأغلال. حطم هذه ا لجدران، وتعال إلي لننشد الحرية معا.

في الصباح تساءلت متعجبا هل فعلا تسكن روحه هذه الأسوار.

في حلم آخر سمعته يقول:

- أنتم أموات. وأنا ما زلت حيا في قبري. إسأل الجنرال غورو الذي زارني. ألم يقل لي:

- «ها قد عدنا يا صلاح الدين». وكأنه يتشفى مني بعد مئات السنين لأني هزمت جيوشهم الجرارة، ولو استطاع لشرب دمي من قحف رأسي.

قلت في نفسي صدق والله صلاح الدين، فهل هناك من يحدث الأموات. هنري غورو لم يقلها لنا لأننا أموات فعلا. لقد جاء ليقولها له في قبره. إذا هو حي. نجده في حطين. في هذه القلعة. في المسجد الأموي. نجده على كل لسان، في قلب كل ناشد للحرية.

قبل أن يختفي من حلمي ذات حلم سمعته يقول صارخا:
- امشوا بسيوفكم وأسقطوا حكامكم، دكوا عروشهم وادفنوهم مع الحطام. فلا ينفع معهم سوى السيف الذي فيه الحد بين الجد واللعب. بين الذل والعزة.

صلاح الدين بات يلازمني، يزور أحلامي بين ليلة وأخرى. كنت أشعر بروحه بين أسوار قلعته. وكم كنت أسعد برؤيته. رحت أتذكر كلام أستاذ التاريخ فاتح ماضي في دروس الثورة السورية. أذكر منها أنه حدثنا عن الجنرال غورو، ويوسف العظمة كثيرا. وقال لنا:
- اذهبوا لزيارة قبره في ميسلون حيث وقعت معركة الشرف الكبرى بين القوات السورية بقيادة يوسف العظمة،

والقوات الفرنسية بقيادة الجنرال غورو وترحموا على روحه.

قال لنا:

- إن التاريخ لا يخلد سوى الأبطال العظام، ويوسف العظمة كان منهم. كان يعلم أن جيشه القليل العدد والعدة لا يمكنه أن يجابه جيشا كامل التجهيز بأحدث الأسلحة المدمرة. ورغم ذلك قال قولا شهيرا : «وجد الجيش ليقاتل حتى ولو كانت نتيجة المعركة ضده». ولكن لا ينسحب الجيش حتى قبل أن يواجه عدوه. فجيش مهزوم في ساحات الكرامة، بعد معركة مشرفة، لأشرف بكثير من انسحابه قبل المعركة، جارا وراءه أذيال الخيبة والعار. عندما قال الملك فيصل ليوسف بأن المعركة غير متكافئة، ومن الأفضل أن لا يجابه هذا الجيش الجرار. أجابه ببيت أمير الشعراء الشهير:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

ولكن الخيانة أيضا كانت في الموعد. فقد قص شريط فتيل الألغام التي كانت مهيأة لمفاجأة دبابات العدو. وكانت النتيجة، عندما حاول يوسف تفجيرها، أنها بقيت خامدة في

أرضها، وتقدم الجيش الفرنسي ليجهز على مئات الثوار ومنهم يوسف البطل.

قال الأستاذ ماضي:

- هكذا باتت أمة العرب. أبطال قلة، وحكام خونة في كل مكان، يلعقون الأحذية التي تطأ رؤوسهم، ودهماء مغلوب على أمرها تركض وراء الرغيف الذي يجري أمامها.

ترحمت كثيرا على فاتح ماضي عندما علمت بوفاته. لقد علمنا قيما وطنية عبر سرده للتاريخ كما يقرؤه هو، وليس كما يقرؤه الآخرون. جعلنا نرى الأشياء بمنظار آخر. علمه، ونظرته للتاريخ، وغيرته الوطنية قتلته. عندما كان يتحدث عن الخونة، كان يقصد أيضا بعض الطلبة الذين كانوا يكتبون فيه التقارير بعد كل درس للأجهزة الأمنية التي دست أعوانها في كل مكان لتلقي القبض على كل من تسول له نفسه انتقاد السلطة.

ذات يوم لم يأت الأستاذ ماضي ليلقي درس التاريخ. شائعة راجت بين الطلاب تقول إن الأجهزة اعتقلته مع عشرات آخرين بتهمة «التحريض على مجابهة النظام، وبث الفتنة». منذئذ لم نر أستاذ التاريخ لقد خرج من أقبية التحقيق ميتا.

ذات حلم جاءني صلا ح الدين على حصانه الأبيض حاملا سيفا وترسا، يقفز من حجر إلى حجر فوق أسوار القلعة، ثم من سور إلى سور، دون أن يقع ، وفاتح ماضي يمشي وراءه حاملا كتابا كبيرا ويدون فيه بريشة كبيرة. ناداني:

- يا مالك حصيرة.

قلت:

- لبيك أستاذي الجليل.

قال:

- ستسقط بغداد مرة أخرى، وتغتصب كما اغتصبت أختها عروس الشام. سيذبحونها كالبقرة التي تقع . ستكثر عليها السكاكين. سينبشون تكريت، مسقط رأس صلاح الدين، وسيعيثون فيها فسادا ودمارا وتخريبا ليشربوا زيتها. زيت الأرض الذي تجود به على العالمين. تذكر هذا الدرس جيدا. إنه درس من حقبة لتاريخ المستقبل التي سينحدر حكام العرب فيها إلى ما دون الدرك الأسفل. سيتآمرون مع المستعمر الجديد، سيساعدونه على ذبح إخوتهم، سيهرولون صاغرين للعق حذائه ليحمي عروشهم من غضبة شعوبهم.

صمت الأستاذ ماضي، وراح صلاح الدين يبكي. رأيت الدموع تبلل لحيته وهو يقول بصوت متهدج:

- آه يا تكريت آه
- آه يا تكريت آه
- آه يا تكريت آه

قالها بمرارة كبيرة وكأنه يعتصر قلبه.

سألت متلهفا:

- ومن سيفعل ذلك؟

أجاب:

- العلوج الجدد، وحلفاؤهم الأعاريب الجدد.

قال:

- سيقتلون عليّا مرة أخرى في الكوفة، وسينحرون الحسين مرة أخرى في كربلاء، بعد أن ينفضّ الأعاريب من حوله من جديد، وسيموت العباس مرة أخرى عطشا ونبال العاهرين الجدد منغرسة في جسده. ثم لوّح بسيفه وقفز عن الأسوار وهو يصرخ قائلا:

- يسرقون أرضي قطعة قطعة. يغتصبون ابنتي كل يوم، وأنتم مازلتم تسترقون السمع خائفين، خانعين، قنوطين، مطأطئي الرؤوس، تطأكم الأقدام، وينخركم الذل والهوان. أنتم أيها الأعاريب الجدد، ليس الأعاريب عند الله من أحد.

ثم صرخ صرخة عالية قائلا:

- والله لو لم يبق لي من العمر سوى ثلاث كلمات لقلت:

الحرية،

الحرية،

الحرية.

وتبعه الأستاذ ماضي وهو يلوح لي بيده ويقول:

لا تنس التاريخ يابني.

لا تنس التاريخ يابني.

لا تنس التاريخ يا بني.

كنت في كل مرة أرى فيها الأيوبي في حلمي أنهض وفي قلبي بركان يدفعني لأكسر الأغلال، وأحطم الأبواب الحديدية. كنت أتذكر دائما مفتاح ماضي، لأنه ربما مات خلف هذه الأسوار ظلما، وقهرا. وأقول في نفسي:

- لا بد يوما أن أخرج منها بوسيلة ما. لاني إذا لم أفعل سأموت هنا، كما مات أستاذ ماضي.

كنت أنتظر الزيارات الطبية التي تأتي عادة بعد عملية تعذيب حيث يكون السجين مصابا بجروح أو كدمات جراء عمليات الضرب الشديد، أو حتى كسور في العظام، أو تشقق في الشرج بسبب الجلوس القسري على عنق زجاجة، أو نزيف في الأصابع من جراء قلع الأظافر بالكماشة.

بالأمس استدعيت إلى جلسة للتحقيق. صالة التحقيق كانت في أحد الأقبية. الجدران ملطخة ببقايا دماء جافة نزفت من رؤوس السجناء جراء اصطدامها بها بعد الضرب، أو الدفع العنيف من قبل المحققين. في إحدى الزوايا استندت مجموعة من العصي وعيدان الخيزران وأجهزة التعذيب بالكهرباء. منظرها فقط يجعل المرء يرتعد خوفا، وتحل عقدة لسانه.

في العيادة يفحص الطبيب الأعضاء المتضررة لعلاجها، أو لتطهير بعض الجروح والكدمات التي تخلفها جلسات التحقيق التي يخرج السجين منها مثخنا بالجراح والكدمات، أو متلف الأعصاب جراء الصدمات الكهربائية. لم أكن سعيدا بالذهاب إلي المستوصف للعلاج، بقدر ما كنت سعيدا للخروج من هذه الزنزانة لأستنشق الهواء، وأرى نور الشمس، فهي فرصتي الوحيدة للخروج والمشي في الهواء الطلق بعد أيام طويلة في الزنزانة المنفردة.

ذاك النهار كانت جراحي طازجة بعد حفلة استجواب عنيفة لمعرفة كيف تم الاعتداء على جاك؟ وأين الكنز؟ المرض في مستوصف السجن قال بعد أن عالج جروحي الملتهبة:

- إن جروحك عميقة حاول ألا تتحرك كثيرا، ثم نظر إلي نظرة عطف وقال:

- أعانك الله يا بني.

قلت:

- أتمنى أن أجلس أطول مدة ممكنة في المستوصف أشم رائحة المواد المطهرة، بدل روائح الرطوبة والعفن والنتن في زوايا هذه القلعة السجن، وأستمتع بفسحة المكان.

نظر إلي ثانية نظرة أسى وقال:

- ليتني أستطيع.

أعادوني إلى زنزانتي ورموني على الأرض كما يرمون جثة هامدة.

7

استيقظ أليس مثقل الرأس، يتحرك وكأنه حمل صخرة كبيرة على ظهره. التفت إلي وقال:

- أفضل مكان في الدنى الآن هو حمام زنوبيا.

سألت بدهشة:

- هنا في هذه الصحراء يوجد حمام؟

- ما أشد جهلك أيها المتعلم. ألا تعلم أنه في سالف الزمان كان للملكة زنوبيا حمام في غار وسط الصحراء، وكانت تستمتع بالاستحمام فيه لأنه ينقي بشرتها، ويعالج جلدها من أية بثور، أو حبوب بفعل المياه الكبريتية الساخنة فيه؟

- الأستاذ فاتح لم يذكر لنا شيئا عن هذا الحمام عندما أعطانا دروس مملكة تدمر.

- هذه تعتبر من زوايا التاريخ المجهولة. أو من زوايا الجهل التي كانت في رأس أستاذك يا مالك. تعال لأدرسك التاريخ على الأرض، فالعلم في التجربة والراس، وليس في الكراس.

- لا تتهجم على أستاذي فهو أستاذ جليل، ومات من أجل هذا الوطن.

كان حمام زنوبيا غارا يقع في هضبة تطل على مدينة تدمر، يدعى نبع أفقا. من حلق الغار يتدفق ماء ساخن حنون ترتخي فيها الأعصاب، وترطب الجلد وتعالج كل أمراضه. وكلما توغل المرء في الغار، كلما ازدادت حرارة الماء، وتعددت الروافد المتدفقة من مغاوره وأنفاقه. وتتقلص مساحة الفوهات كلما توغل المرء فيها حتى تستحيل إلى ثقوب في كبد الهضبة، وكأنها شرايين تضخ ماء حارا رحيما. كانت زنوبيا، ملكة تدمر، تستحم فيه وقد أطلق عليه اسمها إلى يومنا هذا. بحكم موقعه في هذه الصحراء بعيدا عن المدينة صار مهجورا، وقلما زاره أحد.

بات هذا المكان، فيما بعد، مكاني المفضل. آتي إليه كلما سنحت لي الفرصة. أتخيل الملكة زنوبيا وهي تغطس فيه برفقة زوجها أنيبا، والوصيفات من حولها، وكلهن يحملن قوارير العطر والعنبر. فتيات جميلات بملابس شفافة رقيقة، تظهر من خلالها مفاتنهن، والحراس يعج بهم المكان في الخارج.

كنت أغطس في مياهه، وأغسل جلدي من طبقات العرق والغبار التي تكدست فوقه. وأحاول في كل مرة أن

أكتشف أحشاءه، أتوغل في مغاوره حتى أصل إلى مرحلة تضيق معها أنفاسي لقلة الهواء، ثم أعود أدراجي وأنا أغوص في المياه وأستمتع بحرارتها، خاصة في أيام الشتاء، ثم أخرج وأستلقي على حجر كبيرة مسطحة تقع على باب الغار، أستنشق الهواء العليل، وأجفف جسدي تحت أشعة الشمس، فأشعر براحة عظيمة ونشاط، وكأنني خرجت للتو من رحم أمي.

ذاك النهار كان فرحي عظيما باكتشاف هذا المكان. وأليس كان سعيدا بوجودي معه. عبثنا بالماء كثيرا. وضحكنا كثيرا.

التفت إلي وقال:

- ما أجمل أن نصطحب مجموعة فتيات إلى هذا الغار ونطارحهن الغرام في هذه المياه الحارة.

- ومن أين ستأتي بهن، ومن هي التي سترضى أن ترافقك في هذا القفر؟

- هي مجرد أمنية أيها الغبي،

- أمنية لا يمكن أن تتحقق حتى مع مومساتك.

- لنعد إذا إلى المخيم، وأعدك أني سأطرح الفكرة على مومساتي العزيزات، وسآتي بهن إلى هنا، ثم نظر إلي وأردف قائلا:

- هل تريد الرهان على ذلك؟

بعد يوم عمل شاق استقبلنا المساء بسعادة، تحت الخيمة كان أليس قد حضر كل شيء لعشاء شهي، أبو عسكر يسمع نشرة أخبار أجنبية، ويعلق دائما على الأخبار بقوله:

الإذاعات الأجنبية تعرف ما يحصل في بلادنا أكثر ما نعرف نحن عن أنفسنا. يملكون الإعلام الحقيقي. ويتحدثون بحرية. هذه هي فوائد الديمقراطية.

أبو حفص يتيمم بالرمل بعد أن فرغ الماء في الصهريج ويقول لأليس:

- متى سيأتيننا الماء أيها الماجن؟

- غدا بإرادة الله يا عم أجابه أليس. اليوم خمر وغدا أمر.

دارت عقارب الساعة سريعا. انتصف الليل. كل خلد إلى نوم عميق خلا أليس وأنا، نأكل، نشرب، نتسامر، نضحك.

فجأة خرج أليس من الخيمة ثم عاد وفي يده سلة أخرج منها ديكا ودجاجة معصوبي الأكرعة، كان أبو حفص قد غِذاهما بفضلات الطعام خلال الشهر الماضي ليكتنزا شحما ولحما، ويكونا أضحية للعيد. أخذ أليس رأس الديك بيده. فتح منقاره وسكب في حلقه ملعقة عرق، مثنى وثلاث ورباع. وفي كل مرة كان الديك يبلع ريقه، وكأنه يتذوق هذا الشراب الغريب. بعد هذه الوصفة نفض رأسه،

أغلق جفنيه ثم فتحهما عدة مرات، لم يفهم شيئا. ثم جاء دور الدجاجة فأعطاها الوصفة ذاتها ثم حل رباطهما. بعد لحظات وقف الديك يترنح، دار حول نفسه عدة مرات. اشرأب بعنقه. حاول الصياح بصوت مخنوق. اقترب من الدجاجة. خفق حولها بجناحيه. حاول القفز على ظهرها. لم يفلح. حاول مرة أخرى. وقع مجددا. مع كل محاولة منه للقفز على ظهر دجاجته كانت تنتابنا ضحكات هستيرية.

صاح الديك صياحا غير مألوف، كرر صياحه وكأنه يطلب ملعقة أخرى من هذا الشراب العجيب.

نهض أبو حفص من غفوته مذعورا. ما بال الديك يصيح ؟ هل هو الفجر في منتصف الليل؟ ولماذا من خيمة أليس على أية حال؟

داهمنا أبو حفص وأليس يصب آخر ملعقة عرق في حلق الديك.

أتذكر أنه شتمنا، وأن عصا غليظة انهالت فوق رأسي بعد أن لمحت أليس يفر هاربا في العراء.

كان الوقت أقرب إلى الغروب. السماء كغانية غجرية تصبغ حوافي أجفانها بلون قرمزي تأهبا لاحتضان الليل. القبرات تخفق جناح العودة إلى أعشاشها قبل أن يغدر بها جناح الليل. أبو حفص يسكب ماء عكرا على رأسه

بعد أن غسله بصابون حلبي من ماء الصهريج الذي جلبه أليس. منذ حادثة الديك لم يتوجه إلي بالكلام رغم مرور أيام عليها. نظر إلي مطولا ثم دخل خيمته وجلب الديك والدجاجة ورماهما أمامي قائلا:

- بإمكانك أن تأكل لحمهما مع ذاك العربيد لأنهما باتا محرمين بعد أن أسكرتموهما، لعنكما الله لعنة أبدية لا تباع ولا تشترى. لقد أفسدك هذا العربيد، وقريبا ستصبح سكيرا بدورك.

وجدت نفسي مذنبا حقا. لقد حرمته من أضحية العيد. قلت:

- أغلظ لك بالأيمان يا أبا حفص بأني سأجلب لك قبل يوم العيد خروفا سمينا تجعله بدلا من هذين الطيرين، وأنا آسف على فعلتي.

لم يكترث بكلامي بل اكتفى بالقول:

- أصلحك الله. ثم قفل راجعا إلى خيمته. لحقت به وأغلظت بالأيمان مرة أخرى بأني لن أرحل قبل أن أقبل جبهته ويصفح عني.

خفتت حدة الشرر المتطاير من عينيه، نفث هواء مخزننا في رئتيه ثم هز رأسه وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله

ثم دعاني للجلوس إلى جانب منقذ الذي كان يرفو سروالا بصمت. أخذ أبو حفص سبحته وراح يداعب حباتها وينظر إلى الأفق البعيد. حبات السبحة الغليظة كانت تطقطق بين أصابعه بفاصل زمني متقن، وكأنها إيقاع دقات الساعة. بعد صمت خلته دهرا مسح لحيته التي بدت ألوانها كخليط الملح والفلفل، وقال بعد أن تنحنح:

- يا بني إن وقتنا ليس وقت لهو. عالمنا عالم خبيث. يسود فيه الظالمون. عالم القوي المتحكم بالضعيف المغلوب على أمره. عالم بات الفساد فيه هو القاعدة، والباقي شواذ. يا بني ابتعد عن أولاد السوء، وابحث عن مستقبلك، ولا تخالف قوانين السماء. انظر إلى منقذ. هذا الشاب الوديع فهو لا يختلط بهذا العربيد، لأنه لا يريد أن يعاقر الخمر، ويضاجع المومسات، وهو يعمل بجد، ويقوم بواجباته الدينية على أكمل وجه، وقد وعدته بيد ابنتي.

نظر منقذ إلي دون أن يعقب وكأنه يؤكد ما قاله أبو حفص. صمت مجددا ثم قال بعد أن تنهد:

- وفقك الله يا بني، وكأنه أراد أن يقول لقد حان وقت الانصراف.

كان منقذ قليل الكلام، كثير التفكير، يبحث عن لقمة عيشه بعرق جبينه. هجر المدرسة بعد شهادته الثانوية ليمد

يد العون لوالده الذي لم يعد يقوى على إعالة عائلة كبيرة في ظل غلاء المعيشة، وقلة فرص العمل. وكان ينتظر أن يتم استدعاءه ليلتحق بالكلية العسكرية التي تقدم إليها ليتخرج منها ضابطا.

دنوت منه مرة وسألته:

- ما سر حزنك؟

قال بمرارة واضحة:

- أنا شاب أحب العلم. وأعشق المعرفة. كانت أحلامي أن أصبح طبيبا، وأكسب مالا كثيرا كي أسعد عائلتي، ولكن كما ترى ما أتقاضاه لا يكاد يسد رمق ثمانية أفواه.

قلت له برفق:

- أنا بت وحيدا في هذه الحياة، هل لك أن تقبل مساعدتي ولو بقليل من المال.

رمقني بنظرة اعتراف بالجميل وأجاب:

- أشكرك يا صديقي، بوجودك أشعر بأن في هذا العالم الجحود مازلنا نجد بعض الأخيار.

مددت إليه مبلغا من المال، حاول رفضه في البداية، لكن مع إصراري قبل به وشكرني جدا، ثم قال:

- سأشتري لأختي حذاء، فهي تخجل دائما أمام زميلاتها بالحذاء المهترئ الذي ترتديه.

كانت الأيام تسري بسرعة هادئة، كمياه النهر. وكمياه النهر التي لا يمكن أن نستحم بها مرتين، لا يمكن أن نعيش نفس اللحظة مرتين. فالثانية كالقطرة في مياه النهر تمر. نستحم بها نعيشها ثم تمضي لكنها لن تعود. وكل ثانية طازجة في حياتنا ربما تحمل لنا في جعبتها مفاجآت جديدة.

ذات غروب عدت إلى المخيم وأنا أمسك بيمامتين التقطتهما في بئر مهجورة. ففي هذه الصحراء ينقب البدو عن الماء. يحفرون باستمرار آبارا. منها ما يتفجر ماء عذبا، ومنها ما لا يجود إلا بالرمال فيهجرونها لتصبح مأوى للطيور التي تبني أعشاشا في حفر جدرانها.

رآهما أبو حفص فقال لي:

- أتمنى أن تطلقهما فهما لا تسمنان ولا تغنيان من جوع. وهما تحبان الحرية كما تحبها أنت.

أجبت على الفور:

- سمعا وطاعة، وأطلقتهما في الهواء فخفقتا جناحا الحرية سريعا باتجاه عمق الصحراء حتى غيبهما الأفق.

في زنزانتي كنت أذكر هذه الحادثة، وأحمد الله أني أطلقتهما لأني الآن بت أعرف ما معنى أن تفقد الحرية. وبت

أستغرب كيف يضع الناس طيورا في أقفاص، وهي ذات جناح عاشقة للتحليق في الأجواء بحرية.

كان نصب الأعمدة الفولاذية يتقدم بسرعة، كنا نسير وراء ورشة الحفر التي تهيئ لكل عمود حفرة لتصب فيها القواعد الإسمنتية، وكانت مهمتنا أن ننتظر هذه الحفر أن تجف وتصبح صلبة لنقوم بتركيب الأعمدة فوقها. كان الخط يتجه رويدا في عمق الصحراء ويبتعد عن كل منطقة مأهولة مسافات بعيدة. وكلما توغلنا بانت لنا قطعان قبائل البدو من إبل وأغنام وخيامهم أكثر فأكثر.

كان الوقت غروبا. الصحراء تخرج رويدا من حمام الشمس اليومي. نسمات خفيفة هبت على المكان. بعض القبرات تركض وتختفي بغتة في أعشاشها المحفورة في الأرض. كنت دائما أسائل نفسي كيف يمكن لهذه القبرات التعرف على أعشاشها بعد أن تكون قد جابت خلال النهار مساحات واسعة في صحراء لا يوجد فيها ما يميز مكانا عن آخر.

العمال بدؤوا بتحضير أطعمتهم. الزعيم يقطع خضارا لتحضير السلطة. ومنقذ يضع إبريق الشاي على الموقد، وأبو حفص يهتم بوضع الأطعمة على فرش مستدير من القش. بيض مقلي، وجبنه بيضاء كان البدو يبيعونها مع

اللبن والحليب. خبز قمري تنوري، دبس الزبيب أو التمر، زيتون، زيت وصعتر، مربى المشمش. كانت وجبة العشاء من أمتع الوجبات مع المجموعة بأكملها. أما أليس فلم تكن تروق له مثل هذه الجلسات، ولا المجموعة كانت ترغب بأن يشاركها الطعام وبيده كأس العرق.

كنت أجلس متأملا الأفق البعيد الذي بدا لي سطرا أحمر مستقيما على صفحة الصحراء، والسماء تهيئ نفسها للبس رداء الليل. من بعيد أطل قطيع من الغنم. اقترب منا. فتاة تتقدمه وإلى جانبها كلبان أبرشان، وحمار متهدل الأذنتين. وراع يهش على الغنم. فستانها أسود طويل يصل الكعبين، وشال أسود مطرز الحواشي يغطي الرأس، برز من جانبيه خصلة شعر أسود ناعم فاحم. عينان واسعتان، وأنف دقيق، ووجنتان مرتفعتان، وأسنان بيضاء في مقدمتها سن ذهبي يلمع تحت أشعة الشمس. قطع ذهبية تطوق العنق وتنام على صدر عريض. تمشي بخطى ثابتة وهادئة وتنظر إلى المدى البعيد. قامتها المستقيمة، وقدها الممشوق، وجسدها الذي لا يشكو سمنة أو نحولا يبعث بالنفس الوقار والرهبة. تقدمت مع القطيع باتجاهي. هرني الكلب. نهرته بعنف. نظرت إلي وحيتني دونما اكتراث متابعة سيرها وكأنها أميرة بدوية. نظراتي لاحقتها إلى أن غيبها البعد.

هذا المشهد كان من أكثر المشاهد التي كنت أستذكرها في سجني لأنه انطبع في مخيلتي كأحفورة قديمة. عيناها البنيتان الواسعتان خبأتا في أعماقهما حزنا دفينا. بنظرتها الخاطفة جمدت الدم الفائر في عروقي. حتى الكلمات لم تعد تخرج من فمي بعد أن عقد لساني. جعلتني أقف لها إجلالا بلا شعور. وأنظر إليها وكأنها آلهة جمال بدوية تتحرك أمامي في هذه الصحراء. ساءلت نفسي:

- من تكون؟ ومن أين جاءت؟ وإلي أين تتجه؟

وصل أليس بعيد مغيب الشمس يحمل الزاد والمؤن. داهمته على الفور بسؤال. من تكون؟

نظر إلي مطولا وقال:

- إذا سلبت منك اللب فلا بد أن تكون هي. شامة يا صديقي، شامة، ألم أقل لك بأنك إذا رأيتها ستسلب لبك.

بعد أن لاحظ ارتباكي قال لي مستهزئا:

- أرى أنك كمن لسعته الأفعى، أنصحك بأن تبتعد عن دربها، فهذا درب شائك ومحفوف بالمخاطر. لا تنس أن أخاها أودع أربع رصاصات في رأس الذي اغتصبها. وهي لبؤة لا تلين لسبعها بهذه السهولة. إنها كسور محصن لا يمكنك دخوله مهما فعلت. فهي بدوية بنت بدوي. والبدو لا يرضون بالحضر. ثم ضحك وقال:

- إذا كنت راغبا في رؤيتها ثانية تعال لأشربك كأسين من حليب السباع يجعلانك تتخيلها ترقص أمامك.

أليس في خيمته. أجهز على أول كأس، وراح يغني. أبو عسكر يغسل ثيابه في طست عتيق. وأبو حفص يتوضأ لتأدية صلاة المغرب. منقذ لم يعد بعد.

نسمة خفيفة جاءت من الشرق. عبس وجه السماء. لبس قناعا رماديا قاتما. البرق أومض ومضا نادرا، النسمة تحولت إلى ريح حملت معها رملا وغبارا. الريح هنا لا تحتجزها شجرة تلهو بأغصانها، ولا جبلا تناطح صخوره العنيدة، ولا بحرا تدفع مياهه لتتحول موجا هادرا. بل رمالا تحولها إلى نقع تقنع فيه وجه السماء. الريح باتت عاصفة هزت خيامنا بعنف واقتلعت بعضها. كأن الأرض أخرجت أثقالها. مطر هطل على رؤوسنا كالرماح وراح يطقطق على أسطح الخيام. أليس كال الشتائم للسماء لأنها أفسدت سكرته.

أبو عسكر قال:

- إني لم أشهد عاصفة هوجاء كهذه منذ زمن،

وراح يركض وراء ثيابه التي حملتها الريح بعيدا. احتمينا جميعا خلف خزان المياه اتقاء الرمال التي كادت أن تعمي أبصارنا. قال أبو حفص الذي عبثت العاصفة بلحيته:

- هذا من غضب الله علينا جراء سكر وعربدة أليس.

أجابه أليس دون انتظار بقوله:
- هل ذهبت كل صلواتك سدى مقابل كأس خمر أيها الحاج؟
ثم تابع بقوله:
- كن عاقلا يا أبا حفص. أكلما أتت مصيبة فهي بفعل أليس. إنها ريح جاءت بفعل اختلاف درجات الحرارة، لا أكثر ولا أقل. ولا دخل لخمري فيها، وهذه العاصفة ستهدأ بعد قليل.
- ومن أين لك هذا العلم؟ سأله أبو حفص.
رد عليه أليس بشيء من الفخر:
- لا تنس أني حصلت على الشهادة الثانوية بفرعها العلمي، وخريج كلية الجيولوجيا، قبل أن يقتادوني إلى السجن.
أجابه أبو حفص:
- لا سلمت يدا من سلمك هذه الشهادة.

قطع أبو عسكر حديث أبي حفص وقال:
- تتألف هيئة الأرصاد الجوية في قريتنا من الكلاب والحمير والأنعام. وهي تفهم بالأرصاد أكثر منك أيها العربيد.
قهقه أليس ثم سأل أبا عسكر:
- وكيف ذلك يا زعيم؟
أجاب الزعيم بقوله:
- الفلاحون يعتمدونها في تنبؤات أحوال الطقس، وقلما تخطئ. فإذا اجتمعت الأغنام جنبا إلى جنب فذلك يعني

أن هبوب العاصفة بات قريبا. وإذا انزوى حمار في زاوية وحرك ذيله كثيرا فمعنى ذلك أن أمطارا ستهطل، ورعودا ستقصف. وإذا عوت الكلاب مجتمعة كالذئاب فذاك نذير شؤم وغالبا ما ينتهي بزلزال.

رد عليه أليس متهكما:

- إذن الأمطار متعلقة بذيل الحمار.

ضحك الزعيم، وكنت أول مرة أراه يضحك مقهقها، ثم قال:

- إن خفة دمك أيها العربيد تغفر لك ذنوبك.

رويدا، رويدا هدأت العاصفة بعد أن حل الظلام.

قال الزعيم:

- صدق العلم، وصدق العربيد، لقد هدأت العاصفة.

أجابه أليس مباشرة:

- وكذب ذيل الحمار.

أولى ساعات الليل كانت قد انقضت دون أن نلحظ غياب منقذ. وقف أبو حفص وقال مستغربا:

- لم نر منقذ بعد. ماذا حل به يا ترى؟

قلت:

- لننتظر قليلا عله يعود.

الزعيم غط في سبات عميق، وأطلق شخيره المعتاد الذي ينغص على أليس سكينته. كان كلما سمع شخيره يقول مستهزئا: الآن عرفت لماذا هزمت جيوشنا الباسلة. كانوا يشخرون، وجعلوا الشعوب تنام وراءهم بعد أن أشبعوهم بخطابات غسيل الدماغ الطنانة الرنانة، بأن جيوشنا التي لا تقهر، إن حل الوغى، والتحمت مع العدو، فإن المعركة ستكون مجرد نزهة. جولة أو جولتان، وكان الأمر مقضيا.

كان السكر يفك عقدة لسانه، يجعله يتحدث، يثرثر، يغني. هذه المرة تناول سيرة هزائمنا.

دلق كأسا في حلقه ثم قال:

- اشخر يا زعيم اشخر. لقد وضعوا نجوما على أكتاف ضباطنا أكثر من نجوم السماء. وكنجوم السماء التي تختفي مع أول شعاع شمس، انطفأت النجوم على الأكتاف مع أول طلقة مدفع. انهزمت جيوشنا البواسل قبل أن يروا جنديا واحدا من جنود الأعداء. عادوا أدراجهم القهقري خوفا من أشباح لم يروها. حتى قادتنا الأشاوس هربوا من دمشق، وذهبوا إلى حمص خشية سقوط عاصمة الأمويين، وسقوطهم معها. رفع يديه إلى السماء وبات يصيح:

- دمشق يا ناس، دمشق يا ناس، قلب العروبة النابض، باتت

قلب العروبة الخافت. قلب العروبة الذي أصيب بسكتة قلبية، وأي سكتة.

ثم أردف مستهزئا:

- لكننا انتصرنا، لا تقولوا إننا لم ننتصر. حتى ولو ألبسنا هزيمتنا حلة اسمها النكسة، للتخفيف من حدة كلمة هزيمة، فقد انتصرنا، فالأعداء لم يكن طمعهم في التراب، ولكن في إسقاط النظام الثوري العظيم. والنظام مازال صامدا كالطود رغم كل محاولات العدو لإسقاطه. هذا هو الانتصار العظيم الذي ستتحدث به الأجيال لقرون مقبلة. وسيملأ صفحات التاريخ. طز على هكذا زعماء. وعلى هكذا أنظمة.

انزلقت دمعة ساخنة على خدي لمعت تحت أضواء ألسنة اللهب في الموقد.

سألني أبو حفص متلهفا:

- ما لك يا مالك؟

قلت:

- لا شيء يا حاج، فتق أليس جروحا لم تندمل بعد.

توجه إلى أليس وراح يكيل إليه الشتائم:

- اخرس لعن الله اليوم الذي رأيناك فيه.

نظر إليه أليس ثم دلق آخر كأس في حلقه وقال :

- اليوم قحاف وغدا نقاف. ثم غط في سبات عميق.

جاءني أبو حفص راجيا :

- هلا انطلقت الآن للبحث عن منقذ.

قلت :

- لبيك يا حاج.

اصطحبت فانوسا وانطلقت صوب حفر الأعمدة، وأنا أنادي بأعلى صوتي : منقذ، منقذ، منقذ..

بعد مسافة ليست بقصيرة مررت ببئر قديمة فاغرة الفيه، متهدمة الأطراف، ينطلق منها أنين. وجهت نور الفانوس إلى القعر. رأيت منقذا مطروحا وهو يئن.

سألت بلهفة:

- هل أنت أنت؟

- بلى أنا أنا

- لا تتحرك سأهبط حالا.

هبطت سريعا. البئر لم تكن غائرة القعر. طول قامة وبعض القامة. قال منقذ:

- لا أقوى على الوقوف. سقطت في هذا الجب بعد أن حجبت العاصفة عني الرؤية فكسرت ساقي.

نزعت عنه سرواله وقميصه، صعدت سريعا فوهة الجب ونزعت قميصي وسروالي، وعقدت الجميع حتى باتت كحبل متين. أدليته إليه وقلت:

- تمسك به بقوة.

أخذ بطرف منه، وأخذت الطرف الآخر ورحت أسحبه من البئر بصعوبة كبيرة حتى وصل فوهة الجب. أخذت بيديه وحملته على ظهري إلى أن وصلت المخيم.

هرع أبو حفص وتناوله، ثم وضعه على بساط ممدود على أرض الخيمة.

قلت:

- إنه مكسور الساق. لا تدعه يتحرك. ضع قدر ماء على الموقد وسأعود سريعا.

جلبت أربع قطع من خشب، وقميصا، وخيطا متينا. وضعت رجله في الماء الساخن دلكتها وأعدت العظم المكسور إلى مكانه. لففت الساق بقماش القميص، ثم وضعت قطع الخشب حول الساق. أحطت الساق بقطع أخرى من قماش، وحزمتها بقوة، ثم وضعت طينا فوقها، ثم فوق الطين قطعة من قماش.

قلت له:

- حاول ألا تتحرك حتى يجف الطين.

كان الجميع قد استيقظوا من نومهم وحاول كل منهم مساعدتي في جبر الكسر.

سألني الزعيم:

- أين تعلمت جبر الكسور؟

أجبت:

- في قريتكم الحيوانات كانت ترصد الأجواء والأنواء. أما في قريتنا فكان جدي حلاقا، وفي الوقت نفسه مجبرا للكسور والرضوض، وخاتن أولاد، وطبيب أسنان. وكان لحذاقته يطلقون عليه صفة حكيم، مع أنه لم يكن يكاد يفك الحرف. ورغم تورم بعض أعضاء الكبار، أو التهاب اللثث، بعد خلع الأضراس بكلابه الذي لم يعرف التعقيم، لم يكن أحد يتجرأ على توجيه أي اتهام له. بل كانوا يردونها دائما إلى مشيئة إلهية. وكم كنت فخورا عندما كنت أنسب نفسي إليه فأقول : أنا حفيد الحكيم. وقد تعلمت منه هذه المهنة بالمراقبة. فلم تعرف قريتنا طبيبا مختصا متخرجا من كلية طب حقيقية إلا مطلع الستينات. لكنه سرعان ما هجر القرية لأن أهاليها لم يكونوا يقصدونه فزيارته مدفوعة بالعملة الوطنية. أما زيارة عيادة جدي في دكان الحلاقة فكانت تدفع بالبيض والفجل والبطاطا والبصل.

ثم أردفت قائلا:

- لم يعد ينقص لهذا الكسر سوى الجص. سيذهب أليس غدا إلى تدمر ويجلب لنا بعضا منه حتى استبدله بالطين.

مط أليس بوزه وقال:

- وغدا سنحتفل بهذه المناسبة وسأجلب معي زجاجتي عرق.

نظر منقذ إلي مطولا ثم قال:

- لقد أنقذت حياتي، لن أنساها لك. وكان كلما رآني شكرني وقال:

- أسأل الله أن أرد لك هذا الجميل.

بعد شهر من هذه الحادثة تقدمنا نحو منطقة البيضاء. الأعمدة انتصبت في خط مستقيم. غيرت مشهد الصحراء الخالي من كل شيء. منقذ بات يمشي على عكازين بعد أن تحسنت حالته.

ذات ظهيرة. بعد أن توغلنا أكثر في كبد الصحراء، كنت على رأس أحد الأعمدة أشد أضلاعه. القبرات يتظللن بشوكات فارقت الحياة. السراب يملأ الأفق مياها كاذبة. السماء سعير منسكب. لا شيء يتحرك. لا صوت ينبعث. فقط صوت صليل قطع الحديد التي أحاول بجهد

كبير تركيبها في العمود الصاعد منذ الصباح. خلت نفسي وكأنني في مكان على سطح القمر. مع كل ضلع حديدي أقوم بتركيبه كانت الشمس تنتقل درجة على قرص السماء. كنت على موعد بالمراقب العام الذي يقوم بجولة تفتيشية على الأعمدة ليتفحص متانتها وكيفية سير المشروع. حاولت إعادة النظر في كل مفصل وذراع من مفاصل العمود وأذرعه. صعدت مع القضبان المتصالبة إلى الأعلى أطرق بمطرقة ثقيلة على كل ضلع لأقطع الشك بيقين متانتها. كان الخوف ينتابني من المفتش في كل مرة يمر فيها لأنه صعب المراس ويهددني دائما بالطرد إذا ما وجد علة ما في عملي. فكم طرد من العمال وقطع لقمة عيشهم لأسباب واهية، فقط ليدب الرهبة في قلوبهم كي يخشوا جانبه، ويدفعوا ما عليهم من إتاوة. الفساد يلاحقنا حتى في الصحراء. بالنسبة لي ألقمته نصف شهريتي منذ البداية، وقلت له بأن حالتي المالية لا تسمح لي حاليا بأن أدفع أكثر. فلم يعد يطالبني بشيء.

من أعلى العمود وعلى حدود السراب البعيد تذبذب في عيني بيت شعر. البدو يفاجئوني دائما بسرعة حركتهم. بالأمس لم يكن لهم أي أثر. اليوم هناك بيت شعر منصوب. قلت في نفسي:

- ربما وصلوا مع ساعات الفجر الأولى. البدو يمشون طوال الوقت، في الحر كما في البرد، في الليل كما في النهار. يأكلون وهم يمشون، يتزوجون وهم يمشون، أو على أهبة الاستعداد لمواصلة المشي، يتخاصمون وهم يمشون، يتصالحون وهم يمشون. يموتون وهم يمشون، كأن الريح في أقدامهم. يمشون وهم يتشممون روائح الكلأ والماء، مثلما تتشمم الذئاب روائح الخرفان، ولا يتوقف أحدهم عن المشي إلا حين يرمى في القبر. ولا مقابر في الصحراء.

المراقب العام وصل بسيارة مكشوفة مع سائق ومرافق. تسلق المرافق العمود متفحصا أضلعه التي بدت له متينة. ناداه المراقب قائلا: اهبط بسرعة لا داعي للمراقبة الدقيقة، فعمل مالك حصيرة لا يحتاج للمراقبة. قلت في نفسي:

- مازال مفعول نصف الراتب ساري المفعول إذن.

انحدر المراقب مسرعا وقال: لننتقل إلى الأعمدة الأمامية قبل أن يغدر بنا الظلام.

انطلقت السيارة. فزعت القبرات أمامها. تنفست الصعداء. لقد اجتزت الامتحان مرة أخرى بنجاح. بتر شريان الخوف من فقداني عملي. جلست أنتظر أوبة أليس ليعيدني بسيارته إلى المخيم.

الشمس استحالت برتقالة تجذبها أيد خفية من وراء الأفق. الظلام حل سريعا. السماء لبست حلتها المزركشة بخرز رفيع لماع. صعدت العمود خوفا من لسعات العقارب والأفاعي التي تسعى ليلا بحثا عن فريسة. الساعات مضت طويلة. الظلام دامس من حولي خلا ضوء خافت كان ينبعث من بيت الشعر.

الوقت مر بطيئا، فقدت الأمل بعودة أليس. حتم علي الخيار هذه الليلة إما النوم على أضلع العمود أو الاتجاه نحو بيت الشعر. عزمت على التقدم باتجاهه. نباح الكلاب اشتد مع اقترابي منه. لملمت أطراف شجاعتي المبعثرة. الكلاب اتجهت نحوي مسرعة. صارت على بعد أمتار مني. انحنيت سريعا لالتقاط حجر. وقعت يدي على شوكة. الكلب كان أسرع مني. نهش ذراعي العارية. أنياب الكلب الآخر انغرست في فخذي. قبضت بقوة على رأس الكلب. الكلب الآخر حاول الانقضاض مرة أخرى على ذراعي. ركلته بعنف. عاود الكرة. ركلته مرة أخرى. التقط حواشي سروالي وراح يشده بعنف. الكلب الآخر حاول التملص من قبضتي. ضربته بقوة على خشمه. تراجع. وقعت يدي سريعا على حجر. قذفته بشدة على أحدهما. زاغ منه وابتعد قليلا تبعه الكلب الآخر. وقفا

قبالتي ينبحان بشدة. تجمدت بمكاني. لم أشعر بالثقوب النازفة التي خلفاها في جسدي.

رعب عميق كان يسري في أحشائي في كل مرة أستذكر فيها هذا المشهد.

نباح كلب حراس السجن أيقظني من غفوتي. أعادني إلى زنزانتي. دخل المرض مع الحارس الزنزانة لمعاينتي. وضع المرض سماعته على صدري، ثم وضع مقياس الضغط على ذراعي، وميزان الحرارة في فمي، ثم أعطاني بعض الأدوية وخرج سريعا.

الوقت كان عصرا. من الزنزانة المجاورة سمعت تلاوة آيات قرآنية. الصوت كان شجيا والترتيل جميلا. لقد أتوا بسجين جديد دون أن أدري. ربما جاؤوا به في منتصف الليل. أصغيت إليه باهتمام. كان الصوت الوحيد الذي يرافقني. انتظرته حتى صمت. طرقت على الجدار الحجري بمجمع يدي بقوة كي يسمعني. لم يستجب لندائي رغم تكرار الضربات. أقلعت عن فكرة الاتصال به وعدت إلى ذكرياتي.

الكلاب مازالت تنبح بعنف. عن بعد سمعت صوتا ينادي. شبح مبهم الملامح ركض باتجاهي. اقترب مني.

صوت امرأة تصيح بالكلبين. نباح الكلاب لم يتوقف. صوت امرأة. خيالها في الظلام كدت أعرفه. تغلب البصر على الظلام. الفستان الأسود هو هو. القامة الفرعاء هي هي. الذهب اللامع تحت ضوء النجوم هو هو. العينان القهويتان الواسعتان هما هما. القرط المتدلي من الأنف. لم يتغير شيء. هي هي. كما رأيتها. انحنت على جرحي النازف من ذراعي وقالت:

- لقد مستك كلابي بسوء. لا تقلق.

أخذت بيدي. سرت بجانبها مذهولا لا أكاد أصدق. نسيت عضّ الكلبين. فرحة عارمة غمرت قلبي. ساقتني إلى بيت الشعر. الكلاب توقفت عن النباح. النار موقدة. الأم تضع قدرا فوقها. الأغنام والإبل ظهر شيء منها تحت ضوء الفانوس الخافت الساقط عليها. أمسكت ذراعي. عاينت الجرح تحت الضوء. الأم هرولت، وجلبت قطعا من قماش ووضعتها على الجرحين.

ركبت شامة حصانا أبيض كان على مقربة من بيت الشعر بعد أن قالت لأمها:

- سأجلب طراد المتعب سريعا.

- ومن هو طراد المتعب؟ سألت بتعجب.

- إنه طبيب البادية وحكيمها، الكل يختلف إليه في مثل هكذا حالات. أجابت الأم.

وصل طراد ممتطيا صهوة جواد عربي أصيل أسود اللون. ترجل سريعا. نظر إلى الجرح النازف، ثم طلب من شامة أن تضع ملعقة محمصة القهوة في الجمر.

توجه إلي قائلا:

- لا تقلق فهذه الكلاب غير مصابة بداء الكلب. مجرد جرحين غائرين سأعمل على تطهيرهما.

أخذ ملعقة المحمصة المعدنية الطويلة، وقد انقلب لونها إلى أحمر أرجواني بفعل الحرارة وقال:

- تجلد. ثم وضع قطعة من جلد في فمي وطلب مني أن أعض عليها. ثم ألصق طرف الملعقة على الجرح الأول ثم على الجرح الثاني.

ألم شديد سرى في جسدي. كدت أصرخ. لكن وجود شامة وهي تنظر إلي بشيء من الشفقة جعلني أتمالك نفسي. يجب أن أثبت لها بأني رجل ولا ككل الرجال. صمدت أمام الحديد المحمى وهو يحرق لحمي.

أخذ طراد حزاما جلديا أحكم قبضته على طرفه الأول، وأحكمت شامة قبضتها على الطرف الثاني، ثم راح يمرر

فوقه موسى حادة ذهابا وإيابا. خرجت منه قشارة ناعمة أشبه بالوبر. بلل القشارة بسائل من قارورة كان يحملها في جيبه ووضعها على الجرحين ثم ضمدهما بمنديل نظيف معطر بالمسك لشامة. هذا المنديل مازلت أحتفظ به معي. لم يفارقني أبدا. في زنزانتي أشم رائحتها منه. لحبي لها فكرت يوما أن ألوكه، وأبتلعه حتى يمتزج بدمي، ثم عدلت عن الفكرة وحرصت أن يكون في جيبي دائما.

توجه إلي وقال:

- لا تتحرك كثيرا حتى يندمل الجرح. ثم امتطى جواده واختفى في الظلام.

بعد رحيل طراد المتعب من خيام شامة، قالت لأمها بلهفة: اجلبي الزاد. وقبل أن تأتيني بالزاد، فقدت الارتباط الحسي بالحياة.

8

طراد المتعب ذكرني بفرسان العرب الأوائل، وكأنه خرج من رحم التاريخ. طويل القامة. متين الجسد. بشاربين ولحية قصيرة غزاها الشيب، وبشعر انسدل على كتفيه من تحت كوفية وعقال، وعينان كعيني الصقر.

سألت شامة عنه فقالت:

- إنه مثال الحكمة والشهامة، وسيد من أسياد البدو. وتابعت بالقول:

- لا أحد في هذه البادية لا يعرف طراد المتعب، فأياديه بيضاء على الجميع. يصلح بين العشائر. يحمي المظلوم. يعدل بين الناس.

فيما بعد صرت أختلف إليه من حين إلى حين. في بيت الشعر الأبيض الواسع كان يتصدر المجلس، وعلى جانبيه يجلس أعيان العشائر كل حسب مرتبته. الأقرب إليه الأرفع مرتبة. عندما زرته أول مرة، لأقدم له شكري وامتناني، كان

وحيدا مع بعض أفراد العائلة. قال لي إن ما فعله كان واجبا ولا يحتاج إلى شكر.

في المرات اللاحقة كنت آتي إليه لأسمع أحاديثه، وصوت الربابة، والأغاني البدوية العذبة، وأبتعد قليلا عن أليس وأمسياته. فخيام البدو دائما مفتوحة للزائرين. يرحبون بالضيوف ويكرمونهم.

ذات ليلة سمعت أحاديث تدور بينه وبين الجلوس من أسياد العشائر الذين بت أعرفهم واحدا واحدا: بو صفوق، وحمد الطرشان، ونمر العمير، وسحيم الخريوش، وخليفة المهاوش، ومشعان عذاب، وعتاب المهاجر، وطحنون المسفر، وزايد العتيبي، وحشر المزيود، وشعلان الشعلان، وآخرون.

توجه بوصفوق إلى طراد المتعب سائلا:

- كم بقي لعذاب من سنة ليخرج من السجن؟

أجابه طراد بالقول:

- لا أدري تحديدا. في آخر مرة زرته قال بأن محاميه سيقدم له طلب تخفيض الحكم، ولا أعرف إذا تم ذلك. وإذا لم يتم فما يزال أمامه أقل من سنوات ثلاث .

سأل حمد الطرشان: يا طويل العمر وكم تبقى من سنة ليخرج ابنه حمد من السجن؟

أجابه طراد أن حمد ربما يخرج قريبا لأن جرمه كان دفاعا عن الشرف.

في اليوم التالي عدت إليه أسأله لماذا دخل أبو حمد عذاب السجن، إذ لم أتجرأ الحديث عن أسباب سجنه بالأمس بين سادة العشيرة.

نظر طراد إلي مطولا ثم قال:

- لقد اشتعلت الحرب بين القبائل في الخمسينيات بعد أن اغتيل شيخ قبيلتنا.

- ما اسم قبيلتكم؟

- الحسنة

- ولماذا اغتيل؟

- كان طراد الملحم نائبا عن العشائر في مجلس النواب السوري، وكان يمثل عدة قبائل. كان خطيبا مفوها، ومن أسياد البدو المتعلمين، وله صلات قوية مع كبار رجال السياسة في دمشق وكانت هناك منافسة كبيرة بين عشيرة الحسنة وعشيرة النعيم، في أحد الأيام كان طراد الملحم في دمشق يحضر جلسات البرلمان. ذات صباح وعندما كان خارجا من فندق أمية الكائن في ساحة المرجة، الذي كان يقيم فيه، فاجأه شاب من عشيرة النعيم يدعى شلاش العزو وأطلق عليه النار فأرداه قتيلا. فاشتعلت الحرب بين

العشيرتين المتخاصمتين: الحسنة والنعيم. وكادت أن تحصل أزمة كبيرة أيضا بين الكتلتين السياسيتين المتصارعتين على الحكم في المجلس النيابي بعد أن اعتقد على خطأ أن الاغتيال كان سياسيا.

- وماذا حصل؟

- أدخل شلاس العزو السجن بعد أن تم إلقاء القبض عليه. لكن عشيرة الحسنة طالبت بالدم وبالثأر لطراد الملحم، فقام عدة رجال من الحسنة بقتل زعيم عشيرة النعيم، وكان بوحمد عذاب، والد شامة، أحدهم فألقت السلطات القبض عليه وعلى مجموعة أخرى وأودعته السجن، وحكم عليه، وعلى الآخرين بالسجن لمدة عشرين سنة. وكانت عشائر البدو تكن الاحترام الكبير لطراد الملحم تقديرا لجده محمد الملحم الذي قاد عصيانا ضد السلطنة العثمانية، وجمع العشائر حوله، وأذاق الجنود الأتراك أمر العذاب في هذه البراري، ولم تتمكن جيوش الباب العالي من إلقاء القبض عليه إلا بعد طول عناء، وقد اقتيد إلى الآستانة وتم إعدامه شنقا، وقد رجز قصيدة قبيل إعدامه وهو تحت حبل المشنقة، مازالت العشائر تغنيها إلى اليوم.

- ولماذا سجن حمد عذاب؟

- عندما قتل بوحمد عذاب أحد أفراد عشيرة النعيم. تحين

أخو القتيل فرصة من شامة والتي كان يعشقها ويريد الزواج منها لكن أباها رفض تزويجها لشخص من قبيلة أخرى، ومن النعيم تحديدا. فتحين منها فرصة واغتصبها ثم هرب، فتبعه حمد عذاب وبحث عنه في كل مكان شهورا عدة، إلى أن اهتدى إلى مكانه في أحد أحياء تدمر متخفيا، فقتله هناك. وقبضت الشرطة عليه وحوكم بتهمة القتل العمد دفاعا عن الشرف. وقامت الدنيا ولم تقعد في عشيرة الحسنة وعادت الحرب من جديد حتى تدخل أسياد العشائر الأخرى، وعلى رأسهم فاعور الفاعور، ونوري الشعلان، من عشيرة الرولة لإصلاح ذات البين.

كان طراد المتعب من أوائل البدو المتعلمين. والده سحيم المتعب، أحد أعيان عشيرة الحسنة، أرسله ليتعلم في دمشق لأنه كان ابنه الوحيد، وكم تمنى أن يكون محاميا كبيرا، أو نائبا في مجلس النواب ليدافع عن أبناء العشيرة. درس طراد في مكتب عنبر، أشهر مدرسة عرفتها دمشق في تلك الفترة، ولأنها كانت من أوائل المدارس التي ظهرت في سوريا فقد انتسب إليها أولاد كبار العائلات الدمشقية، والحلبية، والحمصية، والحموية. وكان لطراد الفخر لجلوسه إلى جانب الذين باتوا فيما بعد زعماء الاستقلال، وهناك تأجج شعوره الوطني مع الذين كانت دماؤهم تغلي في

مرجل الحرية، ويقارعون الاستعمار لطرده من بلادهم. استأجر غرفة في منزل أحد التجار من أصدقاء والده في تلة السماكة، القريبة من البزورية في شارع مدحت باشا. وكان لأول مرة يقطن سكنا مبنيا من الحجارة بغرف ذات نوافذ جميلة، وباحة يتوسطها بحرة بنافورة ماء جار، وأشجار الليمون، والبرتقال، والكباد، ودوالي العنب، وزهر الياسمين على جوانبها فتحول الدار إلى قارورة عطر، وبسقف خشبي جميل وزخارف جدرانية، وأثاث فاخر، إذ أمضى صباه تحت بيت الشعر، الذي لم يكن سوى خيمة مفتوحة الأطراف على الصحراء، لا يوجد فيها من أثاث سوى بسط حيكت بأيدي النساء البدويات، ومساند ومتكآت، وكانون وأباريق القهوة النحاسية. تعلم القراءة والكتابة على أيدي أحد شيوخ القبيلة، ثم التحق بمدرسة تدمر الابتدائية.

وكان يحكي باعتزاز كيف كان يجلس إلى جانب أولاد العائلات الدمشقية العريقة مثل عائلة العظم، والقوتلي، وجبري، والمالكي، ومردم، والعشي، والحوراني، والجابري، وسواها، وكيف كانوا يتظاهرون ضد المستعمر الفرنسي، ويطالبون بالاستقلال، وكيف كان يسير في هذه المظاهرات ويردد هتافات تسقط الرئيس الشيخ تاج الدين

الحسيني المتعامل مع الاستعمار، ويهتفون للكتلة الوطنية، وللدكتور عبد الرحمن الشهبندر، الذي اغتيل فيما بعد لوطنيته. وعندما اندلعت الثورة السورية كان من أوائل المنضمين إلى الثوار، فعرف حسن الخراط، والتقى سلطان الأطرش، وتابع أخبار صالح العلي وسواهم من الثوار. في إحدى المظاهرات ألقي عليه القبض وأودع السجن وتمت محاكمته، ولكن سرعان ما أفرج عنه بعد تهديد العشيرة.

قال:

- لفرط حماستي للنضال ضد الاستعمار قررت الالتحاق بثوار الغوطة بزعامة حسن الخراط. قبل أن ألج مجاهلها كنت أسمع الكثير عنها، والدي كان يقول عنها بأنها أول رياض تعترضك في رحلة الصعود إلى الجنة. فكل ما يصفون من صفات الجنة متوفر فيها. بساط من سندس وإستبرق يتمايل كموج البحر مع كل نسمة، وبساتين من خوخ وتفاح ودراق وجوز ولوز وأعناب وزيتون وتوت وتين. وورود وأزهار وفل وياسمين. هذه المساحات من الجنان التي تلتف حول دمشق، كسوار حول معصم غانية ساحرة، تتحول إلى قارورة عطر مع كل ربيع وترسل أريجها مع الريح العابرة لحارات دمشق فتتحول المدينة كعروسة متعطرة لعروسها في ليلة عرسهما. حدودها تبدأ مع باب

شرقي، وكنيسة القديس بولص وتنتهي في العمق إلى ما بعد قرية خرابو على أول ضفاف البادية، حيث يصب نهر بردى الذي يمخر الغوطة ويروي عروقها. على ضفافه تتشابك أشجار الحور والصفصاف وتتهامس بوشوشة لغة الشجر، فتسمع حفيفها ممزوجا بزقزقة الطيور والعصافير السعيدة، الفرحة المرحة، والتي بنت على أغصانها أعشاشا آمنة.

في هذه الرياض الساحرة انطلق حسن الخراط بثورته على المستعمر، دوخ جنوده، وتوه عملاءه، وتصيد الكثير منهم حتى باتت هذه الجنة جهنم عليهم، وصارت كابوسا مرعبا على كل من دخلها. جنود الاحتلال كانوا يتحاشونها لكثرة قتلاهم فيها.

قال طراد: نزلنا قرية المليحة التي كانت أحد مراكز المقاومة، ثم انتقلنا ليلا إلى النشابية، مرورا ببالا، وقد نصبنا كمينا قرب قرية جرمانا. كان الخراط أميا لكنه كان قائدا شجاعا ومحنكا ومراوغا كالثعلب في الكر والفر. في هذا الكمين شاهدنا رتلا طويلا لجنود الاحتلال المدججين بالسلاح. وضع حسن عددا منا على أغصان شجرتي جوز على حافتي الطريق، وأوصى أن نهاجم مؤخرة الرتل، ووضع عشرة من المقاومين وراء كل شجرة على جانبي

الطريق وأمرهم بمهاجمة مقدمة الرتل لمجرد ظهوره أمامهم. وما بين المقدمة والمؤخرة زرع عدة عبوات من الديناميت بفتيل طويل قابل للاشتعال فور اندلاع المعركة. وما أن تقدم رتل الأعداء حتى فاجأناه بوابل من الرصاص والديناميت فقتلنا من قتلنا، وأسرنا من أسرنا، على صيحات الثوار بصوت واحد: الله أكبر. فصاح كل رجال البدو في الخيمة: الله أكبر.

ذات مساء روى لنا كيف ذهب لأول مرة في حياته إلى الحمام العمومي، فقال: إن ابن الحفار جاءه في الأسبوع الأول من دخوله مكتب عنبر وسأله إن كان يرغب في مرافقته إلى حمام الناصري، القريب من مكتب عنبر. فأجابه أنه لم يدخل مثل هذه الأمكنة قط. والمرات القليلة التي اغتسل فيها كانت في مناسبات معينة وكانت في طست تحت الخيمة. ومع إلحاح صديقه وافق مرافقته ولكن بكثير من التردد.

قال:

- عندما دخلت الحمام مع زميلي وضع كل منا مئزرا حول خصره، ودخلنا مقصورة حامية الفضاء، ينبعث من أرضها بخار كثيف، حسبت وكأنني على أبواب جهنم، وقد ضاق صدري، وشعرت بغثيان، فجاؤوني بعصير الليمون،

وسكبوا على رأسي طاس ماء بارد حتى استعدت شيئا من وعيي. ولما هممت بالهروب من هذا الجحيم دفعوني دفعا إلى داخل الحمام مرة أخرى، وقالوا لي إن هذا الغثيان يشبه إلى حد بعيد غثيان دوار البحر للذين لم يتعودوا خوض غمار البحر، ولا يصابون به سوى المرة الأولى، ثم يصبح الأمر عاديا. وعندما أرغمني خجلي على العودة إلى هذه الجهنم، قدم إلى الأمام وأخرى إلى الخلف، استلمني شخص بدين، قوي العضلات، وراح يضع الماء الساخن على جسدي ويغسل رأسي بالصابون، ثم أدخل كفه بشيء يشبه القفاز، ثم طفق يفرك جلدي فركا بحركات تدليكية، وما هي إلا دقائق حتى قشر جلدي قشرا. ثم التفت إلي وقال:

- لم أر في حياتي وسخا يخرج من جسد كهذا الوسخ.

نظر إلي باستغراب وسألني قائلا:

- منذ متى لم تغتسل؟ ثم تابع بقوله: يجب أن تدفع لي أجرا مضاعفا.

تابع متعب بالقول:

- لقد خرجت من الحمام خفيفا وكأن أمي قد ولدتني لتوها. وقد شعرت أن وزني قد خس بمقدار وزن الأوساخ التي أزيلت عنه. ومنذئذ بت أذهب إلى الحمام أسبوعيا

لأشعر بنعيم النظافة، ولم أنقطع عنه إلى الآن فكلما سنحت لي فرصة السفر إلى دمشق فإن أول وجهة أتوجه إليها هي حمام الناصري.

ضحك الجمع في المضافة حتى أن خريوش قال:

- لو أني ذهبت إلى حمام الناصري اليوم، يا طويل العمر، لخس وزني أكثر مما خس وزنك بكثير، ولطلب مني أن أدفع الأجر أربعة أضعاف.

ضحك متعب وطلب فنجان قهوة مرة ثم قال: أيها الربع القصة لم تنته هنا، عندما خرجت من الحمام وضعوا على رأسي منشفة نظيفة معطرة، ولفوا جسدي بمنشفتين كبيرتين، ثم أجلسوني على مصطبة وجلبوا لي كأس شاي ساخنة، وكانوا يضحكون ويتغامزون. ثم أطلقوا ألسنتهم للتنكيت والتبكيت، أحدهم قال بصوت عال:

- اسمعوا يا شباب. ذات مرة مر بدوي يزور المدينة لأول مرة ببائع الحلويات الشامية، فأعجب لمنظرها ورائحتها الزكية، فسأل بائع الحلويات أن يعطيه قطعة منها، فأعطاه قطعة من الكنافة، وبعد أن أكلها واستطيبها، سأله بائع الحلويات قائلا: هل تعرف ما اسمها. أجابه البدوي: لا أدري حقيقة ولكن جدي قال لأبي، وأبي قال لي: إن الحمام نعيم الدنيا. أليست هي الحمام؟

ضحك الجميع وتعالت القهقهة في الحمام، وشعرت بأنهم يهزؤون بي، فما كان مني إلا أن وقفت ووجهت له لكمة، ثم ألحقتها بلطمة، ثم بلبطة، فأنجده أحدهم فرماني بقبقاب ففجم رأسي، وهب ابن الحفار لنجدتي فرماه بقبقاب آخر فأصاب عينه، ودخل آخرون في المعركة، وحمي الوطيس، فكان نصيب ابن الحفار طاس في رأسه، أسال الدم على وجهه، ولم أعد أرى سوى القباقيب تتطاير في كل مكان، وسقطت المناشف والمآزر عن أجساد المتعاركين، وبانت عوراتهم تتأرجح في الهواء كأجراس دون قرع، فتدخل صاحب الحمام، ورجال آخرون سريعا لفض النزاع وتضميد الجراح. وبعد أخذ ورد خرجنا من الحمام متورمي الوجهين، وراح ابن الحفار يلعن الساعة التي استضافني بها إلى الحمام.

قلت معقبا:

- كنت دائم الاختلاف إلى الحمام صغيرا عندما كانت أمي تصطحبني معها، وكانت المرة الأخيرة عندما نظرت النساء إلي وزعقن ثم ولولن لرؤيتهن انتصابي، وقلن لأمي إني لم أعد طفلا. فردت أمي متهكمة:

- لقد استفاق في أعماقه نداء الطبيعة، وفض بكارة طفولته، وهي رغبة لا إرادية تنبع من الأحشاء، ولا داعي لكل هذه

الجلبة. ثم إن واحدتكن كم تسعد به في حالته هذه، فلماذا كل هذه المراءاة، وولدي ورث فحولته عن أبيه رحمه الله، وهذا فخر العائلة. وبعد أخذ وردّ وجدل طويل، طردت من الحمام بعد أن قررن بأن عهد طفولتي قد ولى، ووضعت أول خطوة في عهد الرجولة، ومنذئذ لم أر إمرأة عارية إلا في الأحلام والصور الفوتوغرفية. فضحك الجميع وانفض المجلس.

ذات ليلة أخرى سمعته يتحدث أيضا عن أيامه الدمشقية فقال:

- في شارع يتفرع من شارع مدحت باشا الطويل، الذي يصل باب شرقي بباب الجابية، تصطف حوانيت النجارين المختصين في الحفر على الخشب، وصنع قطع الأثاث المنزلي البديع المعشق بالصدف اللامع. كان يطيل الوقوف أمامها يراقب هؤلاء الحرفيين وهم يحفرون بدقة متناهية هذا الأثاث. كان يتساءل إذا كان بإمكانه أن يضع قطعة من هذا الأثاث في خيمته. ثم يقلع عن هذه الفكرة سريعا، إذ كيف سيتم نقل مثل هذه القطع الثقيلة الوزن، الكبيرة الحجم، من مكان إلى آخر في الحل والترحال، وأي ناقة ستحملها. ثم إن العشيرة ستنتقده انتقادا لاذعا. فهم يجلسون على الأرض ولن يشعروا بالراحة إذا جلسوا عليها. على أية حال، لا تتماشى وحياة الصحراء البسيطة، فمثل هذه القطع خليقة

أن توضع في منازل واسعة كي تقدر قيمتها وجمالها، فهي تصلح للبيوت الدمشقية العريقة.

على بعد أمتار معدودة، يقع مسجد كبير على مفترق طرق، أحدها طريق ضيقة تفضي إلى قصر العظم، في منتصف هذه الطريق التي كان يسلكها كل يوم ليصل إلى المسجد الأموي، كان يقف عند محلات الغراوي ليشتري حلوى النوكا، والفواكه المجففة اللذيذة. في المسجد الأموي كان يستند إلى عمود، مقابل مقام النبي يحيى يستمع إلى دروس الشيخ المنجد. بعد خروجه من المسجد الأموي، كان يمشي في سوق الحميدية، ليصل إلى محلات بكداش ليأكل المثلجات النادرة المذاق، والتي لا أحد يتقنها، ويعرف سر صنعتها سوى صانعيها. ثم يعود إلى النوفرة الكائنة في حي العمارة خلف المسجد، ليشرب كأس شاي عجميا، ويدخن النرجيلة، ويستمع إلى أحاديث الحكواتي، ويتفاعل مع قصص عنترة بن شداد، والزير سالم، والظاهر بيبرس، وتغريبة بني هلال.

في جلساته كان يحكي هذه القصص بكثير من الحنين ثم يقول:

- إن حياة الحضر لا تشبه حياة البدو في شيء.

التحدي الأكبر بالنسبة إليه كان، كيف يمكن التخلي عن لباسه التقليدي، الجلابة والكوفيه والعقال، وخاصة الخنجر المشدود على خصره، فكل الطلاب يرتدون في مدرسة مكتب عنبر بزات أوربية، وقمصان، وربطات عنق.

قال:

- كنت أستهزئ بهم وأقول عن ربطة العنق التي يلبسونها إنها كرسن الدواب، ولكن مدير المدرسة طلب مني أن ألتزم بلباس المدرسة الأوربي، وأضع على رأسي طربوشا أحمر، وأن أخلع لباس البداوة، وأن أتخلى عن الخنجر. وإلا سأطرد من المدرسة.

قال : قلت له على الفور: طراد لا يطرد.

تابع طراد قائلا: إني في تلك اللحظة كان أهون علي خلع ضرسي من خلع ملابس البدو، ولكني انصعت أخيرا للأمر الواقع لأني كنت راغبا بشدة أن أكمل تعليمي، فاشتريت بزة من سوق الحميدية، وقمصانا، وعندما لبستها ونظرت إلى نفسي في المرآة حسبت أني شخص آخر، وعندما تمعنت في هيئتي ضحكت على نفسي، ولم أستطع المشي بشكل عادي، إذ بت أمشي مشية الغراب، أو مشية من بال في سرواله، لكني اعتدت عليها فيما بعد، ماعدا ربطة العنق التي كنت أمقتها مقتا شديدا، ولم أتعلم أن أعقدها

أبدا. وبقيت مشكلة الشعر الطويل، فأنا كباقي رجال البدو لا نعرف الحلاق. إذ كان شعري عقائص وجدايل وغدائر تغطيه الكوفية، ولو أني قصدت حانوت الحلاق لرفض أن يقص لي هذا الشعر الذي لم يعصف به المقص منذ سنين الطفولة، فهممت أن أقصه بنفسي، وما أن أتممت حتى بات رأسي كرأس الأجرب. فلم يكن من زيارة حانوت الحلاق مهرب، وعندما رآني قال: أي عاصفة عصفت برأسك، أم أن أحدا قص شعرك قضما بأسنانه. بيد أن المفاجأة الكبيرة كانت لوالدي عندما زارني للمرة الأولى ليطمئن على أحوالي. فما أن خرجت من باب المدرسة وتوجهت صوبه أقبل يده. حتى نظر إلي بدهشة كبيرة وقال:

- هل أنت أنت؟ طراد بن سحيم المتعب؟

- نعم، أنا أنا طراد بن سحيم المتعب المتمدن. وانفجرنا بالضحك.

9

المكان دافئ. يد ساخنة تلمس جبيني. فتحت عيني على الدنيا. انصبت عيناها في عيني. الألم تذكرني. وخزني في فخذي وذراعي. حاولت النهوض. قالت: لا تنهض.

في فراش يحيط به رواق، وغطاء صوفي سميك شعرت بارتياح كبير. أطراف السماء البعيدة رسمت حدود الأفق. هذه المرة صحت الشمس قبلي وارتفعت في السماء دون أن أشعر.

قالت:

- حرارتك ارتفعت ليلا، لكنك الآن تبدو أفضل حالا. ثم اعتذرت مرة أخرى بقولها:

- كان علي أن أسرع قبل أن تعضك كلابي.

أجبت سريعا:

- لا تقلقي فلا بأس علي الآن فربما لحكمة ما عضتني كلابك.

الكلبان اللذان غرسا أنيابهما في عضدي بالأمس، جاءا يجريان نحوي يتمسحان بي، كعادة الكلاب، لأني أصبحت قريبا من أهل البيت. نهرتهما شامة بعنف فعادا سريعا إلى مكانهما ينظران إلينا وهي تتفقد جرحي.

كنت أنظر إليها وأكاد لا أصدق عيني. جمالها البدوي دون تبرج يأسرك، يجعلك تطيل النظر إليها دون شعور منك. كنت تواقا لضمها إلى صدري، وتقبيل شفتيها حتى الارتواء. كنت أشعر بيديها وهي تمسك بذراعي العارية بلذة كبيرة. لم أكن أجرؤ على لمسهما. وبعفوية واضحة وضعت كفها على خدي برفق، بعد أن انتهت من تضميد الجرح، وقالت:

- غدا ستكون أفضل بكثير. أبق هنا معنا، سنعتني بك أكثر، وغدا تعود إلى ربعك.

لم أقو على رفض عرضها. بل أني كنت متمنيا أن تطلب مني ذلك. وشعرت بسعادة كبيرة لأني سأكون بجانبها ليوم آخر.

جلبت عسا يحوي حليب ناقة طازج، ورغيفا ساخنا وقالت:

- كل واشرب واسترح، وأنا سأسرح بالقطيع وأعود مساء.

عندما عاد القطيع كانت السماء حمراء الشفاه، كامرأة تتزين لتستسلم في فراش الليل. شامة تتقدم بخطواتها الرزينة، كعروسة في ليلة زفافها، تنظر إلي من بعد. وأنا أنظر إليها بشغف كبير. لغة العيون في بعض المواضع أبلغ من أي كلام. نظرة واحدة تختصر كل شيء.

- كيف حالك الآن؟ قالتها برفق. وبعينين كعنوانين كبيرين في صحيفة عربية، تقرأهما بومضة وتعرف كل الخبر. قرأت في أعماقهما وكأنها كانت سعيدة بوجودي هنا. ربما كنت مخطئا فأنا لا أفهم النساء كثيرا. ولكن هكذا كان يهيّأ لي.

قلت :

- مازال الجرح يؤلمني.

ردت بشيء من التوسل :

- لا تتحرك. أبق هنا. صمتت قليلا ثم قالت :

- أخاف على جرحك، لن أدعك ترحل قبل أن يبرأ الجرح.

الطعام لذيذ. النار ترقص على الحطب. رائحة القهوة الساخنة تدغدغ الأنف. القمر فوق الخيمة. شامة قبالتي ترفو ثوبا. بعد صمت قصير توجهت إلي بأسئلة كثيرة:

- من أنت؟

- من أين أتيت؟

- ماذا تعمل؟
- لماذا جئت؟
- كم عمرك؟
- أمتزوج أنت أم أعزب؟

- أنا أنا. مالك حصيرة، من قرية منسية على هضاب جرداء هجرها البشر، والماء، والشجر منذ زمن. صارت بيوتا للأرامل، والثكالى، والعوانس، والعجز، والأشباح.
- طالب متخرج من كلية الآداب.
- جئت بحثا عن عمل.
- عمري لا أعرفه تحديدا. أمي قالت لي:
- ولدت يا ولدي أيام حرب النكبة، ولهذا لم أحتفل يوما بعيد ميلادي، على أية حال، أهناك من يحتفل بعيد ميلاد حياة ملؤها البؤس والشقاء؟
- بؤسي لم يدع لي فرصة للزواج. المرأة في بلادنا باتت بعيدة المنال في ظل المتطلبات العديدة للحياة فباتت الرحلة السياحية إلى القمر في مركبة فضائية أرخص من الاقتران بامرأة.

صمتت قليلا ثم سألت؟
- أين هو والدك؟
- ماذا يعمل؟

- وأين هي والدتك؟
- ماذا تعمل؟
- هل لك أخوة أو أخوات؟

ثم تابعت بقولها : قص علينا سيرتك فإننا تواقتان لسماعها.

قلت : عندما بدأ وعيي يكتمل إلا قليلا، وانفتحت عيناي على الدنيا لم أجد لي أبا، وعندما كنت أسأل أمي عنه كانت تقول لي:

- إنه في السماء، في الجنة.

كنت أنظر إلى السماء علني أراه يوما، لكني كنت أصاب دائما بخيبة أمل. عندما صرت صبيا لم أعد أصدق قصة السماء، جئتها يوما وسألتها كيف مات أبي.

قالت : كان والدك يقاوم الأعداء في فرقة الزعيم عدنان المالكي في فلسطين، كان مرابضا على تل يشرف على مستعمرة مشمار هايردين، الذي سمي فيما بعد بتل المالكي.

سألت شامة :

- ومن هو عدنان المالكي ؟

أجبت :

- ضابط من ضباط سوريا، أصبح فيما بعد وزيرا للدفاع، وتم اغتياله في الملعب البلدي في دمشق في بداية الخمسينات.

- قالت وضحة أم شامة :

- كذلك فعلوا بطراد الملحم.

استطردت قائلا :

- قالت أمي جاءني الطلق مع أخبار حزينة. محبطة. مؤلمة. مفجعة.

في البدء كانت تأتينا أخبار مفرحة عن مدى تقدم قواتنا. والدك يا بني أرسل لنا رسالة يقول فيها :

- نحن في الجليل، وقريبا سنتوجه إلى تل الربيع. ينقصنا الزاد والعتاد. لكن وعدونا بمدد قريب.

بعدها توالت يا بني أخبار الهزائم. البعض كان يقول : إنها خيانات الزعامات العربية، والبعض الآخر يقول : إنها الأسلحة الفاسدة، وهناك من قال : إنها مؤامرة دولية اشترك فيها الجميع ،عرب، وعجم، وفرنجة.

كانت شامة تنصت إلي بشغف شديد. كانت تراقبني باهتمام. عندما صمت قليلا لأتناول فنجان القهوة قالت لي بلهفة :

- أكمل حديثك.

قلت:

- المسألة باتت حزينة جدا فيما بعد. وليس الوقت وقت أحزان.

أجابت:

- إني متلهفة لسماع كل شيء.

تابعت بالقول:

- ثم وصل الخبر الفاجعة. دماء أبي روت تراب الجليل. نفدت ذخيرته وهو يقاتل الأعداء المدججين بأفضل أنواع الأسلحة. لم يستسلم بل التحم معهم بالسلاح الأبيض، فطعنه أحد الأعداء من الخلف، ووجه له آخر رصاصات قاتلة. هذا ما رواه لنا صديق له نجا من القتل. عادوا ببندقية أبي، ورائحة البارود مازالت على فوهتها، كنت كلما رأيتها أتصور أبي كيف كان يتنكبها ويصوب فوهتها باتجاه الأعداء، وكيف سقطت من يده بعد اختراق الرصاص جسده من الخلف. أخذت أمي البندقية وعلقتها على الجدار إلى جانب صورة والدي وهي تبكي بمرارة. هذه البندقية كانت فخر العائلة. وكل ما تبقى لنا من ذكراه. بندقية أكلها الصدأ، وباتت سبطانتها ملجأ للعناكب من تعب السنين وهي معلقة من حزامها كالمشنوق. ورغم ذلك، كانت أمي

ترى فيها والدي. كانت تصلي كل صباح وتتوجه بدعاء إلى الله أن يسكنه جنانه الفسيحة، وأن يجد مكانا لها إلى جانبه بعد عمر طويل.

داعبتها مرة متوجها إليها بسؤال:

- كيف تطلبين من الله أن يجد مكانا لك إلى جانب والدي في الجنة؟

نظرت إلي مندهشة من قسوة السؤال وأجابت بحدة واضحة وبصوت مرتفع:

- وما ضر ذلك؟

أجبت ضاحكا:

- لأن الله سيغريه عنك بالحور الحسان، وأنت ستأكلك الغيرة.

ومنذ ذلك اليوم أضافت جملة في دعائها: اللهم اغمده برحمتك، واسكنه فسيح جنانك، وابعد عنه الحور الحسان.

أجابت على الفور:

- كم كنت أتمنى أن أموت إلى جانبه في الخندق ذاته، ليس للدفاع عن الوطن فحسب، بل لأصعد معه إلى السماء وأحميه من الحور الحسان.

ضحكت شامة، وقهقهت وضحة كثيرا ثم قالت:

- لا بد أن الله فكر في النساء أيضا، وسيجعل لهن في الجنة رجالا يخلبون العقول حسنا وجمالا وفحولة.

ردت عليها شامة قائلة:

- بالله عليك يا أمي دعيه يكمل سيرته ما لنا وما للرجال والفحول الآن. ألأنك تفتقدين والدي تتشوقين دائما للحديث عن الفحول.

تابعت بالقول:

- فيما بعد تفشت الفضائح والشائعات. وراحوا يتحدثون عن خيانات الزعامات العربية، عن أسلحة فاسدة، عن بيع أراض للعدو، عن اتفاقات سرية بين العدو والزعامات العربية، عن عمليات تهجير قسرية، عن مجازر، وكلها اندرجت تحت مقولة :

- صدق أو لا تصدق.

أمي كانت تقول دائما:

- لقد ولدت يا ولدي في عام الشؤم، هذا الشؤم الذي سيبقى ملازما العرب حتى يحرروا أنفسهم من جلاديهم.

هذه الفاجعة لم تكن الفاجعة الأخيرة. الوقت كان فقرا وبؤسا وضيق ذات اليد جعل والدتي تعمل ليلا نهارا كي تعيل ولديها. كانت تقول لي دائما:

- تعلم يا ولدي تعلم. أريدك أن تحب الكتاب كما تحبني.

وتردد دائما على مسمعي بيتا حفظته عن ظهر قلب منذ أن نالت شهادتها الابتدائية التي تفتخر بها كثيرا. والمعلقة على الجدار تأكلها الغبار:

العلم يبني بيوتا لا عماد لها

والجهل يهدم بيوت العز والكرم

كانت بالنسبة لي مثال التضحية. سنوات الطفولة الأليمة مرت بصعوبة كسحاب سجين في سماء لا تمطر. كمحنة شجرة نصبوها عنوة على رصيف إسمنتي في مدينة خليجية. كمأساة عصفور نبت ريشه في عش عربي تلاحقه حجارة الأولاد، ورصاص الصيادين أينما حل.

ابتسمت شامة وقالت:

- هل أنت شاعر

أجبت:

- لو كنت شاعرا لكانت محنتي أشد وطأة.

- لماذا؟

- شعراء وكتاب وصحافيو هذا الزمان لا يستطيعون أكل خبزهم اليومي إذا لم يمدحوا صاحب العظمة فلان، وصاحب الفخامة علان، أو أنهم يمتهنون التبجيل، والتبخير لهذا النظام أو ذاك. وخبراتي في المديح والتبجيل والتبخير ضحلة جدا. حتى لو أجبرت نفسي فإني لا أجد الكلمات.

فمثل هذه المفردات تحتاج لأناس متخصصين، ومتمرسين على الدجل.

نظرت إليها وقلت:

- أنا سعيد أني جعلت الابتسامة ترتسم على وجهك بقصصي المحزنة.

قالت:

- قصصك تعجبني وأنا أتابعها باهتمام.

ظهر على ثغرها ابتسامة وديعة، ثم نظرت إلي نظرة إعجاب ثم سألت:

- ماذا حل بك فيما بعد؟

أجبت:

- أخذت بقول أمي وعاهدت نفسي أن أتعلم لأنقذها من براثن الفقر. لكن حساباتي لم تطابق حسابات القدر الذي كان يخطط بسرية تامة ما لم نشته. كنا نركض وراء الرغيف، والرغيف يركض أمامنا، كمعظم الناس، كأننا في سباق، من سيكون أسرع من منافسه. في النهاية تغلب الرغيف في السباق وتوج بطلا في هذه البلاد.

كان التأثر قد بدا على وجهي، وهذه الذكريات جعلتني أتحدث مع غصة ألم في الأحداق. تنبهت إلى تأثري فصبت

لي فنجان قهوة مرة أخرى ثم قالت وهي تضع يدها بحنان على كتفي:

- هون عليك. وماذا بعد؟

قلت:

- تقدمت بي السنون. كنت أنضج مبكرا كفاكهة تنضج قبل الأوان. فسجناء الفاقة والبؤس ينضجون قبل غيرهم جراء محنة الزمن المسلطة عليهم كالسيف. أخي الأكبر الذي هجر المدرسة مرغما ليعمل كأجير نجار بأجر لا يطعم صوصين، استدعي للخدمة العسكرية في وقت كانت البلاد تغلي على مرجل تهديدات العدو، والردود النارية لزعمائنا الأشاوس. كان حزيران أكثر حرارة ذاك العام. إذاعاتنا، وتلفزيوناتنا، وصحافتنا، كلها جيشت. فما كنا نسمع سوى الخطابات الملتهبة، والأغاني الحماسية. كانوا يقولون لنا: هذه المرة لن تكون كسابقاتها. فالمؤمن لا يلدغ من جحر أكثر من مرة. لأنه يتعلم الدرس من المرة الأولى. فإذا خسر معركة. ولم يخسر الحرب، فإنه يعد للأعداء ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل، ولن يدع للعدو فرصة أخرى للنصر. اكتظت البلاد بالخنادق تحضيرا لمعارك الشوارع، إنها حرب تحريرية شعبية على الطريقة الفيتنامية كما كانوا يصفون، الصور في كل مكان للقائد، ولافتات تمجد وتبجل القائد

الملهم الذي لم تلده إمرأة. شاشة التلفزيون الوطني تبث صورا لمغاويرنا وهي تأكل الأفاعي أثناء تدريبها، ويقفزون بالمظلات، ويتسلقون الحبال، ويزحفون تحت أسلاك شائكة، ويجتازون خطوط النار، بما يطمئن النفوس بأنهم في أول ملحمة سيلقنون العدو درسا لن ينساه. حزيران ازداد حرارة في الخامس منه. أذكر أنها كانت فترة امتحانات، وجيوشنا الباسلة على الجبهات، وأخي البكر يأخذ مكانه في أحد الخنادق على مشارف قرية فيق في الجبهة السورية في الجولان بعد أن سيق إلى الجندية. والدتي كانت متوجسة. رأيتها، قبل يومين من الحرب، شاحبة الوجه.

سألتها:

- ما بالك؟

أجابت:

- يا بني، شيء ما في خلدي يحدثني وينبئني بنذير شؤم.

سألتها بقلق شديد:

- وما الذي يجعلك تشعرين بذلك؟

قالت:

- إنها الحاسة السابعة عندي.

تعوذت من الشيطان لأن حاسة أمي السابعة كانت قلما تخطئ.

تابعت أمي بالقول وهي تسمع الخطابات الحماسية التي يتقيؤها المذياع:

- إنهم كاذبون، إنهم منافقون، هذه غوغاء. هذه جعجعة نسمعها، ويا ليتنا نرى طحنا. لم يتغير شيء. كأن التاريخ يعيد نفسه. دم الشهداء سيذهب رخيصا كدم أبيك.

صمتت قليلا ثم قالت بحزن ثقيل:

- للانتصار ضريبة دم ندفعها سعداء بسخاء. ولكن للهزيمة المخزية، ضريبة دم لا تبرر. خاصة إذا كانت الهزيمة من صنع أيدينا، وبسبب خياناتنا. خوفي على أخيك يا بني، وعلى شبابنا الذين سيكونون لحما طريا أمام فوهات المدافع، وتحت رحمة قصف الطائرات.

حاسة أمي لم تخطئ. في اليوم الأول، الأخبار السيئة جاءتنا سريعا منذ الساعات الأولى. العدو سجل انتصارا ساحقا على الجيوش العربية من الجولة الأولى بالضربة القاضية. هذه الأخبار كانت تأتينا من الإذاعات الأجنبية التي كانت تكذبها إذاعاتنا. بل إنها كانت تدعي النصر. كنا نسمع أن جيوشنا الباسلة كانت تسقط الطائرات كمن يسقط الذباب بمبيدات حشرية. لكن أكاذيب من هذا الحجم لم تصمد طويلا. الحقيقة الفاقعة كانت أن جيوشا عرمرما، لم تصمد جولة واحدة. بل إن جيوشنا الجرارة

جرت ذيول الخيبة، وعادت مشيا على الأقدام بعد أن تلقت الأمر بالانسحاب طوعيا من ساحات القتال بحجة أن العدو بات في منزلنا المحصن طبيعيا وعسكريا، ولم يكن بعد قد اخترق حدودنا. كأنما أخلي له المكان ليحتله دون عناء.

صمت قليلا ثم تابعت قائلا:

- كأن زعماؤنا الأشاوس يقولون: ناموا وتناكحوا وانتجوا لنا لحوما بشرية، اسهروا الليالي، وابذلوا أموالكم، وافنوا أعماركم في تنشئتهم، ونحن نأخذهم لحما جاهزا لفوهات المدافع والبنادق، وإذا اكتشفنا يوما أن لهم فما يتكلم ولسانا ينتقد، قطعنا ألسنتهم، وكممنا أفواههم، وطحنا لحمهم ورميناه للكلاب.

ثم رددت ما قاله يوسف العظمة:

- « وجد الجيش ليقاتل حتى ولو كانت نتيجة المعركة ضده ».

صمت قليلا وقد بدا علي التأثر ثم استطردت قائلا:

- عندما عدت إلى المنزل وجدت أمي تبكي بصمت، بكاء غزيرا ومرا. وبقيت تبكي حتى جاءنا الخبر الذي جلب معه سكتة لقلبها المعذب.

قلت:

- رغم أن أمي كانت شبه متعلمة إلا أن تجارب الحياة صقلت رؤيتها وتقويمها للأحداث، بالإضافة إلى حاستها السابعة. إذ لم يعد أخي من الحرب، حتى لم نجد له جثة. وسجل في عداد المفقودين.

كانت تحبه وترى فيه والدي الذي كانت تعشقه. حتى عندما كان يقترف ذنبا ما، كانت معه رؤوفة ومسامحة. أذكر أن قطة كانت تتردد علينا لأن أمي كانت تحبها وتطعمها. وكان أخي يحب تعذيبها ويزهق روحا بعد آخر من أرواحها السبعة، فتأتي أمي على موائها ولم يتبق لها سوى الروح السابعة فتحررها من بين يديه وتنهره بلطف. وعندما بات شابا كانت تحضر له زوادة الطعام كي يأخذها معه إلى عمله في حانوت النجار، وتنتظر أوبته وقد حضرت له العشاء وتقول له:

- أنت الآن رجل العائلة، وقريبا سنبحث لك عن عروسة جميلة. بعد مدة جاؤونا بمقتنياته التي تركها في ثكنته، قبل الاستشهاد، بعض الملابس، ودراهم معدودات، ومن خندقه أتوا ببندقيته. أخذت أمي البندقية وعلقتها إلى جانب بندقية والدي وهي تبكي ثم التفتت إلي وقالت:

- أسأل الله أن لا تكون بندقيتك التي سأعلقها في حرب خاسرة أخرى مقبلة، فالعرب لا يجيدون إلا المعارك

الخاسرة. لقد دفعنا ما يكفي من ضريبة الدم من أجل ترابنا الذي ندافع عنه بأرواحنا، وأرواح أولادنا، وهم يساومون عليه ليبقوا في سلطانهم. رحم الله جدك الذي قال:

خرج العرب من التاريخ، تاريخهم يكتب لهم في العواصم المهيمنة عليهم. والويل لمن يتجرأ منهم أن يقول لا. ثم انفجرت بالبكاء وراحت تصرخ عاليا قائلة:

الكل، خانعون، خائنون، كاذبون، لا يقوون إلا على بعضهم البعض. يعيدون سيرة القبائل الأولى ولكن الآن باسم دول. ويعطون أنفسهم ألقابا كبيرة في غير موضعها. جدك الذي قاوم الاستعمار طويلا مع كل الرجال الشرفاء في هذه الوطن كان يقول:

باتت أنظمة الاستقلال أشد وطأة على قلوبنا من وطأة الاستعمار.

لقد ماتت والدتي كمدا، وقهرا على زوجها، وعلى فلذة كبدها. في ذاك الصباح الأسود ناديتها فلم تجب، ثم ناديت ثانية، فلم تجب. دخلت غرفتها فوجدتها هامدة لا حراك بها، وعيناها مفتوحتان تنظران إلى البندقيتين والصورتين المعلقتين على الجدار. وهكذا، بت وحيدا في هذه الحياة، أجر معي ذكريات أليمة سببتها الحروب العربية الخاسرة. لقد باتت بلادنا مؤسسة اجتماعية كبيرة

مختصة في إنتاج المآسي، والألام، والقهر، والجوع المجبول بالذل.

نظرت إلى عيني شامة. رأيت دمعة، كانت حبيسة كل الوقت، تتدحرج على خدها الناصع.

قلت:

- لله درك، كفي عن البكاء، لعن الله الحزن، لم آت هنا لأبكيك.

قالت:

- لا بأس علي. لم أكن ألم بكل هذا فقد كنت صغيرة في ذاك الوقت، وفي هذه البادية نحن نعيش في عزلة عن العالم. وأنا سعيدة بسماع قصتك. فلا مذياع، ولا تلفزيون، ولا صحيفة، كنت أسمع فقط أحاديث والدي الذي كان كأمك حانقا، غاضبا على ما جرى، لكنني لم أكن أدرك هول ما حدث. صمتت قليلا ثم سألتني بترقب واضح:

- ومتى ستعود إلى بلدك؟

أجبت:

- لا أعرف.

قالت:

- أبق هنا إذا أردت فهذه البادية تتسع الجميع.

سرقت النظر مرة أخرى إلى عينيها النجلاوين. بلونهما كلون البن المشوي. وأنفها الدقيق المستقيم الذي تدلى منه قرط ذهبي صغير. جمال الأنف طغى على روعة القرط. انتبهت إلى نظراتي. كسرت جفنيها وكأنها كانت راغبة في حجب سحرهما بعد فوات الأوان. شعرت بخفقان شديد في قلبي وبرعشة في جسدي.

قلت في نفسي:

- أهذه علامات الحب الأولى؟ أم هكذا تقول الكتب فقط.

حاولت إخفاءها. لكنها كانت أسرع إلى اكتشاف أمري. حرارة شديدة مفاجئة عمت جسدي، واحمرار فاضح في وجنتي. نظرت إلي بطرف عينيها. تبسمت قليلا، وكأنها تيقنت أن سحر عينيها تيمني، ثم حولت نظرها وراحت ترفو ثوبا.

كنت أود أن أقول لها إن عينيها جزيرتا كستناء في محيط ثلجي. وأن وجهها تفاحة عاج بلون وردي. وأن قوامها يثير البركان الخامد في جسدي. لكن لساني لم يكن يقوى على الكلام. وكأنه حقن بمخدر. كم حنقت على أليس في نفسي لأنه لم يعلمني كيف أتصرف مع النساء في مثل هكذا مواقف. إلا أني تذكرت أن أليس لم يكن يوما رومانسيا. بل إنه كان يبحث دائما عن مغامرات عابرة

وسطحية وكأنه كان يعتبرها انتصارا لذكوريته على انثوية النساء اللائي يضاجعهن. أو كأنه يأخذ منهن ثأرا، أو يريد أن ينتزع ممن كان يحدثهم عن مغامراته اعترافا بفحولته. أما أنا فكنت أبحث عن حب يحرك أعماقي. يزرع في دربي الشوك تحت قدمي. فالدرب ليس دربا إلا إذا سلكته، ودرب الحب درب شائك. درب يقذف بقلبي إلى الجحيم. فكيف يمكن أن نتعرف على الجحيم إذا لم نصل بسعيره. حب يجعلني أنسى النوم والطعام. يحول جسدي الممتلئ إلى هيكل عظمي يغطيه الجلد كالمومياءات الفرعونية. يدفعني إلى بكاء مر، وإلى حد التوسل إلى كل الآلهة والأنبياء أن يجمعوني بحبيبتي إلى الأبد. إلى أن تهيل على نعشي التراب بأناملها. بل إلى أن ألقاها في حياة أخرى، إذا كان هناك حياة أخرى. أمام حضرتها كنت أشعر، في كل مرة، أني بوزن ريشة صغيرة تتمايل مع النسمات. كم كنت أتمنى أن ألصق شفتي بخدها، بل بشفتيها أمتص رحيقهما كنحلة نهمة تخشى فقدان الربيع . بل بنهديها المترجرجين كرمانتين ناضجتين منفلقتين في أوائل الخريف. بل لماذا لا أجذبها إلى صدري وأقبل عنقها وأشعر بلقاء الجسد بالجسد، والسعير بالسعير، والروح بالروح. هل هي رغبة جنسية حيوانية جامحة، أم أنه الحب الجارف، العاطفة المتأججة في

الشرايين؟ هكذا كنت أسائل نفسي. ربما الاثنان معا. الحب والجنس. وهل يكتمل الحب بدون الجنس؟ وأسائل نفسي المعذبة مرة أخرى،

- ولكن كيف ستكون ردة فعلها؟
- هل ستتقبل جرأتي؟
- أم أنها ستصدني وتعنفني وتتذكر حالة اغتصابها فتقول:
- كل الرجال سواسية.
- وهل من الشهامة أن أعتدي على حرمتها ؟

كنت أشعر أحيانا كأن قبضة فولاذية تطبق على قلبي، فينتابني ضيق شديد في التنفس، وبعرق يتفصد من جبيني. وأقول في نفسي:

- ما أجمل أن تكون عاشقا، وما أصعب أن تكون عاشقا؟

الزمن انساب كالماء بين الأصابع. القمر انزلق على حدبة القبة الكونية. بات كعين السماء الساهرة على خيمتنا. في الموقد النار خمدت. الأم أضرمتها من جديد. رقائق من عجين وضعتها تنضج على الصاج. رائحة الخبز الساخن تمخر الأنف.

- تعال وخذ رغيفا بالقشدة والدبس. قالتها شامة بشيء من التودد.

أخذته من يدها. وأنا أنظر إلى شعرها الأسود الفاحم المرتمي على الكتفين، وقطع النقد الذهبية. المرصوفة على غرتها وخلاخلها في معصميها التي تصدر رنينا جميلا كلما حركتها. هذا الرنين مازال في مسمعي كموسيقى أتلذذ بها. أعدت النظر إلى عينيها الكستنائيتين. وكم وددت تقبيلهما. تمنيت أن ألمس شعرها. أن أمسك يدها. أن أقبلها إلى حد الارتواء. ولم لا. إنها امرأة في نهاية الأمر ككل النساء. وأنا رجل ككل الرجال. هي ربما تواقة إلي، كما أنا تواق إليها. لقد وقعت أسير صفاء نفسها، ونقاء سريرتها، وعطرها البدوي من المسك والعود والعنبر. ذاك المساء كانت كل نجوم السماء في كفة، وعيناها اللتان تشعان كأجمل نجمتين في سماء وجهها الناصع كحقل ربيعي، في كفة. كان جوفي يحترق لقبلة من هاتين العينين، أو من هاتين الشفتين الزهرتين الممتلئتين. ولكن كيف السبيل إلى ذلك وأنا ضيفها؟ ساءلت نفسي.

- أيستبيح الضيف أعراض المضيف؟.

- لا بالطبع لا يمكن، ولن أسمح لنفسي رغم الصدام العنيف مع الذات، رغم البركان المتفجر في الأحشاء.

ولكن هناك قوة دفينة في أعماقي تدفعني لفعل المستحيل حتى أصل إليها. لأضمها إلى صدري بقوة. لا أعرف ما سر هذه الجاذبية إليها. لقد سحرتني. ذهبت بلبي تماما كما قال لي أليس حتى قبل أن أراها. بت أسائل نفسي:

- ما السر الذي يدفع الإنسان ليحب إنسانا آخر ويجعله مستعدا لقبول الموت وفعل المستحيل من أجله. لا أحد يمكنه إعطاء الجواب الصحيح، فالحب سر من أسرار الكون.

بين ليلة وضحاها باتت الهدف الأول في حياتي. منذ تلك الليلة لم تعد تغرب عن خيالي. صارت عذابي، وعزائي. تحولت إلى قوة كامنة في أعماقي تدفعني لفعل المستحيل. وأقاوم الموت فقط لأعود إليها.

عندما انطلقت إلى السجان أدفعه لأبعده عن أبيها، لم أتحرك بفعل إرادتي، بل بفعل قوة خفية دفعتني دون حتى التفكير بالعواقب. كنت مستعدا أن أجابه الموت من أجله. فقط لأنه أبو شامة. أب المرأة التي جعلت الصحراء بالنسبة لي أجمل جنة. صرت أعشق حتى رملها، وعواصفها، وقيظها، وصقيعها، وأفاعيها، وعقاربها، وذئابها، وضباعها،

وبعيرها، وحميرها، وحتى كلابها التي غرست في لحمي أنيابها من أجل عينيها.

في زنزانتي أمسك كل يوم بمنديلها التي ربطت فيه ذراعي لتضمد به جراح عضاض كلابها، أشم رائحتها منه. أداعبه بين أصابعي، أضعه على صدري عند النوم وأتخيلها مكانه.

10

ألم سرى في معدتي. نصل حاد سافر في أحشائي وحز في لحمي. انطلق صوت من حنجرتي كالفحيح. انقلب إلى أنين ثم إلى نشيج لبكاء مكتوم. جفناي انكمشا وضغطا على العينين بشدة. شعرت برغبة شديدة في التقيؤ، تبعتها قشعريرة وكأن أسلاكا شائكة بدأت تنسحب من نسيج جلدي، ووبر جسدي انتصب كإبر جلود القنافذ. نتأت محتوى جوفي في ركن الزنزانة. زحفت إلى قضبان الباب الحديدي لأنذر السجان. لم يأت. أو أنه تعمد ذلك.

يداي انزلقتا على القضيب الحديدي مع سقوط جسدي على الأرض كثقل بترت فيه حبال تحمله. الجدران رقصت من حولي. الزنزانة باتت في ناظري قاربا يتمايل. في رأسي نفق مظلم سارع باتجاهي وابتلعني كقطار منطلق. جسدي ذاب في محلول الظلام والسكون واللاشعور.

حاولت الوقوف. الزنزانة ترنحت بي كقارب فوق أمواج. آلام معدتي ازدادت حدة. صوت شبيه بالاستغاثة خرج من حنجرتي بعد أن تقيأت جوفي.

في صالة المستوصف سجناء آخرون كانوا يتقيؤون. في زاوية من الغرفة جلست إلى جانب ثلاثة سجناء آخرين منتظرين الأدوية. الوجوه بدت شاحبة. أحدهم كان يحمل علامات تعذيب واضحة على وجهه. عيناه سكنتا هالة زرقاء بنفسجية من جراء الضرب. جسده النحيل كان مطويا على ركبتية. وكأنه كان يمسك أمعاءه من شدة الألم. سجين بجانبي بدا عليه إعياء أيضا لكنه كان متماسكا أكثر من الآخرين.

سألني همسا:

- أنت من الأخوان؟

نظرت إليه مطولا ثم قلت:

- لا.

صمت قليلا ثم سأل ثانية:

- شيوعي؟

- لا.

صمت قليلا ثم سأل ثالثة:

- ناصري؟

أجبته بجفاء:

- لست سياسيا.

صمت ثم سأل:

- أمتهم بجريمة؟

- لا، بريء.

نظر إلي وقال:

- لا تحزن إن الله معنا، كلنا أبرياء، وهم المجرمون.

الزنزانة المجاورة حل بها منذ أسبوع، سجين جديد. تعرفت عليه عبر مرآة صغيرة كانت بحوزتي. كان يمد رأسه قليلا وأنا أضع المرآة خارج القضبان لأرى وجهه. عيناه غائرتان كبئرين مهجورين. وجبهة عريضة علاها بعض الجروح. وسن مكسورة في مقدمة الفم.

- ما اسمك؟

- رقمي هو 33

- ما حكمك؟

- الإعدام

- ماذا فعلت؟

- قتلت ضابطا

- متى التنفيذ

- لا أدري ولكن يبدو لي انه قريب.

- وأنت؟

- مازلت قيد التحقيق.

في الصباح استيقظت على صراخ يأتي من صالة التعذيب. لا بد أنهم يحاولون انتزاع اعترافات من أحدهم. أو أنهم يقومون بجلسة تأديبية لمن أخل بالنظام. كما حصل معي عندما دفعت الحارس. الأصوات المنبعثة من الصالة كانت أصوات استغاثة، وشعور بألم مبرح من الضرب، أو من عنق زجاجة تلج شرج سجين يصرخ من ألم تشقق شرجه، بعد أن ضغط المحققون على كتفيه، حتى تصل الزجاجة إلى النقطة الغليظة. اختفى الصوت فجأة. وسرى فيما بعد بين السجناء أن الرقم 33 قد مات تحت التعذيب.

الصباح كئيب كرائحة الموت. الرقم 33 يسكن عيني المطبقتي الأجفان.

- لماذا كل هذا الظلم؟

- لماذا ترتكب كل هذه الجرائم؟

- لماذا بتنا نخاف سلطاتنا أكثر من العدو؟

- لماذا نعامل كما تعامل البهائم في المسالخ؟ وأسئلة كثيرة أسألها دون أن أجد لها جوابا.

طرق الحارس على القضبان الحديدية وصرخ قائلا:

- أنهض يا كلب. الضبع أرسل في طلبك.

كان الضبع إسما يتردد على ألسنة السجناء. كان وحشا في جلد إنسان. لمجرد ذكر اسمه كانت ترتعد له الأوصال. والكل بات يعرف أن الضبع عندما يرسل في طلب سجين، ذلك يعني أنه سيعود على نقالة، أو فاقد الوعي بعد جلسة تحقيق ساخنة، أو يوضع في كيس ليدفن في مكان مجهول .

عينا المحقق الجاحظتان، كعيني فرس النهر، المحدقتان بي كعيني باشق يتأهب للانقضاض على عصفور، ويقلب فيهما كعيني ضب، أثارا في نفسي الهلع. شارباه رسما قوسا مخيفا فوق شفتيه، وجهه كان وجه أسد مكشر الأنياب نفش عفريته كأنه يقاتل أسدا. جسده الممتلئ شحما ولحما، وقامته الطويلة كدب قطبي، أخفى الكرسي الجالس عليه. أمامه وضع ملف سميك كتب عليه الرقم 17 بالقلم العريض.

وقفت أمامه مسمرا منتظرا وهو ينظر إلي بصمت يقلب عينيه بين الملف وبيني. أخذ لفافة وراح ينفث دخانها في

الهواء. ثم ضرب على الملف بعنف فجأة، قاصدا إرهابي من الوهلة الأولى، قائلا بلهجة التعجب:

- خائن وسارق !!.

قلت:

- لم أسرق شيئا.

صاح بي قائلا:

- ألم يعلموك أن تقول سيدي عندما تتوجه إلي.

- سيدي، لم أسرق شيئا.

- وكاذب أيضا. قالها بحدة وغمز بعينه اليمنى مشيرا إلى رجل بقامة الغوريلات المتوحشة يقف إلى يميني. فصفعني بعنف ملء كفه على خدي شعرت معه أن جدران الغرفة بدأت تتمايل، وأن شفتي راحت تنزف بغزارة.

- قر بالحقيقة ونحن سنكون لطيفين معك. أين وضعت الكنز؟

- لو كنت أعرف أين هو لقلت لكم وارتحت.

جاءتني صفعة أخرى أشد عنفا. شعرت بدوار في رأسي، ثم تلقيت صفعة ثالثة ورابعة.

- أين الكنز؟ أين الكنز؟

- أقسم بالآلهة، والأنبياء، ورحمة موتاي، بأني لا أعرف عنه شيئا.

نزع عني القميص. وانهال علي ضربا بقضيب خيزران قصم ظهري وترك دروبا فوقه. الألم جعلني أصرخ بأعلى صوتي مستغيثا. من شدة الضرب والألم فقدت الإحساس. الوعي غاب عني. ماء بارد انسفح على وجهي. استيقظت مجددا.

- قل أين وضعت الكنز. وأين هو أليس.
- ليت لي علماً.

قضيب الخيزران انهال علي بعنف أشد. فقدت الإحساس مرة أخرى. بين الغيبوبة واليقظة سمعتهم يقولون:
- لا تدعه يموت يجب أن نعرف مكان الكنز. ارتجفت. تقوقعت خوفا. دروب الألم مازالت في جسدي، وتتوغل في عظامي. شعرت بيد شامة تلمس خدي. شامة بشحمها ولحمها. هل هو حلم أم حقيقة؟

- افتح عينيك يا كلب.
قالت: دعهم يعوون.

- افتح عينيك يا كلب.

قالت : دعهم يعوون.

- لم يثب إلى رشده بعد. من صوت الممرض عرفت أني في المستوصف. شامة لم تكن سوى طيف، جاءت لتواسيني.

سمعتهم يهمسون بأذن الممرض:

- إعتن به، فالضبع يريد أن يعرف مكان الكنز.

11

انسلت شامة من الرواق. الأم انطلقت بالقطيع. صارت نقطة على صفحة البعد. جاءتني شامة تسأل عن حالي.

أجبت:

- أفضل بكثير.

أمسكت بيدها لأشكرها. حرارة اللمس سرت تحت جلدينا. لذة لم أعرفها من قبل. سحبت يدها من يدي برفق. نظرت إلي ثم تنهدت وقالت:

- سأذهب مع حمد لجلب الماء لنملأ الصهريج.

كان حمد واحدا من البدو، يملك جرارا يجر في ذيله صهريج ماء. يملأه من الآبار ثم يفرغه في خزانات البدو مقابل شيء من المال.

سألته من أي بئر سيجلب الماء. أجاب قائلا:

- من بئر قصر الحير.

لم أكن قد زرت قصر الحير من قبل، لكني عدت بالذاكرة إلى دمشق، عندما كنت أسير يوميا بمحاذاة متحف دمشق في طريقي إلى الجامعة. في حديقة المتحف المطلة على الشارع الصاعد إلى جامعة دمشق نصبت هيئة الآثار السورية بوابة قصر الحير، كتحفة معمارية تعلوها زخارف غاية في الدقة والجمال،على باب المتحف يشاهده القاصي والداني.

ذات يوم دفعني حب التاريخ أن أدخل هذا المتحف وأتمعن في هذه البوابة فقرأت بعض التفاصيل التاريخية. التي تقول: إن قصر الحير الغربي أحد قصور بني أمية. وهو صنو لقصر الحير الشرقي. يقع جنوب غربي تدمر وعلى بعد حوالي ثمانين كيلومتر. تاريخهما يعود إلى بداية المائة الثانية للهجرة، أمر ببنائهما الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بن مروان، أحد أهم الخلفاء الأمويين.

سألت حمد وشامة أن أرافقهما لأني تواق لزيارة هذا القصر منذ زمن، ولم تسنح لي الفرصة بزيارته. رحبا بذلك وانطلقنا نحو القصر.

كان القصر أشبه بالحصن له سور عال مزود بأبراج، ولكل زاوية برج على شكل ثلاثة أرباع الدائرة. طول ضلع

القصر حوالي مئة متر، مفتوح على الصحراء عبر باب واحد يتوسط واجهته الشرفية يؤدي إلى فناء واسع ، ثم إلى رواق مسقوف ملتف حول ساحة تقابلها السماء، ويتوسطها بركة ماء، يحتوي على ستة أجنحة سكنية كل واحد منها مكون من عدد من الغرف تصل إلى أربع عشرة غرفة وسطيا لكل منها، وتتوزع منها حجرات صغيرة زينت جميعها برسوم بديعة للزهور والحيوانات. وكان هذا القصر استراحة للأمراء الأمويين في أسفارهم، ومقصدهم في رحلات صيدهم. يستمد ماءه من خزان مياه متصل بسد خربقة، عبر قنوات فخارية، الذي تغذيه مياه نبع الكوم. وقد تمت دراسته من قبل بعثة آثار فرنسية بإشراف عالم الآثار الفرنسي شلومبيرجيه إبان الانتداب الفرنسي على سورية، في عشرينيات القرن العشرين. وقد كان عرضة لهجوم العباسيين بعد سقوط الدولة الأموية، ثم مرت عليه عوادي الدهر والإهمال وبات مرتعا للوحوش لمدة طويلة. البدو القريبون منه الآن يتزودون من خزانه بالمياه ،ويردون إليه لري أنعامهم.

عندما عدنا من قصر الحير كان الوقت ظهيرة. صبت شامة الماء في براميل على مقربة من بيت الشعر. لري الماشية عندما تعود من الرعي. ثم ملأت خزانا كبيرا على مقربة الخيمة.

توجهت إلى شامة بالقول:

- يجب أن أعود للعمل فمن المؤكد أن أليس والعمال الآخرين يبحثون عني في كل مكان.

قالت:

- سأعطيك فرس والدي لتعود إلى ربعك فيما بعد.

ثم نظرت إلي تسألني:

- هل امتطيت فرسا من قبل؟

- لا، ولكن كان لجدي حمارة قبرصية أصيلة. من سلالة حمير عريقة، تعرف بقوتها وذكائها، وكانت مفخرة له، كان يروي عنها قصصا. حتى أنه أعطاها إسما، ولأنها بيضاء اللون كان يسميها فلة، كان يناديها به فتفهم أنه يناديها فتأتي إليه. وظلت هذه الحمارة وفية له. بعد موت جدي بدت حزينة، وماتت بعد فترة قصيرة من وفاته. جدي، وقبل أن توافيه المنية كان يبحث لها عن حمار من سلالتها كي يستفيد من نسلها. فزار جميع القرى المجاورة بحثا عنه، لكنها كانت ترفض كل من يتقدم إليها، وما أن يقترب منها حمار كانت توجه إليه عدة ضربات بحوافرها فتثنيه عن عزيمته. وحار جدي في أمرها. إلى أن رآها يوما تتودد إلى حمار فتي من سلالة شعبية، فنزل عند رغبتها، وولدت لنا في نهاية الأمر حمارا هجينا. كان حمارا شموصا. كنت أمتطيه بين حين وآخر، وكم من مرة رماني من

على ظهره، أو سدد إلي ضربة حافر. لكني في النهاية انتصرت عليه واستطعت ركوبه والاحتفاظ بتوازني فوق ظهره بعد أن يئس من محاولاته الفاشلة لإسقاطي.

قالت وهي تضحك:

- وهل تشبه الخيول العربية الأصيلة بالحمير ولو كانت قبرصية؟

- أجبت:

- إنك على حق كما يقول المتنبي: صهيل الجياد غير النهيق.

- ومن هو هذا المتنبي.

- ومن لا يعرفه؟

- إني امرأة أمية لم أدخل مدرسة قط، وكم كنت أتمنى أن أعرف القراءة والكتابة. قالتها بخجل.

ثم أردفت قائلة:

- سأعطيك درسا في الفروسية، وتعطيني درسا بالكتابة والقراءة. هل توافق؟

- إنه من دواعي سروري. أجبتها سريعا.

سعدت كثيرا بهذا العرض لأنه سيتيح لي الفرصة بأن أعود لرؤيتها متى شئت. كنت أبحث في نفسي عن سبب، أو أي حجة للعودة إليها، فما كنت أجد سببا أو حيلة، والآن جاءت الحجة دون أن أخطط لها، وما أجملها من حجة.

امتطت شامة الفرس وراحت تعدو به كفارسة متمرسة جعلتني أعجب بها أكثر. ثم عادت إلي وطلبت مني أن أمتطيها. وما أن امتطيتها حتى راحت تعدو، وأطلقت حوافرها للريح. حاولت بصعوبة كبيرة السيطرة عليها لكني لم أفلح في ذلك، فرمتني أرضا. امتطيتها مرة أخرى وعدت بها مهدئا لها إلى أن استجابت لي.

كانت شامة ترافقني بنظراتها وهي تبتسم، عندما عدت إليها قالت بشيء من الإطراء: لقد أحبتك هذه الفرس الآن يمكنك أن تذهب لطمأنة ربعك وعد إلينا مساء.

في الأيام التالية رحت أختلف إلى ديار شامة، كنت أشعر بسعادة ما بعدها سعادة، كلما وليت وجهي شطر ديارها.

بدأت حصص التعليم بتلقينها دروس الأبجدية أولا كي تستطيع فك الحرف. كانت تشبه الحروف وتعطيها تسميات أخرى. الألف عصا واقفة، والباء صحن فوق حصوة، والتاء صحن فوقه تمرتان، والثاء ثلاث تمرات، والراء موزة مقشرة، والسين محمصة القهوة، واللام عكاز مقلوب..

عندما باتت قادرة على كتابة اسمها انتابتها سعادة غامرة، كانت تكتبه مرات ومرات، شامة، شامة، شامة.. ثم راحت

تكتب اسمي مالك، مالك، مالك، وترسم ابتسامة ناصعة على شفتيها ثم تقول:

- لقد أخرجتني من ظلمات الأمية. لن أنسى هذا الفضل لك.

كم كنت سعيدا عندما بت أراها بعد شهور وهي تقرأ قصة عنترة العبسي التي جلبتها لها، متهجية كلماتها كلمة، كلمة، كما يفعل الأطفال في بداية تعلمهم، وقد بدت الفرحة على وجهها. لأول مرة في حياتي وجدت أني قدمت خدمة جعلتني أشعر بالوجود. لقد أخرجت إحدى نساء بلادي من غياهب الجهل إلى بداية طريق النور.

ذات يوم ربيعي كانت الصحراء صفحة نقية ساكنة. لا نقعا ولا غبارا. النهار يعد نفسه للرحيل. والليل ينتظر على الأبواب. في هذا الفصل تأخذ بعض مناطق البيداء ألوانا أخرى يختلط فيها الأخضر مع أحمر شقائق النعمان وأبيض الاقحوان، وبنفسجي أزهار الأشواك. البدو ينتشرون فيها ببهائمهم يرعون. الأغنام تتوالد وترى الحملان الصغيرة تقفز وتلهو في كل مكان. بعض الطيور الموسمية المهاجرة تراها تحط سعيدة تتغذى بأعشاب الفصل.

أمام باب الخيمة كنت وأليس نتسامر. أبو حفص يتوضأ من إبريق عتيق مهيئا نفسه للصلاة. منقذ يلعب الورق مع أبي عسكر. السماء صافية إلا من عمود دخان أسود كثيف سلك معارجها عن بعد. دخان لا يشبه دخان مواقد البدو الرمادي الفاتح.

تساءلنا جميعا ماذا يمكن أن يكون. أليس وبخبرته قال على الفور: إنه دخان ينتج عادة عن حريق إطارات السيارات. لأن لونه أسود كالح.

قلت:

- ربما كانت إشارة يأس من تائه في الصحراء.

قال :

- لنذهب ونر.

اندفعنا نحو المكان. الصورة توضحت أكثر باقترابنا منه. سيارة متوقفة وشخصان يلوحان من بعيد. أسرعنا نحوهما. ركضا باتجاهنا. إمرأة شابة بملامح أوربية. شعر أصفر باهت. عينان زرقاوان. قد نحيل طويل. تلبس سروالا وقميصا أبيض. الشاب شبيهها. بشعر أشقر طويل وعينين زرقاوين. بقد نحيل طويل أيضا. بدا عليهما الإعياء الشديد والعطش.

- الماء، الماء، قالتها الفتاة بالفرنسية.

أسرع أليس إلى سيارتنا وأحضر قربة الماء. وضعتها الفتاة على فمها بلهفة، وراح الماء ينساب فوق رقبتها وقميصها الأبيض الرقيق، الذي برز من خلفه نهدان مكوران نافران أغريا أليس الذي قال على الفور:

- أنظر إلى ثدييها الناهدين كجوزتي الهند.

الشاب خلفها ينتظرها بفارغ الصبر مادا يديه ليتسلم القربة فور انتهائها من الشرب.

التائه في الصحراء كالسابح في المحيط لا يعرف اتجاها يسلكه. ثم إذا سلك طريقا يجد نفسه بعد فترة بأنه يدور في حلقة، فيعود إلى نفس المكان الذي انطلق منه.

قالا كنا تائهين، وقد نفد منا الوقود، فأحرقنا الإطار الاحتياطي لجذب الانتباه.

تفرست في وجهينا ثم قالت:

- شكرا لكما على إنقاذنا.

في مخيم الورشات كان أليس سعيدا بوجود الفتاة. همس في أذني قائلا: كم هي جميلة هذه الفتاة! ثم تابع بقوله:

- أحسب أن النساء اللائي عرفتهن كلهن رجال مقارنة بها.

- وهل تقارن مومساتك بهذا الملاك المنزل من السماء، ثم إنها ضيفة ولا نعرف شيئا عن الرجل الذي يرافقها.

ثم تابعت منبها:

- إياك والتمادي. يجب أن نقدم صورة جيدة عن العرب، وخصالهم الكريمة، وحسن ضيافتهم، وأخلاقهم الحميدة.

قهقه مستهزئا وقال:

- خصال العرب !!! وما هي خصال العرب؟ الاقتتال على جلد عنز. حروب طاحنة خلفت آلاف القتلى لأن داحس سبقت الغبراء بحافر أو حافرين. أم الغدر والخيانة، ألم يقتلوا خلفاءهم الراشدين الذين رضي الله عنهم، غدرا. ألم يحزوا عنق الحسين حفيد رسول الله، ويقتلوا آل البيت فردا فردا. ألم يقصفوا الكعبة بالمنجنيق ويهدموها. ألم يفتك اليمانية بالمضرية، والعباسيون بالأمويين، والأيوبيون بالفاطميين، وزيد بعمرو، وعمرو بزيد.

قاطعته قائلا:

- الآن ليس الوقت لدروس التاريخ.

- دروس التاريخ تتواصل يا صديقي، وسيرة بني يعرب لم تتغير. ألا ترى في عالمنا اليوم ماذا تفعل أنظمة العرب بعضها ببعض.

- أعرف كل ذلك ولكن حاول أن تلتزم بالأخلاق أمام هؤلاء الأجانب، ولا تعطيهم صورة مشوهة عن العرب.

أجاب بسخرية كبيرة مقهقها:

- أتعتقد أن صورة العرب عند هؤلاء ليست مشوهة. كم أنت ساذج يا صديقي. إن العرب بالنسبة لهؤلاء أسوأ أمة أخرجت للناس، فقيمة العربي في أوربا لا تساوي مثقال ذرة، بل إن الكلاب، بالنسبة إلى هؤلاء القوم، مبجلة أكثر منهم بكثير.

في طريق عودتنا إلى المخيم ونحن مصطحبان الأجنبيين، جاك وماري، تذكرت كلام متعب حين قال لي ذات مرة كنت أزوره:

- يا بني لن يأتلف العرب والغرب كما لم تأتلف ثاء وظاء كما يقول المعري. فعلاقة العربي بالغربي علاقة المنتصر بالمنكسر. لقد ذهبت ريحنا، وجاءت ريحهم. جمعتهم المصالح رغم اختلافاتهم الجذرية الدينية والثقافية واللغوية والتاريخية، بينما فرقتنا العصبية. فالمضرية، والعدنانية، والقحطانية، والبكرية، والكندية، والتميمية، والقيسية، والثعلبية، والضبية، والكلبية، والعنزية مازالت في مجتمعاتنا ولو أنها أخذت بعض الأحيان أسماء أخرى، وتفرقت في بطون وأفخاذ، ومازالوا يقتتلون على جلد عنز، ويمكنوا أعداءهم منهم. لقد كانوا أول من انقلب على الخلافة العثمانية، وتحالفوا مع الغرب ضدها بحجة أن

الغرب وعدهم بالاستقلال، وإقامة المملكة العربية المتحدة، فماذا كسبوا من ورائها؟ لقد خانهم الغرب الميكيافيلي، لأنه كان مبيتا لهم مؤامرة كبيرة، وهم كانوا نياما في خيامهم. لم يثمن الغرب أبدا موقف العرب الذين تحالفوا معه. فقام بتنفيذ مخططه القاضي بإقعاد العرب على خوازيق ثلاثة يصعب عليهم بعدها الفكاك منها. الخوازيق الثلاثة هذه تمثلت بمعاهدة سايكس- بيكو. وبوعد بلفور الذي وعد بقيام دولة يهودية في فلسطين. وبالانتداب على هذه الدول، فقاموا باقتسام تركة الرجل المريض تركيا بالشوكة والسكين، كما يقتسمون كعكة دسمة، ووضعوها تحت سيطرتهم، ثم زرعوا دولة معادية على أراضيهم ومدوا جسدها بشرايين دول الغرب أجمع حتى تترعرع وتعيش بدمها تكفيرا عن دم كل اليهود الذين قتلهم في الحرب العالمية الثانية.

نظر إلي مطولا وحولنا أعيان البدو ينصتون ثم قال:

- الأنكى من ذلك كله أن الدول العربية التي نشأت جراء هذه المخططات باتت تدافع بالروح والدم أيضا عن هذه المخططات، وعن سايكس بيكو ويبجلانهما تبجيلا أكثر من سايكس ومن بيكو نفسيهما.

ثم اختتم حديثه بالقول:

- آخر انتصار للعرب يعود إلى معركة الزلاقة في الأندلس عندما توحدت كلمة عرب الأندلس وبربر المغرب، ومن بعدها بدأت سلسلة الهزائم واستمرت إلى يومنا هذا ولن تتوقف، ولكن يا أخواني القادم أعظم. وليصن الله هذه الأمة مما هو أعظم.

سأل أحدهم:

- ولماذا هذا الانكسار المزمن؟

أجاب طراد متنهدا:

- منذ ذلك الحين لم تجتمع الأمة مرة واحدة على كلمة. ومثلهم القائل أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وأخي وابن عمي على الغريب، هو مثل يقال، ولكن بالفعل فإن هذا المثل ومنذ قحطان وعدنان، كان قحطان ضد عدنان، وعدنان ومضر ضد قحطان. والعرب باتوا اليوم، بعد أن حلت بهم كل مصائب الدنيا بسبب فرقة أنظمتهم وتناحرها، وتسلطها على شعوبها، ينتظرون الفرج. بات الانتظار سيدا، الكل ينتظر، الفقير ينتظر رحمة الله، السجين البريء ينتظر لحظة الانعتاق، المغلوب على أمره ينتظر انقلاب الظروف، الفلاح الذي وعد كذبا بالإصلاح الزراعي ومساعدة الدولة ينتظر الغيث، الموظف ذو الدخل المحدود ينتظر نهاية الشهر بفارغ الصبر، الركاب ينتظرون ساعات الحافلات المليئة دائما كعلب السردين،

وشعب بأكمله يرزح تحت نير الفقر، والحيرة، والاضطهاد ينتظر انقلابا فيه الخلاص، وبين الانتظار والانتظار سنوات من الألم والترقب والخوف والدم. الانتظار موت بطيء مجبول بمرارة الصبر. إننا ملوك الانتظار، اننا ملوك الاحتضار، إننا ملوك الانتحار. انتظار المستحيل، انتظار اللا مستحيل. وسيأتي يوم سترى فيه الناس كالفراش المبثوث يملؤون الشوارع والساحات في كل المدن العربية يصرخون بحنجرة واحدة: فليسقط الحكام اللئام. وسيدكون عروشهم. وستميد الأرض تحت أقدامهم. فالناس كالماء وراء جدار السد تبحث دائما عن منفذ، وإذا نفذت انهار السد مهما كانت مناعته.

في زاوية الخيمة كان عازف الربابة يغني أغنية بدوية حزينة . وتر الربابة اليتيم كان يطلق منفردا نغمات أليمة تنفذ إلى منافذ النفس. سألت متعب عن هذه الأغنية.

أجاب وعلامات الحزن تعلو وجهه:

- إنها القصيدة الحماسية التي أنشدها جد طراد الملحم وهو على حبل المشنقة، هذه القصيدة باتت ملحمة يتغنى بها قبائل البدو، وبالأخص قبيلة الحسنة التي ينتمي إليها، وكان شيخها وجليلها. وفي كل جلسة لا بد وأن ننشدها ونتذكر هذا المناضل الذي كان يغني على منصة الموت وكأنه في عرس، عرس الشهادة من أجل الوطن.

قلت:

- قصة محمد الملحم جعلتني أشعر بأن هناك دائما من يدفع الثمن من أجل الآخرين.

نظر إلي طراد المتعب وقال:

- إن الطير اليقظ، يا بني، الذي يكتشف نوايا الصياد، ويحذر سرب ا لطيور بصوت عال قبل أن توجه إليها الطلقات، هو من يزجر بقسوة، وهو أول من يتلقى الطلقات بصدره.

ثم تابع بالقول:

- جاؤوه فجرا فقيدوه، واقتادوه لينفذوا فيه غل الانتقام، كانوا ينتظرون رؤيته وهو يرتعد، ويتوسل، ويبكي، أو أن يكون منهارا، كانت المفاجأة أنهم وجدوه ينتظرهم متأنقا، منتصب القامة، مرفوع الهامة يمشي. كان أعوان القتلة من العرب المتواطئين يهتفون وكأنهم يسوقون كبشا لأضحية العيد، وهو كان يسير بينهم مختالا غير آبه بهم، وكأنه في عالم ليس بعالمهم، ثم جاء أحدهم ليضع القناع على وجهه فرفض محمد وضع القناع، قال لهم:

- إني أذهب إلى الموت مواجهة، فأنا لم أختبئ وراء الأقنعة في حياتي، ولن أختبئ وراءها في مماتي، أما أنتم أيها الأذلاء، يا من تلعقون أحذية من يذلكم، تضعون

الأقنعة على وجوهكم العفنة التي تنضح خيانة، ورياء، ولؤما، وحقدا، لقد شئت أن أحرركم من العبودية، ومن هيمنة الظالمين، أن أجعلكم أسيادا في بلدكم أعزاء، اليوم أراكم أيها السفلة تدورون حولي كالذئاب، وبالأمس كنتم تتمسحون بي كالكلاب، ثم وقف على منصة الموت وأنشد هذه القصيدة التي ما زلنا ننشدها إلى اليوم. بعد أن أتم قصيدته تلا الشهادتين مرة، ثم أخرى،ثم لم يكمل الثانية حتى تدلى جسده الطاهر، وبات شهيدا بين الشهداء.

صمت طراد قليلا ثم قال:

- هكذا يكون الرجال الحقيقيون، يقولون كلمتهم ويموتون من أجلها.

- ماذا قال في هذه القصيدة؟ سألته بشغف.

- إنها قصيدة رجز بدوية يقول فيها:

ترابك يا وطن قتال

ترابك يا وطن قتال

لا بضنا نضن عليك ولا بمال

وطني وريدي

اليوم عيدي

ومن السما ابعث لك مرسال

ترابك يا وطن قتال
ترابك يا وطن قتال

حبل عدوك في الجيد
يا وطن، أنا لك شهيد
ودوام الحال من المحال

ترابك يا وطن قتال
ترابك يا وطن قتال

عندما وصلنا المخيم، استقبلنا أبو حفص. وحالما رأى ماري بقميصها الشفاف، توجه إلى أليس قائلا:

- هلا طلبت من هذه الأجنبية أن تستر نفسها.

- دعنا نتمتع بهذا الجمال يا حاج إن الله جميل يحب الجمال.

أجابه أليس

- يحب الجمال ولكن لا يحب الدعارة أيها العربيد.

- ما بالك يا حاج تطيل بقائمة الممنوعات ألا يكفينا هذا الحاكم الذي يمنعنا من كل شيء. يقول لنا: الوقوف ممنوع، التجمهر ممنوع، الكلام ممنوع، السفر ممنوع، سماع الإذاعات الأجنبية ممنوع، السؤال ممنوع، الاعتراض ممنوع، ممنوع، ممنوع، ممنوع، حتى فتح الفم ممنوع.

- هاهو سمح لك بالسكر والعربدة.

- هذا ما يبحث عنه، إنه يريد شعبا سكرانا، مخدرا كل الوقت، حتى لا يرى، ولا يسمع ، ولا يتكلم إلا في الصحراء حتى لا يسمعه أحد.

الصباح كان نديا، جاك وماري نائمان في خيمتهما التي اصطحباها معهما ونصباها ليلا، سيارتهما التي زودها أليس بالوقود بجانبها. أبو حفص كعادته يقرأ سورا من القرآن الكريم. أليس يتململ في فراشه، وينهرني كلما حاولت إيقاظه. الشمس بزغت من وراء الأفق، الحرارة ارتفعت. طلت ماري من باب خيمتها وسألت:

- أين هو الحمام؟

ضحكت من السؤال.

- لماذا تضحك؟

- يا سيدتي حمامنا هو أكبر حمام في العالم، إنه بوسع هذه الصحراء. اذهبي واقضي حاجتك أنى رغبت، وكيفما يحلو لك.

بعد يومين في المخيم، اعتاد الجميع على وجودهما معنا. بل إن أليس بات صديقا لجاك الذي يقارعه في شرب الخمر، بل أسعده عندما أهداه زجاجة نبيذ فرنسية معتقة.

وصارا يشربان معا. في حين أن أخته باتت أقرب إلي، وقد طلبت مني أن آخذها في فسحة صحراوية لترى كيف يعيش البدو. من خلال الحديث معها أعلمتني أن أباهما كان أحد علماء الآثار الذين عملوا في سوريا مع العالم شلومبيرجير الذي عمل في التنقيب في منطقة تدمر وقصر الحير، وإنها كانت تواقة لزيارة الآثار التي عمل فيها والدها لكثرة ما حدثها عنها. وإنها ترغب في زيارة تدمر أولا، وحبذا لو أننا نقوم بذلك معا. وكم من مرة رددت شكرها لي لنجدتهما، ولو لم نصل في الوقت المناسب لاجتمعت عليهما الضباع والذئاب وباتا في خبركان.

في اليوم التالي توجهنا إلى تدمر. مخرنا عباب الرمل. سلكنا الطريق المعبدة المتآكلة الأطراف، الممتدة كخط رمادي متعرج على صفحة الصحراء. الطريق تنعطف قليلا قبل أن تطل من عل على المدينة العتيقة، المدينة التحفة، المدينة التاريخ، المدينة المعجزة. وتعبرها وسط أطلالها. ثم تنعطف يمينا عندما تصل قوس النصر. وتكمل مشوارها إلى المدينة الواحة الحديثة.

أعمدة هرمة انتصبت قاماتها الحجرية بجلال، أصيبت بجدري الحجر بفعل أنياب العواصف المحملة بالرمال، والتي توالت عليها منذ مئات السنين. وأعمدة مقصومة

الظهر، أو الساق مطروحة أرضا بيد عاديات زمن غابر، منسية على جنبات الشارع الطويل، عيناك تقرأ على صفحتها حزنا عريقا على أيام عزها.

الطريق المعبدة تشق المدينة إلى شطرين. تمزج الماضي بالحاضر. تنتقل بزائرها بخطوة من زمن مجد غابر إلى زمن ذل غادر. إذا ما نظرت إليها من حالق ترى الشمال واحة نخيل وارفة تلف المدينة كحاجب عين أخضر، والجنوب قفرا بفعل الزحف الرملي المصر بعناد أن يغمر المدينة. بالأمس كانت مملكة من أهم الممالك العربية القديمة . نافست في حضارتها الحضارة الرومانية. أطلق عليها الآراميون اسم جلاطا أي المعجزة. لأنها كانت معجزة عصرها. وكانت روما تخشاها كما كانت تخشى قرطاجنة.

سلكنا الشارع القديم المستقيم الذي يبدأ بقوس النصر. قوس هادريان، وينتهي في الساحة العامة. تحفه الأعمدة السامقة من جانبيه. على أطراف المدينة توزعت هياكل المباني القديمة: القصور. السوق أغورا. مجلس الشيوخ. المسرح. المعابد. المدافن الملكية. مدفن زنوبيا. سبيل حوريات الماء. تماثيل مقطوعة الرؤوس باتت زينة في المتاحف الغربية. تماثيل الآلهة: اللات وزاخوس إله

الخمر، وعشتار إلهة الخير، وإله الشمس حامي المدينة. معسكر ديوكليتيان. وقلعة فخر الدين المعني تطل من هضبة قريبة.

سألتني عن تاريخ المدينة إذا كنت أعرف عنه شيئا. كأنها كانت تريد أن تمتحنني. إذ كان يتهيأ لي أنها تعرف كل شيء بالتفصيل. كأنها درست تدمر قبل أن تزورها وعرفت عنها أكثر من مدرسي التاريخ.

- المدينة الدولة عرفت أوج حضارتها في عهد الملك العربي أذينة. وبعد مقتله في حروبه المستمرة مع الفرس، ورثت زوجته زنوبيا العرش ومدت سلطانها إلى رقع بعيدة من بلاد الشام ومصر، إلى أن سقطت المدينة المعجزة بيد الإمبراطور الروماني اوراليان بعد أن كان الرومان يرددون أحرقوا تدمر، كما كانوا يرددون أحرقوا قرطاجنة. لأنها كانت مدينة عصية عاصية على روما، أقوى إمبراطورية في عصرها.

تابعت بقولي:

- زنوبيا الملكة جرجرت بالسلاسل إلى روما. داس القياصرة على كرامتها، تماما كما داسوا على كرامة حنابعل القرطاجني الذي كاد أن يسقط روما أيضا. كأن الشرق بلي منذ قبل بدء التاريخ بحقد الغرب، وجشع الغرب، وسطوة الغرب،

وكتب عليه أن يدافع عن نفسه من كل القوى الباغية في السيطرة على ثرواته ومقدراته، لقد قاوم روما، وبيزنطة، والتتار، ثم القوى الاستعمارية الحديثة التي لم تكن أقل ظلما وإجحافا وهمجية من قوى الأمس.

نظرت إلي نظرة تعجب وإعجاب ثم قالت:

- أرى أنك ملم بالتاريخ، وثقافتك غنية. وحاقد على الغرب.

أجبت قائلا:

- الفضل يعود للأستاذ فاتح ماضي هو الذي غرس في وزملائي حب التاريخ، وكان دائما يقول لنا: معرفتك بالتاريخ تقودك إلى معرفة أعدائك.

- ولماذا أنت حاقد على الغرب.

- الغرب حاقد علينا.

تابعنا السير بين هياكل المدينة. كانت مهتمة بكل زاوية. بكل تفصيل. حتى تخال أن المدينة مدينتها. كانت تلمس الحجارة المهشمة بحنان. تمرر أصابعها فوق خدود المنحوتات على الجدران. تلتقط الصور. تدون التفاصيل في كراس. ثم تقول بين فينة وأخرى:

- يا للروعة.

جلست على حجر. أخرجت من حقيبتها قلم رصاص وأوراقا سميكة وراحت ترسم بيد فنانة. تأخذ وقتها في التمعن ثم تنقل مشاهدتها على الورق. دهشت لاهتمامها الشديد بالمدينة الجثة.

هناك المقابر الملكية على شكل أبراج. دخلنا المقابر مقبرة مقبرة. أخرجت مصباحا وأضاءت الداخل وتفحصت جدرانها. ثم قالت: في هذه المقابر دفن ملوك تدمر دون أن يحنطوا كما كان الفراعنة يفعلون لأن ديانتهم كانت مختلفة.

التفتت إلي وقالت:

- أكثر ما يدهشني في هذه المدينة أنها تتكلم بصمت. تقول لك ببلاغة: هنا نام التاريخ بين ثديي. رضع حتى شبع. شب بين ذراعي ثم رحل ولم يعد.

قلت:

- التاريخ لا يعيد نفسه، المدينة رحلت وتركت عظامها رميما وراءها، كأحفورة الديناصور تشهد على ضخامته من عظامه التي يتركها وراءه.

عندما كنت أتكلم إليها كانت تنظر إلي بعينين معجبتين، أشعر فيهما لمعان عيني أنثى في نفسها شبق. نظرت إلى

عينيها. كانتا بزرقة السماء. وشعرها بلون الرمل الذهبي. وقامة مصقولة كأعمدة المكان.

وضعت يدها بيدي وقالت:

- لنصعد القلعة.

قلعة فخر الدين تقوم على هضبة مقابلة شديدة الانحدار، يتطلب من صاعدها أن يكون متين البنية، ويتمتع بالجلد والصبر في الصعود إليها على الأقدام. كان الوقت يقترب من الظهيرة، الشمس تجلد جلودنا بسياط أشعة ساقطة. مع أول خطوة في الصعود قالت:

- لن نتوقف حتى نصل القمة. ومن يقف أولا يخسر الرهان.

أجبتها بخبث:

- ومن يخسر الرهان ماذا سيقدم للرابح؟

- أطلب ما تريد.

- سأفكر في الطلب عندما أكسب الرهان.

رحلة الصعود تتطلب وقتا وجهدا، بدأت الصعود متحمسا لكسب الرهان. مع كل منعطف كنت أنظر إلى الخلف، كانت تقاسي في صعودها من حرارة الشمس، فتتوقف في كل مرة لتشرب الماء من قارورة

جلبتها معها ووضعتها في حقيبة ظهرها. كانت تنظر إلي وتقول:

- لا تتوقف وإلا خسرت الرهان.

في منتصف الطريق ساءلت نفسي: ماذا سأطلب منها كرهان؟ هل أتجرأ وأطلب قبلة من خديها، أو من شفتيها.

- لا لن أجرؤ على ذلك وربما وصمتني بالوقاحة وقلة الأدب والاحترام.

- ولكن هي قالت لك أطلب ما تريد، وماذا تعني أطلب ما تريد؟ هل فعلا يمكنني أن أطلب ما أريد؟

- لا يا غبي، إنه مجرد كلام، في النهاية لن تعطيك شيئا.

- سنرى عندما نصل خط النهاية.

- الرؤيا واضحة يا غبي. ألا ترى فيها غنج الأنثى؟ ألا تلحظ أنها تجر خطاها عنوة كي تكسب أنت الرهان.

في الخطوات الأخيرة نحو القمة لاحظت وكأنها كانت تتقصد أن أكسب الرهان فعليا. كانت تتباطأ في خطاها عنوة، وتتظاهر بالتعب. عندما وصلنا باب القلعة سقطت أرضا وقالت:

- لقد كسبت الرهان يا صديقي ويحق لك أن تطلب ما تريد.

أجبت بشيء من الخجل:

- لا أعرف ماذا أطلب.

- إني أمامك وخذ ما يحلو لك.

تلعثمت، وترددت، في طلب قبلة كنت متلهفا لها. قلت:

- أريد منك قارورة الماء فالعطش جفف حلقي.

قرأت في عينيها خيبة أمل، وكأنها كانت تقول في نفسها ما أغبى هذا الرجل. أقدم له نفسي وهو يتعفف.

كي أنقذ الموقف المحرج الذي وقعت فيه قلت لها:

- المدينة لم تنته هنا. لدي لك مفاجأة.

سألت بلهفة:

- ما هي؟

- هناك مكان قلما يعرفه أو يزوره أحد. قديم قدم هذه الأرض، لكنه بات مرتبطا بتاريخ هذه المدينة وملكتها.

- ما هو؟ سألت باستغراب.

- حمام زنوبيا

- حمام زنوبيا!! خذني إليه. قالتها بشوق وشغف.

عندما وصلنا كان المكان خاليا إلا من قبرات تغتسل في ماء ضحل على مقربة من الغار لشدة الحر، والتعب أخذ

منا كل مأخذ، ورائحة الكبريت تفعم الأنوف. زائرو الحمام نادرون جدا، فالبدو قلما يغتسلون، ونساؤهم، للتستر، إذا أردن الاغتسال جعلنه داخل الخيمة في وعاء كبير. ربما كنا،أنا وأليس، الوحيدين اللذين كانا يؤمان هذا المكان من وقت إلى آخر.

كانت عيناها تجولان في المكان بحثا عن أثر للحمام، وكأنها كانت تعتقد أن بناء قديما من عهد زنوبيا درسته عوادي الدهر، ومازالت أطلاله ماثلة للعيان كباقي آثار تدمر.

سألت قائلة:

- أين هو الحمام؟

- تحت هذه الصخرة. أجبت مبتسما.

انحدرنا نحو حلق الغار. وقفنا أمامه نتأمل تدفق الماء الساخن المكبرت يعلوه بخار خفيف. ارتسمت على وجهها علامات السعادة. التفتت إلي وسألت بشيء من الاستغراب:

- أهذا هو حمام زنوبيا؟

- نعم. في هذا الغار كانت تأتي لتغتسل. كان مكانها المفضل. تتردد إليه كلما سنحت لها الفرصة، فحرارة الماء

كانت تريح أعصابها المتعبة من مشاغل الحكم. والمياه الكبريتية كانت علاجا لبشرتها الجميلة. عندما كانت تأتي هنا كانت وصيفاتها يرافقنها ويصطحبن معهن العطور، والعنبر، والحناء، والمناديل النظيفة. كانت مناسبة أشبه بمناسبة ليلة زفاف العروسة. تخرج بعدها زنوبيا بحلة جديدة، وبرائحة عطرة زكية وتعود أدراجها مع موكبها إلى قصرها.

سألتني على الفور مقاطعة كلامي:

- هل يمكنني أن أغوص به مثلها؟

أجبت ببساطة الجاهل دون حساب للعواقب:

- نعم، بكل تأكيد. ادخلي الغار وعومي كما تشائين، ربما ستكونين المرأة الثانية التي تستحم في هذا الغار بعد زنوبيا، وأنا سأنتظرك في الخارج.

قالت بلهجة الإصرار:

- لا يا صديقي. أنا أخاف الدخول هذا الغار وحيدة، ثم أريد أن نسبح سوية. ثم تابعت قولها بشيء من غنج النساء:

- ألا تريد أن تسبح معي؟

لم أفهم ما كانت ترمي إليه، لكني ضحكت بغباء، وتبعتها مطيعا كشاة تمشي وراء راع.

ولجنا الغار سريعا. الظلام يعم المكان، بعض من أشعة الشمس تسربت من كوات صغيرة في سقف الغار. فبدت كنجوم في قبة سماوية وانعكست أضواؤها على سطح الماء، وبدا بخار الماء المتصاعد كدخان متحرر من حريق خمد لتوه. المشهد فريد من نوعه. وكأنه مشهد مريخي. نزعت ماري ألبستها سريعا دون اكتراث بوجودي أمامها. نظرت إليها بدهشة كبيرة وهي تخلع سروالها. ساقاها الطويلتان الجميلتان انعكست صورتهما على سطح الماء المتلألئ تحت شعاع شمس نفذ من كوة في سقف الغار. خلعت قميصها الأبيض. ثدياها المحمولان بحمالة رقيقة شفافة، تمكن الناظر من رؤية شبه واضحة لثديين مستديرين متمردين يشمخان بأنفهما عاليا. خلعت الحمالة سريعا. لم يتبق ما يستر جسدها سوى لباس رقيق شفاف يكاد يغطي المساحة غير الظاهرة من فرجها. أما الثديان الناهدان النافرا الحلمتين الزهريتين كزري ورد فوق تفاحتي عاج، فقد حاولت أن تسترهما بحياء بكفيها قبل أن تقفز إلى الماء وهي تصرخ من شدة الفرح.

جلست أراقب حركاتها وهي تسبح. بدت أجمل مع شعرها المبلل الملتصق على كتفيها. عيناها الزرقاوان لمعتا كزمردتين. نهداها الطليقان كانا يترجرجان على سطح الماء

كلما غطست فيها وخرجت وكأنها سمكة نادرة لم تر هذه الصحراء مثلها من قبل. مؤخرتها الجميلة المكورة الإليتين كإجاصة على أبواب النضج، كانت تظهر بين الفينة والفينة على سطح الماء كلما حاولت السباحة على بطنها وكأنها كانت تتقصد إثارة فحولتي.

كان توقي للمس نهديها وإليتيها يهزني كصفصافة في مهب ريح عاتية. الغرائز الحيوانية في جسدي تنبهت كما يتنبه الغافي على صوت قرع مئة طبل في أذنيه. لم يعد بيني وبين الانقضاض عليها، كما ينقض الفهد على فريسة بعد جوع عتيق، سوى حاجز الخوف، وما تبقى من صمود لحصن المبادئ والأخلاق. لقد صدق أليس، أمام سلطان الفرج يتعطل سلطان العقل. كان لدي رغبة جامحة في فض عذريتي المزمنة. في الخروج من قفص الجهل الجنسي. بأن ألمس امرأة وأتمتع بحقوقي في الحياة كرجل، حتى متى سيستمر جهلي في النساء.

حتى متى سأبقى أمارس العادة السرية، وأتخيل نساء في فراشي؟ أما آن الأوان أن أتذوق طعم الأنثى؟ ساءلت نفسي.

- بكل تأكيد، ولكن يجب أن أحترم قواعد الأدب. لا يمكنني أن أرغمها على شيء، وإلا فأكون قد ارتكبت خطأ

فادحا بحقها. ستقول: هؤلاء العرب هم مجرد وحوش. لا يتحمل واحدهم أن يرى امرأة عارية. إنهم مغتصبو نساء، وتجار رق، والمرأة بالنسبة لهم ليست سوى آلة جنسية تفرخ أطفالا.

- لا، لا، لا يمكن أن أفعلها وأثبت في ذهنها هذه الصورة. ثم ربما غضبت مني وراحت تشكو إلى أخيها فماذا ستكون النتيجة؟ ولا يمكن لامرأة أن تغازل رجلا عرفته منذ أيام. ما الذي يجعلك تجزم بأنها راغبة فيك؟ ومن تكون أنت حتى ترغب فيك. أنت لست سوى عامل بسيط تحمل البؤس على كتف، والشقاء على كتف آخر. من الأفضل لك أن تعتبر هذا المشهد الذي أمامك مشهدا في حلم، ألم تحلم بفتيات كثيرات وحاولت أن تقترب منهن ثم في كل مرة يهربن منك، أو يحول دونهن حائل؟ ثم ماذا سيقول عنك أليس الذي كنت تحذره بالأمس من تجاوز حدود الأخلاق معها؟

- فلأكبت شهواتي إذن. وألجم غرائزي المندفعة كخيول مطهمة، وأطفئ لهيبي المستعر المتفجر كبركان فتي. لأفترض إذن أني أشاهد حلما. فالمرأة التي تغريني بثدييها وجسدها العاري ليست سوى حلم بكل تأكيد. لأغمض عيني حتى لا أرى شيئا.

أيقظتني من حلمي فجأة عندما استدارت إلي وقالت:

- لماذا لا تسبح معي؟

- لا يوجد لدي لباس استحمام. أجبت بخجل وتلعثم.

- وهل كان لدي لباس استحمام، ألم تر بأني أسبح بلباس داخلي.

عيناها كانتا تتكلمان بصمت. تقولان: ماذا تنتظر أيها الغبي؟ ها أنا بين يديك أشتهيك كما تشتهيني. لماذا لا نستغل فرصة نادرة في مكان فريد. هنا في هذا الحمام. هنا في هذا الماء الحار. تعال المس ثديي. سأدعك تقبلهما، وتأخذهما براحتيك، وتضمهما إليك، وتقبل حلمتيهما. تعال فهما يصرخان شوقا إلى شفتيك. تعال ألصق صدرك بصدري. وتحسس حرارة جسدي التي فاقت حرارة الماء. تعال قبل شفتي. أقضمني كتفاحة ناضجة. أنت تريد أن تقضمني، وأنا أريد أن أقضمك. تعال لا تدع الفرصة تفوتك أيها الغبي، فأنا أتحرق للمس جسد رجل شرقي. بل لرجل صحراوي بعينين سوداوين، وجلد قهوي محروق. وعضلات صقلها الشقاء. تعال أيها الغبي، ولا تدع الفرصة تفوتك. فأنا تواقة إليك وأنت تواق إلي. أقرؤها في عينيك كما تقرؤها في عيني. لا تدع نيران جسدي تنطفئ. تعال واقطفني كما تقطف وردة تفتحت مع الندى. اليوم أهدي

نفسي إليك. ولن أكون لك غدا. ماذا تنتظر؟ الوقت كحياة الدنيا محسوب عليك. إذا خرجت من هذا الحمام فلن تطمح ثانية لرؤيتي عارية أمامك. إنها فرصتك اليتيمة.

قلت في نفسي:

- لا مفر إذن من ذلك. وليذهب سلطان العقل إلى الجحيم.

- أين هي شجاعتك؟

- أين هي رغبتك الجامحة لجماع امرأة؟

- أما كنت تتمنى أن تلمس نهدا؟

- أما كنت تحلم أن ترضع شفتي أنثى؟ ها قد حان موسم حصاد الشفاه. ثم ماذا ستقول عنك إن لم تلب رغبتها؟

- مخنث بكل تأكيد.

- لا، لا، كل شيء إلا وصمة المخنث هذه.

- وماذا سيقول أليس عنك إذا علم بهذه القصة؟ سيجعلني مضغة في فمه. سيفضحني بين الناس بتهكمه.

وجدت نفسي محاصرا بشهوة تنهش أحشائي، وبلسعات سخرية أليس، وبعينيها اللتين تصرخان شبقا، وبثدييها المتدليين .كعنقودين ناضجين في أيلول، ورغبة جامحة للغوص في هذا الجسد العاري المشتعل كسعير الهجير في هذه الصحراء.

- لا، لا، يجب أن أغطس. يجب أن أغطس، لا مفر.

- ولكن كيف لك أن تجزم بأنها تريدك؟ ربما فقط هي تدعوك للسباحة لا غير.

- لا، لا، العين البصيرة لا تخطئ. انظر، انظر كيف تظهر مفاتنها أمامك. انظر كيف تتلوى كثعبان لتبرز ثدييها فوق الماء لمجرد الإثارة وهي تتظاهر بالعفوية. إنه مكر بنات حواء، إن مكرهن عظيم.

- انظر إنها تناديك، ها هي تشير بإصبعها إليك كي تأتي إليها. يا إلهي، هل فعلا تناديني؟

- نعم وجهت إليك سبابتها وهي تحركها بإشارة، تقول لك تعال.

- لا، لم يعد من المسألة مهرب. إنها الفرصة الأولى والنادرة لإثبات رجولتك. لقد حرمك بؤسك من حقك في الحياة كإنسان يتمتع بغريزة الجنس. أنت تحلم كل ليلة بنساء وهميات. يزرن حلمك. يضاجعنك في الخيال. الآن هاهي بين يديك كعروسة تنتظر عروسها في ليلة عرس نادرة. أقفز إلى الماء وخذها بذراعيك. اقفز ولا تخف، بعدك فليأت الطوفان.

- لا، لا، لقد نسيت، لقد نسيت شامة، ألا تعتبر خيانة لها؟

- بلى إنها خيانة لحبها ما بعدها خيانة. يجب أن أخرج من هنا في الحال. كل شيء ولا خيانة شامة. وكيف لم تخطر لي على بال. إنه الجوع الجنسي، أنساني حتى نفسي.

- ولكن أنت لم تتمكن حتى من تقبيل شامة ولو لمرة واحدة، إنه حب أفلاطوني من جانب واحد، فهي وإن باحت لك بشيء فلم تمن عليك بأكثر من نظرات إعجاب، ومن الاهتمام بك، هي تعرف بأنك تحبها. لكنك لا تعرف أنت أنها فعلا تحبك، ومستعدة للاقتران بك. ثم من قال لك إن أباها سيسمح لها بالزواج منك، فالبدو يرفضون الزواج من الحضر.

- لكن رب العالمين قال: وانكحوا ما طاب لكم من النساء، وإذا عدلنا فواحدة، وهل هناك رجل يمكن أن يعدل في مثل هكذا مسألة؟ حتى الأنبياء لم تعدل بها. أغطس ولا تخف، أغطس فاليوم خمر.

جمعت أشلاء شجاعتي المبعثرة. ها أنا ذا أمام امرأة تتفجر شهوة. كل جزء من جسدها العاري فتنة متحركة. وشهوتي لا تقل تفجرا.

هل أردعها؟

هل ألعب دور المتعفف؟ أم أترك غرائزي الطبيعية تأخذ حقها من الحياة. تنعم لأول مرة بلمس امرأة، وأي امرأة؟.

شبقي الحيواني كان يرد علي:

- اذهب أنت ومبادئك. عليك اللعنة. ما الحب إلا غلاف مزخرف بعواطف يدفع جسدين إلى اتحاد حيواني. أهي معركة بين الخير والشر؟ وهل من المقبول أن تترك أنثى على

شبقها، وأنت تنظر إليها وكأنك تتشمت بها، أليس عليك أن تلبي أيضا نداء الطبيعة الذي يصرخ في شرايينك؟ الأنا الدافعة إلى الخطيئة تكافح الأنا الداعية إلى الفضيلة. أنا الغريزة، وأنا العقل. أمضيت كل هذا العمر بعيدا عن الجسد الأنثوي. إنه الدرس الأول في التقاء الأجساد. اقطع رأس الهر من الليلة الأولى للتغلب على عسر معاشرة النساء. هل يمكن أن تدفن شهواتك أن تطفئ لهيبك كما تضع الماء على الجمر المتقد أمام هذا الجسد العاري المشع أنوثة وشبقا. ماذا سيقول عنك أليس إن لك زائدة لحمية لا غير لا تصلح إلا للتبول.

كان هذا النزاع يدور في رأسي. القلب يأمر دائما ما يرفضه العقل. قلبي صرخ قائلا:

- انطلق يا حيوان. فإلى متى ستبقى كفتاة عذراء تخشى المضاجعة وهي إليها تواقة. إلى متى ستبقى جاهلا لذة الجنس. لذة أن تمتص رضاب شفتي امرأة. ترضعهما بنهم كما كنت ترضع حليب أمك. تمرر كفيك فوق جلدها الناعم صعودا وهبوطا. تقبل عنقها العاجي. تشد جذعها إليك وتضغط بقوة ذراعيك كأنك تريد أن يتحد جسدها بجسدك لتصبحا جسدا واحدا هائجا مائجا. أقفز ولا تخف. أقفز ولا تخف. أقفز ولب نداءها وإلا سيأكل أحشاءك الندم.

نزعت ثيابي سريعا، قفزت. غطست. اقتربت منها. سارعت لالتقاط يدي. شعرت بحرارتها. لمستها كانت حريرا. عيناها تتلألآن. ترمقان بنظرات تحكي كل شيء دون تكلم. اقتربت مني. كان نداؤها الصامت يصم أذني. شفتاها تنبلجان عن أسنان كأسنان المشط استواء، وكفلقة اللفت بياضا. أنفها الدقيق المرفوع الأرنبة إلى الأعلى يبدو كأنف هرة شامخة. شعرت بسعير يجري في عروقي. وبضيق شديد في صدري. حاولت أن تعبث معي بالماء. ثم ارتمت سريعا بين ذراعي. حلمتا ثدييها التصقتا بصدري.

أخذتها بقوة حيوان ينقض على فريسة، ورحت أبادلها القبلات. ألثمها في كل مكان ظاهر من جسدها فوق الماء، وهي تتلوى لذة بين ذراعي، أحسب نفسي في حلم، وأنا أقبض على الحقيقة بيدي. كم كان بودي أن أصرخ بأعلى صوتي: يا ناس، يا ناس امرأة تنام على ذراعي. إنها الحقيقة. إنها بين يدي، هاهي يدي فوق جيدها المرمري، وشفتاي تكادان تلتصقان بشفتيها الورديتين، هاهما ذراعاها يطوقاني. وفخذاها تطوقان فخذي. لا مجال للشك. وها أنا أتحسس فرجها الملتصق ببطني. بل إنها تضغط بجسدها على جسدي.

الكبت الجنسي جعل من هذه الفرصة النادرة، حدثا هاما جدا، وكأن ممارسة الجنس هي لذة محرمة على البعض، ومحللة للبعض الآخر.

قالت:

- قبل شفتي.

شفتاها كلوزتين مقشرتين التصقتا بشفتي. أخذت رأسها براحتي، ورحت ألثم فاها يقطر عسلا. بيديها الناعمتين كانت تتحسس جسدي وتضمني بقوة ضاغطة إلى صدرها. بادلتها اللمسات كما بادلتني القبلات. ثم مدت يدها إلي، ومددت إليها يدي. كانت مرتي الأولى التي ألمس فيها فرج امرأة. من وصف أليس للفروج كان فرجا ريانا، كفلقتي التين الناضج، يكسوه وبر ناعم كوبر القعود، إذا طعنته طعنت في لبد وإذا سللت يكاد ينسد كما يقول الشاعر. شراييني كادت تتفجر. احتضنتها وأنا لم أعد أطيق انتظارا. قادت خطواتي بيدها سريعا. بتنا كسحابتين ساريتين باتجاه بعضهما فتداخلتا واتحدتا حتى باتتا غيمة واحدة تهزها شرارة البرق وعواصف الرعد والريح. لفت ساقيها حول جذعي وألصقت شفتيها بشفتي. سكنت إلي، وسكنت إليها. ثم راحت تتنهد. الماء الساخن كان يغمر جسدينا حتى الصدر. ويهتز متموجا مع اهتزازاتنا. النشوة

أخذت منا كل مأخذ. نسينا أنفسنا. فقدنا الشعور بالوجود. حلقنا عاليا كأننا كنا مستلقيين على ظهر ناقة خفيفة الخطى في صحراء مرملة، ثم على ظهر مركب في بحر هائج. لم يعد بيننا كلام. في مثل هذه اللحظات يفقد الكلام معناه. لغة الحواس أبلغ من أي لغة اخترعها الإنسان. إنها لغة الطبيعة. لغة غريزية يتقنها كل حي دون تعلم. هي اللغة الأولى. لغة الحاجة إلى الجنس الآخر. إلى الضد. هي لغة الأضداد، وليست لغة التجانس. هي صيرورة البقاء. هي كنه الحياة. جسدها الذي ينضح شهوة وحرارة كان يحاكي جسدي المتطابق الشهوة والحرارة. جسدان يتحركان بقوة شبق ما بعده ولا قبله شبق. كانت أصابعي تكاد تنغرس في إليتيها وأنا أجذبهما إلي بكل قوة. وفمي يلتصق بفمها لا يستطيع منه انفكاكا. هكذا كنت أقبض عليها كما يقض مفترس على فريسة.

أيقظت غفلتي بصرخة رددتها جدران الغار مرات أخرى، صرخة تردد صرخة، ثم راحت تعض على شفتي وتغرس أظافرها في ظهري. همدت لما انقضى وطرها علمت أن سحابتها أمطرت. وكم أمطرت سحابتي مرات ومرات في أحشائها فشعرت براحة كبرى لم أشعر بها من قبل. كأني كنت أنوء تحت حمل ثقيل لزمن ثم ألقيته عن ظهري.

نظرت إلي نظرة الأنثى السعيدة وسألت:

- هل كنت سعيدا معي؟

- الكلام يعجز عن وصف السعادة التي أنا فيها. هذه هي اللحظة الوحيدة التي شعرت فيها بأني أحيا منذ ولادتي. قلت فيلسوفكم الكبير ديكارت يقول: أنت تفكر إذن أنت موجود، كان الأجدر به أن يقول: أنت تحب إذن أنت موجود. فالحياة دون حب لا تساوي شيئا. فمن أجل الحب نقطع المحيط الأطلسي سباحة، ونمخر عباب الربع الخالي سيرا، ونصعد قمة هيملايا زحفا، ونبتر الوريدين ونموت دون أن نأبه للموت.

نظرت إلي نظرة إعجاب ورضى ثم قالت:

- كم أني سعيدة معك.

عندما خرجنا من الغار كان الليل في بداية الهزيع الأول. وقد حجب الصحراء. قالت وهي تلف ذراعها حول عنقي وتقبلني قبلة أخيرة:

- لقد نسينا أنفسنا، انقضى الوقت سريعا دون أن نشعر.

قلت:

- معك شعرت أني رجل آخر. لقد فضضت عذريتي الطويلة. وضعت قدمي على أول طريق اكتشاف مجاهل المرأة.

تمعنت في طويلا ثم قالت:

- كنت أخمن في نفسي أنها كانت المرة الأولى بالنسبة لك، فعلامات العذرية الذكورية تظهر جليا على وجهك، وكم أنا سعيدة أن أكون أول امرأة في حياتك. وأنا فخورة بأني فضضت بكارتك.

قلت في نفسي:

- اليوم بات من حقي أن افتخر أمام أليس. لم يعد يفوقني بشيء. بل إني أفوقه بدرجات. لقد فزت بقلب امرأة برغبتها لأنها أعجبت بي. وليس كمومساته اللائي يعاملنه كزبون. يتحسسن جيبه قبل أن يتحسسن أي شيء آخر. هو يشتري لمسة نهد، وأنا جاء النهد إلي بنفسه ليقول لي ألمسني. هو يشتري لذة من بائعة هوى. وأنا لم أبع، ولم أشتر. بادلت حبا بحب، وجنسا بجنس، وجسدا بجسد. والأجساد العارية بمحض إرادتها ورغبتها كالأكفان ليس لها جيوب.

قالت:

- ربما تأخرنا على أليس وجاك.

قلت:

- ما اجتمع سكيران إلا وكان المجون ثالثهما. ستجدينهما يمرحان ويعربدان ويكيدان أبا حفص كيدا.

ضحكت كثيرا ثم قالت:

- ليكن ما حدث سرا بيننا .

أجبت:

- سرنا في بئر عميقة.

سرنا وفي سري يختلج شعور غريب بخوف من الآتي المجهول المكنون، إنه الإحساس بالخطر قبل أن يكشف عن وجهه. كان القدر قد وضع خططه الخبيثة بكتمان شديد وكأنه كان يريد أن ينتقم مني لذنب ما، أو لأن حسابات الأقدار لا تطابق دائما حسابات الأشخاص. بل لها حساباتها الخاصة تأتينا بها فجأة وتباغتنا مباغتة من يتربص بالآخر. ولا مفر مما ترسمه الأقدار. هكذا كانت تقول لي حاستي السابعة التي ورثتها عن أمي.

12

- يا كلب تتعدى على أعراض الناس. وتضاجع الأجنبيات اللائي يتجسسن على الوطن ويسرقن ثرواته، أنت متهم بالخيانة العظمى. قالها المحقق الضبع بلؤم شديد.

- الخيانة العظمى؟!!! قلتها مندهشا.

- اخرس يا كلب ولا تفتح فاك. نعم الخيانة العظمى، ما يدريك أنها جاسوسة متنكرة، نحن سنتهمك بالخيانة العظمى إذا لم تبح بمكان الكنز.

عندما قلت له بأننا دخلنا حمام زنوبيا معا. أمرني بأن أروي كل ما حصل في الحمام بالتفصيل الدقيق وكأنه كان يريد أن يتصور المشهد ويتلذذ بسماعه. لم أرو ما فعلت. أنكرت ما حصل.

- لم أضاجعها سيدي.

- كذاب، هي قالت في محاضر التحقيق بأنك أخذتها إلى حمام زنوبيا.

- نعم، ولكن مجرد زيارة للمكان، ليس أكثر.

بعد أن يئس مني أمرني قائلا:

- أنزع ثيابك.

سألت بتعجب:

- ماذا تقول سيدي؟

صرخ في وجهي قائلا:

- أنزع ثيابك يا كلب ألم تفهم الكلام؟

لم أكن أتوقع ماذا يريد أن يفعل بي. ضربني محقق ثان، كان يقف خلفي، على رأسي ضربة قوية وقال:

- نفذ ما طلبه منك سيادة الضابط يا شرموط.

رحت أنزع ملابسي ببطء وأنا أنظر إليه. شعرت برجفة تجتاح جسدي العاري. الخوف أخذ مني كل مأخذ. أسناني بدأت تقضقض كالمقرور. أوصالي ارتعدت وكأني أمام حيوان مفترس يريد الانقضاض علي، وأنا أعزل اليدين. لا سلاح لي أمام هؤلاء القتلة، السفلة سوى التضرع إلى السماء لتنقذني من براثنهم.

أخذ الضبع زجاجة من زاوية الغرفة. وضعها أمامي وقال:

- أجلس عليها.

شعرت ببرد شديد. لم أعد أقوى حتى على الكلام. ولأني تأخرت بتنفيذ الأوامر انهال علي ضربا بقضيب الخيزران. ألم الضرب بالقضيب لا يشبهه ألم آخر. الضرب بعنف يقصم الظهر، يفتت اللحم تحت الجلد. يجعلك تصرخ بكل ما أوتيت من عزم. وعندما تتوالى الضربات في نفس المكان تخال أن سكينا تشق جلدك أو نارا تحرق جسدك. لكي تتخلص من الضرب تضطر للجلوس على القنينة بمحض إرادتك. عندما ينتهي العنق وتصل إلى بداية بطنها تشعر بألم لا يقاوم، ففتحة الشرج تكاد تتشقق. المحقق يضغط على الكتفين كي تنغرس القنينة أكثر في أحشائك، عندها لا أحد من الرجال يقوى على المقاومة. يطلب النجدة يتوسل بكل الآلهة والأنبياء. يطلب الرحمة. ويقر بكل شيء. ويبقى الألم يلازمك أياما بل أسابيع . حتى أنك لا تتمكن من السير بشكل طبيعي. وكان جميع السجناء يعرفون بأي وسيلة تم فيها التعذيب لمجرد رؤية الطريقة التي يمشي بها السجين، ويقولون لك:

- كان الله في عونك، فعلوها بك هؤلاء السفلة.

ذاك اليوم لم ينته الأمر عند هذا الحد. رغم أني توسلت إليه، وقبلت يديه، وتضرعت إليه كما يتضرعون إلى الآلهة، وأكدت له أني رويت له كل شيء بالتفصيل.

نظر الضبع إلي بعينين تنضحان حقدا ولؤما وقال: لقد تمتعت بنكاح هذه الأجنبية أليس كذلك أيها الحقير؟ قل الحقيقة.

- ككل رجل يجامع امرأة سيدي.

ثم تابعت بصوت مرتجف جراء الرعدة في أوصالي قائلا:

- إنها لحظة السعادة الوحيدة التي شعرت بها باللذة في حياتي، ولو أني كنت أعلم بأني سأعاقب عليها شديد العقاب وأتهم بالخيانة العظمى لما فعلتها سيدي.

- احك لي بالتفصيل ماذا فعلت معها. ولا تنس شيئا. وأنا لن أؤذيك.

لم يكن من الدخول في تفاصيل حكايتي بد. فصلت له ما جرى بيننا بكل دقائقه. كان ينصت باهتمام. وكلما توقفت عن الكلام كان ينهرني ويقول:

- أكمل يا شرموط أكمل.

عندما وصلت إلى نهديها قال:

- صفهما لي

أجبت:

- هما ثديا امرأة. كأي ثديين آخرين سيدي.

- ألم تر سواهما في حياتك؟

- لا.

- كم أنت مغفل أيها المخنث. أنت مخنث بكل تأكيد وتحتاج لمن ينكحك. صفهما لي على أية حال.

- واحدهما ملء الكف. صاعدا الحلمتين. مستديران طريان كقرصي عجين قبل الخبز سيدي.

عندما أتيت على القصة بأكملها كاد أن يغمى علي. نظر إلي بحقد واضح في عينيه وكأنه كان يحسدني على مغامرتي اليتيمة ثم قال:

- طريان كقرصي عجين قبل الخبز هآآآ، والله سأجعلك رغيفا في تنور.

وحمدت الله أنه لم يسألني عن وصف فرجها فماذا سيكون عقابي لو قلت له إنه ريان كفلقتي تين ناضج، وإذا طعنته طعنت في لبد وإذا سللت يكاد ينسد..

التفت الضبع إلى المحققين الآخرين وقال:

- أربطوا إحليله بطرف خيط القنب، واربطوا الطرف الآخر بأكرة الباب. سأؤدب هذا المخنث، الحقير تأدبا لم يره في حياته.

بعد أن شدوا الخيط وبات كوتر العود، وأنا مشدود الجسد على كرسي، التفت المحقق إلي وهو يعب من لفافة

غليظة وينفث دخانها في وجهي ثم قال:
- بهذا القضيب غشيت هذه الأجنبية هاآ.

وضرب بعصا على الخيط فشعرت معها بأن أعصاب جسدي كاملة تردد اهتزازات الوتر المشدود، وكأن سكينا تحز في عضوي.
- الآن قل لي أين خبأتما الكنز أنت وأليس قالها بعنف، ولا تنس أنك متهم الآن بالاغتصاب وبالخيانة العظمى، وحكمهما الإعدام.
- الاغتصاب !! يا سيدي كانت المسألة بمحض إرادتها
- نعم الاغتصاب، أنت اغتصبت هذه الفتاة المسكينة، ولخوفها ألا تقتلها طاوعتك.

أقسمت له بكل الأنبياء والرسل بأني لم أغتصبها، ولا أعرف ماذا حل بالكنز، وأن أليس أخذه وهرب. بعد عدة ضربات على الخيط الوتر، وقضيب الخيزران، لم أعد أشعر بنفسي، سقطت مغشيا علي، وغبت عن الوعي.

13

عندما عدنا إلى المخيم كان أليس وجاك قد افترشا بساطا يتوسطه حصير مستدير عليه أنواع مختلفة من الأطعمة جلباها من الفرقلس، وكأسان مترعان بالعرق، يحاذيهما بطحتان نصف فارغتين، وقد بدت النشوة ظاهرة عليهما، وأبو حفص ينظر شزرا من بعيد ويقول:

- كنا بسكير فبتنا بسكيرين. لعن الله هذا الزمن، زمن العهر والعربدة.

رد عليه أبو عسكر قائلا:

- لكم دينكم ولهم دين يا أبا حفص. لماذا تحمل هذه الدنيا على أكتافك وترهق نفسك. أتريد أن تدخل الناس الجنة بالسلاسل وبالقوة، هناك من يريد أن يذهب إلى جهنم.

أجابه أبو حفص سريعا:

- وبئس المصير.

التفت أليس إليه وقال وهو يرفع كأسه في الهواء :

- صدق والله أبو عسكر. يا أخي إني أريد أن أسكن جهنم إلى جانب مارلين مونرو، وبريجيت باردو، وجينا لولو بريجيدا. وضحك مقهقها ثم دلق الكأس في حلقه وصاح قائلا:

- بصحتك أخي جاك.

رد عليه أبو حفص:

- لن تجد هناك إلا العاهرات بأشكال تشبه رؤوس الشياطين كرأسك يا شيطان.

ضحك أبو عسكر وأردف قائلا:

- لا تنس أن جهنم لا تحتوي خمرا، فالخمر تجده في الجنة فقط.

نظر أليس إليه ثم قال:

- أتريدون حرماننا من الخمر دنيا وآخرة. هذا ليس بعدل. لهذا السبب فانا أشرب دائما لأرتوي. كأسا للدنيا وأخرى للآخرة. فضحك الجميع بمن فيهم أبو حفص فقد تفتقت شفتيه عن ابتسامة صعب عليه كبتها.

ذاك المساء، بالنسبة لي، الصحراء تحولت إلى جنة، السماء تحولت إلى كرنفال ألعاب نارية، الشهب تقدح من

كل جانب، هل لأن السماء سعيدة مثلي، أم أنها في كرنفال ليلي مستمر، وأنا لم ألحظ ذلك من قبل؟ كنت أنظر إلى ماري، وتنظر إلي باستمرار، كأن أحدنا كان يقول للآخر:

- ما كان أحلى عناقك، وقبلاتك، وما كان ألذ الاقتران بجسدك. كم تمنيت أن تتكرر مثنى، وثلاث، ورباع. ولكن أين؟ وكيف؟ ومتى؟

لم أكن أصدق نفسي، هل حقا فعلتها؟ أنا أنا مالك حصيرة، أبو البؤس والشقاء، الذي لا يملك في جيبه شروى نقير، يضاجع هذه الأوربية الجميلة!! هذه الزهرة النادرة في هذه الصحراء!! لا، لا بد أني كنت أحلم.

ثم أنظر إليها فتبتسم بسمة فيها كل سمات الأنوثة وكأنها كانت تفكر بما كنت أفكر فيه. وكأن خيطا خفيا وعميقا يصل عقلينا فأتيقن أنها كانت حقيقة واقعة.

آه ما أجمل الحب والشباب، وأقبح الشقاء والإفلاس. قلت في نفسي لو أني كنت غنيا لأهديتها شيئا ما، ولكن ماذا يمكن أن أهديها في هذه الصحراء سوى قبلاتي الحارة. ولكن ربما ما أهديتها هو الذي كانت بحاجة إليه. وهي لم تكن تطلب أكثر من ذلك.

في اليوم التالي جاءتني مبكرا سائلة:

- هل تعرف أين يقع قصر الحير؟
- نعم بكل تأكيد، هل تريدين أن تقومي بزيارة للمكان؟
- سنقضي يوما كاملا هناك، لأننا سنقوم بدراسته وتقديم هذه الدراسة لطلبتنا في باريس.
- القصر يبعد حوالي ستين كيلومترا ولا بد من التزود بالماء والزاد.
- لقد حضرت كل شيء، لننطلق الآن.

الصباح كان باردا، الشمس لم تكن قد أشرقت بعد. السماء مازالت تنثر نجومها وتقدح شهبها، والصباح ينشر أول حزم النور، أليس وجاك يغطان في نوم عميق بعد سكرة كبيرة. أبو حفص أنهى صلاة الفجر وعاد للنوم، أبو عسكر يرسل شخيرا ثقيلا.

انطلقنا بسيارتها نحو قصر الحير. الطريق إليه ليست محددة المعالم، بعض الآثار لعجلات السيارات تظهر حينا ثم تختفي أحيانا. التوجه إليه يتم بالسليقة، كالحيوانات والطيور التي تسلك طريقها عائدة إلى أوكارها، أو أعشاشها. فلا معلم، ولا طريق، ولا شيء يرشدك إليه سوى التكهن بموقعه وسلوك الاتجاه المفترض الذي يتطلب معرفة جيدة، وخبرة بسلوك الطرقات في الصحراء. وقد بت خبيرا بها

كأي بدوي لفرط ما تحركت فيها في كل الاتجاهات وخبرت أطرافها المختلفة. بين الفينة والفينة كانت تتوقف وتضع إشارات بطبشور أحمر على بعض الأحجار التي تصادفنا.

- لماذا تضعين هذه الإشارات؟

- سأعود غدا مع جاك لأنه يرغب أن يرى القصر أيضا، ولا أريد أن أطلب منك مرافقتي مجددا.

مع مداهمة أنوار الصباح وشروق الشمس كنا على مقربة من القصر التفتت ماري إلي وقالت: شكرا على ما فعلت معي البارحة، كانت من أجمل لحظات حياتي، ذكرى هذا النهار سترافقني العمر كله. وإني أشكرك على مساعدتك لي في المجيء هنا، فلولاك لا أعرف كيف كنت سأصل إلى هذا القصر.

- ولكن لماذا تهتمين بهذا القصر بشكل خاص؟

- لان والدي كان ضمن فريق عالم الآثار شلومبيرجير الذي قام بتنقيبات كثيرة في تدمر وقصر الحير، وقد حدثني طويلا عن هذا القصر وعن تدمر، ولهذا السبب جئت إلى هنا لأتبع خطوات والدي، وأرى بأم عيني ما كان يحدثني عنه، خاصة وأني ورثت مهنة التنقيب عن الآثار منه، وقد عشقت سوريا دون أن أعرفها لكثرة الأحاديث عنها في البيت، لقد

رأيت صورا كثيرة عنها، وقرأت الكثير عن تاريخها أيضا.
- يسعدني أن أرى مواطنا أجنبيا يهتم ببلادي لثقافتها، وحضارتها، وليس لثرواتها، وموقعها الاستراتيجي. يؤلمنا كثيرا نظرة الغرب لنا. إنهم ينظرون إلينا كدجاجة محمرة شهية الالتهام دون أن يعيروا اهتماما لمشكلات شعوبنا، وحاجياتهم لتطوير أنفسهم. إنهم يبحثون عن استغلالنا والهيمنة على مقدراتنا فقط.

صمتت وكأنها لم تسمع ما قلت، واكتفت بهز رأسها كدلالة على موافقتها.

عند بوابة القصر وقفت مذهولة، كانت تردد دائما:
- يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي. كيف يمكن لمثل هذا القصر أن يبنى وسط هذه الصحراء، من أين أتوا بكل هذه الحجارة وكيف أوصلوها إلى هذا المكان، لا بد أن آلاف قوافل الجمال والبغال والحمير تقاطرت على هذا المكان تحمل الحجارة والطين، وكم من عامل عاش هنا لسنين لاستكمال البناء، وأي مهندس عبقري قام بوضع هذا المخطط، وهذه الزخارف البديعة.

أخرجت خريطة من حقيبتها وراحت تنظر إليها بكثير من الاهتمام. ثم أخرجت مقياسا متريا وبدأت تقوم بقياس

الأضلاع، والأبراج، والجدران، والنوافذ، والأبواب. بعد عملية القياسات الدقيقة الطويلة والمعقدة، رسمت مخططا دقيقا للمكان، لاحظت اهتمامها بزاوية معينة داخل القصر بعد أن حددت مكانها بدقة. وضعت عليها علامة.

قبل أن يحل الظلام عدنا أدراجنا إلى المخيم. فور وصولنا سمعت جاك يصرخ في وجه ماري ويعنفها لأنها ذهبت إلى القصر دونه، أليس الذي كان يحضر كعادته عشاءه وصمني بالخائن قائلا:

- لقد أغرتك الفرنجية أيها الوغد، هل نكحتها؟ أم مازلت تحوم حولها كدب حول خلية عسل؟ آه يا مخنث، لو كنت مكانك لضاجعتها منذ زمن.

- أرجو أن تهتم بشؤونك فهذه مسائل شخصية تعنيني دونك.

- منذ أن جاءت هذه اللعينة، دبت الفرقة بيننا، غدا سأطردها من المخيم.

- لا، إياك ثم إياك أن تطردها، هي ضيفتنا، وعلى أية حال أنا المسؤول في هذه الورشة، وأنا الذي يقرر إن كنا سنطردها أم لا.

عقب أبو حفص قائلا:

- والله صدق السكير. هذه أول مرة يقول فيها كلمة حق. يجب أن نطردها مع أخيها. فالضيف يكون ذهبا، ثم فضة، ثم قصديرا، والأفضل أن يرحلا قبل أن يفسدا أجواءنا. على أية حال حدسي يقول لي إن شرا ما سيحل بنا بسببهما. الأفضل أن يغربا عن وجهنا، ألا يكفينا سكير واحد، فنزيده سكيرا آخر ومومسا.

منقذ طل من باب الخيمة وقال:

- أرجو أن تدعوا مالك وماله، لا تنسوا أنهما ضيفانا، فأين هي عاداتنا في قرى الضيف؟

أسكته أبو عسكر بقوله:

- كلهم جواسيس، استعمرونا، وقتلونا وقتلوا أولادنا، وخانوا عهودنا فليذهبا إلى الجحيم. حتى متى سنبقى مغفلين؟

تنبهت ماري إلى ما كان بيننا من شحناء. فجاءتني سائلة عن الأمر.

- ليس سوى سوء تفاهم بيننا.

ذاك المساء لفني حزن عميق، وسيطرت علي رغبة في الابتعاد عن المخيم. شعرت أن الخلافات بدأت تدب في الفريق جراء هذه المرأة الأجنبية. امتطيت الفرس التي كانت بجانب الخيمة وتوجهت صوب ديار شامة.

عندما اقتربت من خيامها أسرعت كلابها في العدو نحوي دون أن تنبح، أو تكشر عن أنيابها، بعد أن باتت تعرفني حق المعرفة لكثرة ما ترددت على المكان.

استقبلتني شامة وأمها بحفاوتهما المعتادة. شعرت بعقدة ذنب كبيرة لمجرد رؤيتها أمامي بوجهها الملائكي، وصفاء سريرتها. بحاستها البدوية وفراستها الثاقبة لاحظت حزني وحرجي.

- ما لك يا مالك؟

- لا شيء، مجرد تعب، وخلاف مع زملاء العمل.

- دع عملك وتعال أعمل معنا في الرعي. ستكون راعيا مثقفا تحبه الأغنام والإبل، ثم أكملت ضاحكة والبدو أيضا.

- أتمنى ذلك.

- تجد لدينا لبنا يميرا، وماء نميرا.

- هناك ما يهمني في هذه الصحراء أكثر من اللبن والماء يا شامة.

نظرت إلي بعينيها القاطعتين، دون كلام، مطولا، ثم غضت طرفها وقالت بصوت حزين:

- خيامنا مشرعة لك، تعال إلينا متى أردت.

تلك الليلة جافى النوم جفني، وأنا في الرواق أنظر إلى السماء التي لم أعد أراها كرنفالا كما رأيتها بالأمس، فلا النجوم نجوم، ولا القمر قمر، ولا الشهب شهب. كلها باتت باهتة. في داخلي نزاع عنيف بين قوى شامة وقوى ماري. هذه تقول: أيها الخائن. لقد خنت حبك النقي بمضاجعة امرأة عابرة سرير. كانت تواقة لجسدك، لرجولتك، لحرارتك المتدفقة. كنت لعبة بين يديها. عرفت كيف تستدرجك إلى أحضانها كما يستدرج الصياد السمكة بطعم على صنارة. لقد أكلت الطعم ولكن لم تتخلص من الصنارة. إنها في حلقك. وستبقى في حلقك لأنها ستجرك إلى الموت.

وتلك تقول: لا لم تكن خائنا. إنها لحظة سعادة ولن تتكرر. ولا يوجد لك أي ارتباط جدي بشامة. إنه حب قيسي سيوصلك إلى الجنون كالمجنون عندما تراها تتزوج رجلا آخر. ألم تتزوج ليلى ابن عمها نزولا عند رغبة والدها رغم حبها لقيس. وشامة ستتزوج من يرغب والدها أن يزوجها منه. فهي كليلى بدوية ابنة بدوية ولن تقبل بزوج سوى زوج بدوي مثلها. ومن أين لك مئة بعير كمهر لشامة الذي سيطلبها والدها.

نور الصباح المنبعث من وراء الأفق، انبسط على الصحراء، وتسلل إلى جفني. كان الصباح باردا، السماء يصبغها الفجر بلون البحر في يوم وضاح. وضحة تضرم النار في الحطب، شامة تحلب شاة، أطلت النظر إليها، كم كانت جميلة وهي تجلس القرفصاء، جسدها الممتلئ يرسم منحنيات بديعة فاتنة يثير في جسدي سعير الشهوة. شعرها المرتمي كغمر من سنابل على ظهرها تتلوى نهاياته مع الريح الخفيفة، لوحة جمال فريدة في هذه الصحراء. التفتت إلي وكأنها شعرت بأني أراقبها وقالت:

- أحس بضيق شديد في صدري اليوم، وحدسي يحدثني بشؤم آت. كحاسة أمك السابعة. لدي شعور بأن سوءا ما سيقع.

صمتت قليلا ثم أردفت قائلة:

- أبق إلى جانبي ولا تغادر اليوم وكأن هاتفا يهتف بي بأن هناك من يتربص بك شرا.

كانت هذه آخر صورة رأيتها لشامة والتي لم تفارق خيالي من بعد. وكم لمت نفسي أني لم أبق إلى جانبها ذاك اليوم كما طلبت مني، لأني لو كنت فعلت لتبدل كل شيء، وتحاشيت كل الآلام التي مررت بها من بعد. كلامها أكد

لي بأن حاستي السابعة لم تخطئ. فأنا أيضا كنت أشعر بيد حديدية تقبض على قلبي، ترددت قليلا في تلبية طلبها رغم رغبتي الجامحة بالبقاء معها. إلا أن قوة غامضة كانت تدفعني بعنف للعودة إلى المخيم. إنها يد القدر التي كانت تحيك خلسة خطتها في الخفاء.

على غير عادتي كنت ذاك الصباح لا أقوى على الكلام. كنت تواقا لأضمها إلى صدري بكل ما أوتيت من قوة وكأن حدسي كان يقول لي إنك لن تراها بعد اليوم. كان صمتي يثير قلقها أكثر، رجاؤها المتكرر كان كأنصال حادة تغرس في جسدي. بعد أن يئست من إقناعي اقتربت مني وقالت:

– اذهب إن شئت ولكن خذ حذرك إني لأرى سوء طالع، وفراسة البداوة قلما تخطئ.

انطلقت عائدا إلى المخيم، وكأني كنت على يقين بأني لن أرى شامة بعد اليوم. في المخيم كان أليس بانتظاري ليبلغني بأن ماري وجاك غادرا المكان باكرا دون أن يشعر بهما أحد، منقذ الذي شفيت ساقه اقترب مني وقال:

– جاءني طلب الالتحاق بالكلية العسكرية، ويجب أن أغادر المخيم . ثم قبض على يدي وقال:

- لن أنسى فضلك وآمل أن نلتقي مجددا.

أنقدته مبلغا من المال وقلت له:

- استعن به على عوائد الدهر. وفقك الله، فأنت بمثابة أخ لي.

أخذ المال ممتنا. عانقني بحرارة وعيناه تدمعان. تقدم أبو حفص وأخذه من ذراعه وقال له:

- خذ حذرك يا بني. بارك الله خطاك. ونحن بانتظارك.

جمع منقذ أمتعته وقبل الجميع باكيا، واصطحبه أليس إلى طريق تدمر ليرحل إلى حمص.

في خيمتي كنت جالسا شارد الذهن، أفكر بشامة تارة، وماري تارة أخرى، الأولى أهدتني حبا صافيا، نقيا، لا يشوبه أي حسابات أخرى سوى التقاء روحين في هذا الفضاء الخالي من كل شيء عدا الشمس والريح. والثانية بادلتني جسدا بجسد فض بكارتي وأكمل رجولتي. فكيف العدل بينهما؟

لأول مرة ضاقت الصحراء بي، واجتاحتني رغبة في الرحيل بعيدا فقلبي يتمزق مزقا ولا أجد مخرجا. دخل أليس وسألني متهكما:

- هل أنت حزين على فراق عشيقتك الشقراء؟

- أنا حزين منذ الأزل، وهذا حزن جديد يضاف إلى أحزاني . أصبحت مالك الحزين قولا وفعلا.

- لا تحزن يا صاح على امرأة. فلا يوجد في هذا العالم امرأة يحزن عليها. كلهن عقارب سامة، تعطيك كأس لذة بيد، وتجرعك كأس سم بالأخرى. وهذه السيرة ورثنها عن جدتهن حواء. ألم تغو آدم المسكين في وقعة التفاحة، وحرمته الجنة، وجلبت إليه لعنة الله. ومنذ تلك الوقعة وقعنا في حبائل النساء اللائي لا يرحمننا أبدا، وكما كان يقول والدي إذا أشعلت العشرة شمعا لهن لن يكنن راضيات. ثم ضرب على كتفي وقال:

- إذا غدرت حسناء وفت بعهدها فمن عهدها ألا يكون لها عهد

- بالله عليك، ليس الوقت لسماع حكمك وأشعارك.

- أيها الأديب. العاشق يهوى الشعر. وأنت الآن مزدوج العشق. واحدة تيمتك، والأخرى هيمتك، فانشد لهما قصائدك الغزلية. هل عرفت الآن لماذا أفضل المومسات. لأنهن لا يجلبن المتاعب سوى للجيب، ومتاعب الجيب أقل وطأة وعذابا من متاعب القلب وعذابه.

- كفاك هذرا يا صاح. دع عنك لومي، إن قلبي يحدثني بأن ماري وجاك توجها نحو قصر الحير.

- وما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

- قالت لي البارحة بأنها ستزوره مع أخيها. وقد لاحظت البارحة بأنها كانت مهتمة جدا بالقصر، وكأنها كانت تبحث عن شيء ما.

- وما هو هذا الشيء؟

- لا أدري، أمضت وقتا طويلا في إحدى زواياه وهي تأخذ بعض القياسات.

- ألم تقل لك شيئا عما تبحث عنه؟

- كانت في يدها خريطة تنظر إليها تارة ثم إلى المكان تارة أخرى. لم أفهم منها شيئا.

انتفض واقفا وقال:

- لنذهب ونر.

انطلقنا مسرعين صوب قصر الحير. قلت:

- انظر إلى هذه العلامات الحمراء على الطريق. هي التي وضعتها كي تستهدي بها على المكان دون عناء.

على مقربة من القصر، توقف أليس وقال:

- لنترجل هنا حتى لا يشعران بوجودنا إن كانا فعلا في القصر.

تسللنا متخفيين وراء جدار بعد أن لمحنا عن بعد سيارتهما. اقتربنا بحذر شديد، كنا نسمع ضرب معول.

التفت أليس إلي وقال:

- إنهما يحفران في الأرض حفرة.

- ولماذا يحفران؟

- أيها الغبي إنهما يبحثان عن شيء ما، ربما عن آثار قديمة. ألا تعلم أن أرض سوريا مليئة بالآثار والكنوز، وهما عالما آثار؟

- صدقت. لقد قالت لي بأن والدها كان يعمل مع عالم الآثار شلومبيرجير في هذا المكان إبان الانتداب.

- إذن لا بد وأنهما يبحثان عن آثار.

- نعم، ولكن هل كانا على علم بأن هذا المكان تحديدا يحتوي على آثار؟

- يا حمار، ألم تقل لك بأنها تعمل كمنقبة عن الآثار وكان في يديها خريطة؟

- بلى، لقد فأتتني هذه.

- لندعهما يكملان عملهما بهدوء، ثم نرى ماذا سيخرجان من هذه الحفرة.

كان أليس على غير عادته هادئ الأعصاب لكنه كان متحفزا، وكأنه كان على موعد مع مجهول سيقلب حياته رأسا على عقب. ضربات المعول مستمرة، كنت أسرق بعض أطراف حديث بين ماري وجاك. سمعته يقول:

- على الخريطة كتب والدك أنه ربما يكون على عمق مترين. مازلنا في المتر الأول. دعيني أستريح قليلا.

- يجب أن تسرع لربما فاجأننا أحد بوجوده واكتشف أمرنا.

- من سيمر من هنا في هذه الصحراء الآن؟

- لا تنس أن البدو يتزودون بالماء من بئره.

- إنه وقت الهجير. لا أحد يتحرك. الجميع يجلسون تحت ظلال خيامهم. هؤلاء القوم الذهب تحت أقدامهم وهم غافلون عنه، وإذا وجدوه لا يحسنون التصرف به. نحن أولى به. النفط كان تحت أخفاف إبلهم لآلاف السنين وهم لا يعلمون عنه شيئا حتى أتينا واكتشفناه لهم. إنهم في نهاية التخلف. ولا تليق بهم هذه الثروات فهاهي تصرف على موائد القمار والمومسات في العواصم الغربية، وبناء القصور في كل مكان.

- أحفر يا جاك أحفر فالوقت يداهمنا، لا تنس أن الطريق أمامنا بعدها طويلة.

كان أليس الذي يسمع ما أسمع ولا يفهم شيئا يسال بتلهف:

- ماذا يقولان؟ ماذا يقولان؟

- يبدو أنهما يبحثان عن شيء ما فعلا.

- كما قلت لك إذن.

- نعم، أنت على حق، لننتظر قليلا.

مر الوقت بطيئا ثقيلا، ونحن ننتظر بتلهف، ضرب المعول لم يتوقف، الحرارة تزداد ارتفاعا. التفت إلي أليس وقال:

- الآن فهمت لماذا هما كانا تائهين في الصحراء. لقد كانا يبحثان عن قصر الحير وتاها في الصحراء. ولو لم ننقذهما لماتا عطشا، أو أكلتهما الوحوش. يا ليت تركنا الوحوش يتلذذون بهذه الوليمة الشهية.

الحفرة اتسعت، جاك يحفر بهمة ونشاط. ماري تقف على حافة الحفرة تقود عملية الحفر. فجأة توقف جاك عن الحفر وقال:

- هناك شيء ما. بعد دقائق أخرج جرة ورفعها بصعوبة لثقل وزنها. ماري جرت الجرة وحاولت فتح فوهتها.

جحظت عينا أليس عندما رأى قطعا من الذهب تلمع تحت أشعة الشمس.

- هل ترى ما أرى؟
- نعم أرى ما ترى؟
- ماذا نفعل إنهما يسرقان كنوزنا؟
- انتظر قليلا حتى نرى ماذا سيفعلان.

بعد قليل جرت ماري جرة ثانية، ثم ثالثة. ثلاث جرار مليئة ذهبا وحليا.

التفت أليس وقال:

- إنهم يسرقون ثرواتنا. أنظر. الجرار وحدها فارغة تعد ثروة ثمينة، فكيف الكنوز التي تكتنزها.

لن أدعهما يأخذان ثروة بلادي.

خرج جاك من الحفرة مسرعا وبدأ بردمها بهمة. ثم أمسك بالجرار بمساعدة ماري لنقلها إلى السيارة. قفز أليس من مكانه فجأة وانطلق نحوهما وهو يصيح:

- أيها اللصوص. أيها اللصوص. يا أولاد الفاعلة، تسرقان ثرواتنا

ثم أمسك بالجرة وراح يشدها من بين يدي جاك. رفسه جاك على بطنه. أليس وجه لكمة إلى وجهه. أمسك جاك

بالرفش الذي كان يحفر به. هوى به على أليس، زاغ أليس بخفة الهر، التقط حجرا من الأرض ووجه ضربة قوية إلى رأس جاك فشجه بجرح عميق، ارتمى جاك أرضا مغشيا عليه وهو ينزف نزيفا حادا. هرعت ماري إليه وهي تصرخ:

- قتلت أخي يا مجرم، قتلت أخي يا مجرم. ثم توجهت إلي متوسلة أن ننقله سريعا إلى المستشفى قبل أن ينزف دمه. استقللت سيارة ماري بعد أن وضعنا جاك بها وانطلقنا سريعا نحو مستشفى حمص. تاركين وراءنا أليس والكنز. نزيف رأس جاك لم يتوقف، لكنه كان لا يزال على قيد الحياة، ماري تحثني أن أسرع أكثر، كانت الطريق شبه فارغة كعادتها، السيارة تنطلق فوقها بسرعة كبيرة، ماري تتمتم بكلمات لم أفهمها، ثم توجهت إلي معاتبة:

- لماذا لحقتما بنا؟

- كان حدسنا صائبا، كنتما تبحثان عن الكنز. وجئنا للتأكد. كنتما تريدان سرقة الكنز والهروب به. وعندما اكتشفنا أمركما، هم جاك بقتل أليس. وأليس دافع عن نفسه.

- لا، لم نكن نريد سرقة الكنز.

- هل كان لديكما تصريح بالتنقيب عنه؟

- لا، لم نكن نتوقع أن نجده بهذه السرعة. لكن ضابطا كبيرا من أقرباء الرئيس كان على علم بما كنا عازمين عليه. واتفق

معنا على أن لا أحد يتعرض لنا، شريطة أن لا يعلم أحد بالقضية، وأن نسلمه الكنز إذا وجدناه ويكافئنا مالا مقابله.

- لقد تآمرتما مع هذا الضابط لإخفاء الكنز. وهو كما يشاع بأن مسؤولين كبارا يبيعون آثار سورية في الخارج. ولا شك أنه من بينهم.

- ربما كنت على حق. ولكننا نحن كنا نعمل لكسب المال الذي كنا بحاجة إليه، ونسلم الكنز إلى أصحابه فقط لا غير.

- كنتما على علم به من قبل؟

- نعم، كان والدي قد درس آثار سورية وتاريخها، وتوصل إلى نتيجة أن هذا القصر لا بد وأن يحوي كنزا طمرته على الأرجح عبدة ابنة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك.

- ولماذا طمرته هنا؟

- هناك بعض الوثائق التاريخية التي تقول بأن أبا العباس السفاح، أول خليفة عباسي وبعد أن انتصر على آخر الخلفاء الأمويين محمد بن عبد الرحمن في موقعة الزاب، وهرب بعدها عبد الرحمن إلى مصر، وقتل هناك، وقطع رأسه، الذي أرسل إلى أبي العباس، أمر بملاحقة الأمراء الأمويين وقتلهم أيضا فردا فردا. ففر الكثير منهم، ولجؤوا إلى قبائل البدو في الصحراء السورية، ومنهم من هرب إلى شمال إفريقيا، وكثير منهم خبؤوا ثرواتهم الطائلة وكنوزهم في

كل مكان. وللقبض على باقي الأمراء وقتلهم، لم يجد أبو العباس حيلة سوى دعوتهم إلى مأدبة كبيرة، بعد أن أعطاهم الأمان. وعندما لبى الأمراء الدعوة، وحضروا المأدبة، قام أبو العباس بقتلهم. ولم ينج منهم سوى عبد الرحمن الداخل، الذي هرب إلى إسبانيا، وأنشأ الدولة الأندلسية. وقد ألقى العباسيون القبض على عبدة ابنة هشام بن عبد الملك، ولم يقتلوها لعلمهم أنها تملك كنوز أبيها، وبعد أن خضعت للتعذيب الشديد كي تقر بمكان الكنوز، فارقت الحياة تحت التعذيب، دون أن يعرف المكان الذي خبأت فيه هذه الكنوز. فقد ماتت ومات معها سرها إلى اليوم. وقد تكهن والدي أن يكون المكان في قصر الحير لأن هذا القصر قد بناه والدها وكانت تقضي فيه وقتا طويلا مع أبيها عند رحلاته للصيد والراحة في هذه الصحراء. وقد رسم خريطة للمكان الذي تكهن أن يكون فيه الكنز. وقد مات إبان الحرب العالمية الثانية. وترك الخريطة مع الشرح. وقد ورثت هذه الخريطة. وعقدت العزم مع أخي لنبحث عن هذا الكنز فربما وجدناه وكسبنا منه مالا وفيرا. وقد اتصلنا بأحد مسؤولي هيئة الآثار الذي قدم لنا الضابط الكبير الذي اتفقنا معه على التنقيب والمكافأة في حال وجدنا الكنز.

- إنك تعرفين تاريخنا أفضل منا.

- نعم، لقد درست التاريخ العربي بكل تفاصيله ودقائقه، كما كان يفعل والدنا، كان مسحورا بسحر الشرق وألغازه.

- ما سر هذا الاهتمام بالشرق، وماذا تريدون منه تحديدا؟

- يا صديقي، في هذه البقعة من العالم تمركزت معظم الحضارات القديمة، ومن هذا المكان بدأت الحضارة الإنسانية مع السومريين. ومن هذا المكان عرف الإنسان التشريع مع حمورابي، ومن هنا خرجت الأديان وانتشرت في جميع أنحاء العالم، وفرضت على الناس معتقدات، وسلوكا، وعادات منذ مئات السنين، ومازالوا يعتقدون بها ويمارسونها إلى اليوم، ومن أجلها خاضوا حروبا طاحنة. في هذا المكان أراد الغرب أن يبني دولة يرتكز فيها وتكون قاعدة له وهمزة الوصل بينه وبين الشرق البعيد للسيطرة على طريق الحرير، فكانت الحروب الصليبية. وهذا المكان حوى كنوزا طبيعية لا حصر لها تمثل اليوم عصب الحياة في العالم أجمع. وتقتتل الدول للسيطرة عليه.

كلام ماري أكد لي قول الأستاذ فاتح ماضي، معرفة الحاضر لا نجدها إلا في الماضي. وكم نحن نجهل تاريخنا. في حين يعرفه باحثوا الغرب عن ظهر قلب.

التفتت إلى ماري وسألتها:

- ما العمل الآن؟
- بعد أن نطمئن على جاك سنعود إلى قصر الحير بسرعة.

كان عمر النهار قد جاوز الانتصاف، أو على وشك، عندما انطلقنا عائدين إلى قصر الحير بعد أن وضعنا جاك في المستشفى، واهتم به أحد الأطباء. كانت الشمس تجري إلى مستقرها الليلي عندما وصلنا القصر. انطلقت ماري إلى مكان الكنز، لم نجد شيئا، لقد اختفى الكنز ومعه أليس. قلت:

- ربما ذهب إلى المخيم وخبأ الكنز هناك.
- أسرع، أسرع. لقد ضاع كل شيء.

وصلنا المخيم بعد أن أرخى الليل سدوله. عندما رآنا أبو حفص ركض نحونا ملهوفا سائلا:

- أين كنتما، أنت وأليس، بحثنا عنكما في كل مكان.

فهمت من السؤال أن أليس لم يأت المخيم. نظرت ماري إلي وكأنها أرادت أن تقول إن أليس سرق الكنز واختفى. استقلت ماري سيارتها وعادت مسرعة إلى المستشفى للاطمئنان على أخيها، وقالت بأنها ستعود في الغد.

مر الليل بطيئا، لم أتوقف عن التفكير بما حصل. وما يتوجب أن أفعل. هل أخبر السلطات بما حدث؟ ولكن ربما

فعلها أليس وسلم الكنز لأول مركز للشرطة. ولكن لماذا لم يعد إذن؟

قلت في نفسي سأذهب غدا لإبلاغ الشرطة عما حدث. ولكن أخشى أن يقبضوا علي وعلى أليس. فماذا نقول لهم خاصة وأن المسألة تخص هذا الضابط الكبير الذي ترتجف له الأوصال لمجرد ذكر اسمه. والكل يعرف جرائمه، وسرقاته، وبطشه، لقد حول البلد إلى مزرعة وامتلك كل شيء، ولا أحد يتجرأ أن يحاسبه. فكيف وهو الآمر الناهي. أضف إلى ذلك، لم أكن أعرف حالة جاك. هل مازال حيا؟ أم أنه خرج من غيبوبته؟ وماذا لو مات؟ وألف سؤال وسؤال لم أجد إجابة عليها.

كان الفجر ثقيلا. الصحراء بدت لي كئيبة، السهد لم يفارقني، وصدري يختلج بقلق وبخوف من مجهول آت. أليس لم يعد، أبو حفص يؤدي صلاة الفجر، أبو عسكر يشخر تحت خيمته. مجموعة من السيارات العسكرية طلت من بعيد تتجه صوبنا. توقفت وسط المخيم ونزل منها مجموعة من رجال الأمن مسلحين ببنادق رشاشة. تتقدمهم ماري وهي تبكي. تقدمت نحوها أسألها كالملهوف ماذا حصل؟ لم تستطع الإجابة وهي تمسح دموعها. نظرت

إلي نظرات متحسرة، عندما أمسكت الشرطة بذراعي قبل أن أصل إليها، وجروني إلى إحدى السيارات. ثم صاحت قائلة:

- المعذرة لم أكن مسؤولة عن ذلك. المعذرة، المعذرة. لقد أجبروني أن أهديهم إلى المكان بعد أن روى جاك لهم ما حصل في القصر عندما استعاد وعيه وهو في خير الآن. ما كنت أقصد ذلك. لقد أبلغت الضابط المسؤول عما حصل مع الكنز لأني كنت مضطرة لذلك. لقد استشاط غضبا، وأرسل هذه الوحدة لتلقي القبض عليكم.

أغلق الشرطي باب السيارة بإحكام ووقف أمامها ببندقيته الرشاشة. من النافذة شاهدتهم يلقون القبض على أبي حفص في آخر ركعة له. قيدوا يديه وهو يصيح قائلا:

- ماذا فعلت لكم؟ أطلقوني. أطلقوني.

- لن نطلقك، وضربه أحدهم قائلا:

- أنت من الإخوان المسلمين، وهذه خيانة عظمى.

نظر إلي بحسرة وقال:

- كم قلت لكم بأن هذه الفاجرة ستسبب لنا متاعب كبيرة. كان حدسي صائبا. هاهم يقتادوننا إلى المجهول. حسبي الله ونعم الوكيل. حسبي الله ونعم الوكيل.

ثم أمسكوا بأبي عسكر الذي استفاق مذعورا من هذه المفاجأة التي لم تكن تخطر له على بال وهو يصيح:

- إلى أين؟ ماذا فعلت؟ دعوني وشأني. أنا رجل شريف. ارفعوا أيديكم عني.

استقلت ماري إحدى السيارات ولوحت لي بيدها وهي تبكي. ساقونا جميعا وعادوا مسرعين باتجاه حمص. كم كنت حزينا على أبي حفص، وأبي عسكر. لقد كنت سببا في ماساتهما. ومن يدري ماذا سيفعلان بهما. بل بنا جميعا. كانت هذه آخر مرة أرى فيها أبا حفص، وأبا عسكر.

في فرع حمص للمخابرات وضع كل منا في زنزانة. كنت أسمع بين الفينة والفينة استغاثات وصراخا من مساجين يعذبون. كنت أسمع صوتا أقرب إلى صوت فتى يصرخ: ارحموني، ارحموني، أقسم أني لا أعرف شيئا. والله إني بريء. حفظ الله أحبابكم أرحموني. الرحمة أطال الله بعمركم. لكن صوت الجلد، والضرب بالعصي كان مستمرا رغم كل هذه الاستغاثات.

كان الرعب يتملكني في كل مرة كنت أسمع هذه الصيحات. وأفكر بأبي حفص، وأبي عسكر، وألوم نفسي

لأني ربما كنت السبب في محنتهما هذه. كنت أخشى أن ينالهما التعذيب أيضا. وأدعو الله أن يفرج عنهما.

بعد يومين من التوقيف دخل ضابط إلى الزنزانة واقتادني معصوب العينين، مكبل اليدين، إلى حجرة أسفل المبنى، إذ نزلنا سلما طويلا، في نهايته ممر ضيق يفتح على صالة للتعذيب. داخل الصالة، أمروني بنزع ملابسي كما ولدتني أمي. وانهالوا علي ضربا بالسياط وعصي الخيزران. دون أن يسألوني أي سؤال. شعرت وكأن ألسنة من لهب تشوي جلدي. آلام لا تشبهها آلام. انطلق مني صراخ شديد. صراخ لا يشبهه صراخ. ورحت أستغيث كما كانوا يستغيثون. ماذا تريدون مني؟ لم أفعل شيئا؟ أنا بريء. أنا بريء. بعد جلسة التعذيب التي تمنيت خلالها أن أموت كي أتخلص من آلامي، أعادوني إلى الزنزانة ووضعوا أمامي رغيفا وكأس ماء وقالوا:

- هذه حفلة استقبال تليق بمقامك أما القادم فأعظم يا كلب.

بعد يومين حولوني مع مجموعة أخرى من المساجين إلى قلعة دمشق.

14

ذات صباح بينما كنت شارد الذهن، والصمت يصم الآذان، سمعت حركة خفيفة. ثم صوت أسنان تقضم شيئا. كان الصوت ينبعث من زاوية الزنزانة، اقتربت منها قليلا بحذر. لمحت شقا صغيرا بين حجرين. ألصقت أذني بالشق. بات الصوت أوضح. أمعنت النظر داخل الشق. مع العتمة لم أتمكن من رؤية شيء بوضوح، لكني خمنت أن فأرا اختبأ في الشق وهو يقضم شيئا.

قلت في نفسي:

- لا بد أن هذا الفأر قد دخل هذا الشق من الطرف الآخر من الجدار. وإذا استطاع أن يدخل الشق فمعنى هذا أن فتحته لابد أن تكون أعرض. أخذت سريعا الملعقة التي آكل بها وأدخلتها في الشق. حاولت أن أوسعه قليلا. لم أجد صعوبة كبيرة. قلت صدق والله أبو ثائر. إن حجارة هذا الجانب من القلعة أقل صلابة ولحمة. بت أتابع الحفر

بهمّة أياما. باتت الحفرة أوسع قليلا. صرت أرى الفأر في ذهابه وإيابه إلى هذه الحفرة. عندما أصبحت الحفرة أوسع قليلا من جانبي رحت أقاسم الفأر طعامي أضع له الطعام كل يوم في الجحر، الذي اعتاد عليه وعلي. بعد أيام صار يدخل زنزانتي يقف وسطها ينظر إلي بحذر وأنظر إليه، ثم يعود إلى جحره هاربا لمجرد أية حركة تصدر عني. مع مرور الأيام أضحى أقل خشية، بل أن الزنزانة صارت جحره الكبير. كنت سعيدا به. بات صديقا يسلي أيامي وكلما ازداد جحره اتساعا، كلما سهلت حركته في الخروج والدخول منه. وصارت الأصوات الخارجية أكثر وضوحا. ضجيج الناس في سوق الحميدية. صيحات بائعي الخضار المتجولين في الشوارع الجانبية. كنت أسد الحفرة بخرقة بالية من سروال قديم كلما اقترب موعد مجيء السجانين حتى لا يسمع الضجيج.

ذات يوم قارس البرد، بينما كنت أراقب الفأر يأكل فتات الخبز على أرض الزنزانة. فوجئت به يترك الفتات وينطلق هاربا إلى جحره، عرفت أن السجان بات قريبا من الزنزانة. كانت حاسة سمعه، أو شمه أشد حدة من حواسي. ففي كل مرة كان الفأر يفر هاربا فيها إلى جحره كنت أعرف أن السجان قادم فأسرع وأسد فوهة الجحر تحسبا. هذه

المرة دخل السجان ومعه عدة سجانين يجرون أبو ثائر وهو يصرخ من الألم. رموه في الزنزانة. رفسه أحدهم وقال له:
- سأجعل عظامك تتعفن يا ابن الزانية. أجلس مع ابن العاهرة هذا. ثم أغلقوا الباب الحديدي وانصرفوا.

هرعت أواسيه وقلت بتعجب:
- أبا ثائر، ماذا أتى بك إلى هنا؟
- افتعلت معركة مع أبي الحسن الحشاش. حتى آتي إلى هنا.
- وكيف حصل ذلك؟
- في لعبة بوكر خسرته كل أمواله فأراد أن يسلبني بعض المال فوجهت إليه لكمة قوية على فكه فبصق سنا من فمه أو سنين. وكم كنت سعيدا عندما رأيت الدم ينزف من فمه العفن. النمر الحردان هرع لنجدته فضربني ضربا مبرحا لم أقو على مجابهته. ثم وصل الحراس بسرعة وانهالوا علي ضربا بعد أن ناداهم أبو الحسن، فأخذوني إلى غرفة التعذيب وأشبعوني ضربا وتعذيبا. ثم اقتادوني هنا وهذا ما كنت أخطط له.

تلك الليلة عاد إلي صلاح الدين في حلم جديد. هذه المرة جاءني بملابس الحرب وبسيف لماع، مد السيف إلي وقال:

- خذ هذا السيف فلا حرية بدون السيف. اقطع يد كل من وضع في يدك قيدا ورأس كل من أذل هذا الوطن، ثم ضرب بقبضته على الحجر فحطم الجدار فدخل منه نور ساطع يبهر الأبصار. مسك يدي بقبضته القوية وقال:

- اذهب فأنت طليق.

أيام مرت تحسنت حالة أبي ثائر قليلا، خلالها لم يخرج الفأر من جحره مرة واحدة بعد أن شم رائحة شخص غريب في الزنزانة. ذات أصيل فوجئت به يخرج أنفه بحذر من خلف السرير. سعدت برؤيته مجددا. عندما رآه أبو ثائر، قال ضاحكا:

- لدينا زائر جديد.

- إنه صديقي، وكان مؤنس وحشتي وهو يسكن خلف سريري.

نظر إلي أبو ثائر مستغربا ثم قال:

- بت صديق الفئران يا مالك هذه هي آخرتك، ثم قفز من مكانه وسأل بتلهف:

- هل يوجد له جحر في هذا الجدار؟

- وهذا ما كنت أريد أن أفاجئك به، وكنت أنتظر فقط أن تتحسن حالتك.

قفز من مكانه سريعا، ففر الفأر هاربا إلى جحره. أزاح أبو ثائر السرير وعاين الجحر فرحا ثم قال:

- إنها أول ثغرة في طريق الحرية.

وطفق يوسعها بالملعقة. ويوما بعد يوم كانت الحفرة تتوسع حتى تزحزحت الحجر من مكانها.

نظرت إلى عينيه اللتين كانتا تشعان سعادة ثم قلت له:

- باتت الطريق سالكة يا أبا ثائر. متى سنتحرر من هذا السجن اللعين؟ وإلى أين سنذهب؟

- يجب أن نستغل غياب القمر، وهذه الليلة لا يوجد فيها قمر، فلننطلق الليلة بعد منتصف الليل عندما تكون الحراسة أقل شدة. وسننطلق بعدها مباشرة إلى بيروت.

- وماذا يوجد في بيروت؟

- أنا لم أقل لك. إني من الفدائيين في منظمة التحرير. سألتحق هناك بالمنظمة، وأنا سأحميك فلا أحد يمكنه أن يصل إليك بين إخوانك الفدائيين.

- وكيف سندخل لبنان؟

- مع بعض العناء سنصل عن طريق جبال القلمون. سنأخذ ملابسنا فقط لا غير وننطلق خفافا.

- لنتوكل على الله.

عادت بي الذكرى إلى أحلامي بصلاح الدين. قلت في نفسي:

- ها قد نفذت ما أمرتني به، سأكسر قيدي وأخرج من قلعتك التي حولها هؤلاء السفلة إلى سجن رهيب. وسنحررها يوما من أيدي المجرمين.

كانت الساعات تمر بطيئة ثقيلة. وكلما اقتربنا من الموعد ارتفعت حدة الشوق الممزوج بخوف شديد لاكتشاف أمرنا. انقضى الهزيع الأول من الليل. اقتربت ساعة الرحيل. أزحنا الحجر بصعوبة كبيرة وبحذر شديد كي لا نثير الانتباه. جعلنا من غطاء الفراش حبلا ربطنا طرفه بإحكام في ساق السرير. وتدلى الطرف الآخر خارج الحفرة.

قال أبو ثائر:

- اخرج أمامي وأنا سأتبعك.

أمسكت بالحبل وانزلقت رويدا حتى وصلت إلى سقف أحد دكاكين سوق الحميدية. وتبعني ابو ثائر سريعا. قفزنا بعدها من سقف الدكان إلى الشارع الخاوي من المارة إلا من سكران كان يترنح يمنة ويسرى يسير باتجاهنا. نظر إلينا وبات يصيح بأعلى صوته قائلا:

- حرامي، حرامي، حرامي.

انطلقنا هاربين لا نلوي على شيء بين أزقة دمشق العتيقة. سلكنا طريق العصرونية، ثم التففنا سريعا إلى القباقبية، فالعمارة الجوانية، ثم الخضيرية، ووصلنا إلى باب توما حيث وجدنا سيارة للأجرة، أوقفها أبو ثائر، وطلب منه أن يوصلنا إلى دوما التي تبعد حوالي عشرين كيلو مترا عن دمشق.

في دوما وجدنا سيارة تشحن خرافا. وافق سائقها أن يضعنا بين الخراف وأن يوصلنا إلى النبك الواقعة على هضاب جبال القلمون. في النبك كان البرد قارسا، والفجر يتهيأ للبزوغ. التفت إلي أبو ثائر وقال:

- يجب أن نصل إلى الجانب الآخر من جبال القلمون قبل أن يكتشف السجانون أمرنا، فيبحثون عنا في كل مكان ويبلغون دوريات الشرطة على جميع الطرقات فيقيمون الحواجز ويلقون القبض علينا. قلت:

- أنا أعرف هذه المنطقة جيدا فقد عملت في قرية جريجير القريبة من هنا. لنذهب إلى قرية يبرود، ومنها إلى عسال الورد، التي تقع على الحدود اللبنانية، ومن هناك يكفي أن نتسلق الجبل وننحدر من الجانب الثاني للجبل فنصل إلى الأراضي اللبنانية. لكن يجب ألا نسلك الطريق المعبدة حتى لا نقع في أيدي رجال الأمن المزروعين في كل مكان. يجب أن نمشي عبر الحقول.

انطلقنا سريعا. باتجاه يبرود. الفجر كان جنينا. والبرد كرؤوس الإبر يوخز جسدينا. بعد ساعة من المشي السريع وصلنا القرية. السكون يعم المكان، خلا نباح الكلاب، وصياح الديكة.

في زاوية من القرية، حيث نبع قرينة، استرحنا قليلا وشربنا من ماء النبع البارد. تسلقنا بعدها الصخور لنصل إلى طريق عسال الورد. وصلنا هذه القرية الحدودية مع خروج الفلاحين إلى كرومهم. كان التعب والنعاس قد أخذا منا كل مأخذ. في أحد الكروم استندنا إلى جذع شجرة نستريح قليلا، ولم نشعر بأنفسنا إلا وقد غططنا في سبات من شدة التعب والجوع.

بين خدر النوم وتمطي اليقظة، رحت أشعر بدبيب يسري في جسدي. كأن كابوسا يجثم فوق صدري. كان من الصعوبة أن أفتح عيني اللزجتين الناعستين من شدة التعب. شذرات من بقايا نوم عميق مازالت تثقل جفني. فتات من آلام مازالت في ظهري من آثار التعذيب. حاولت بجهد كبير طرد آخر ثمالة نعاس عالقة في جفني. بعد أن بدأ ألم قرص خفيف ينتشر في أنحاء جسدي. بعد أن رفع الكابوس كلكله الثقيل عن صدري، كانت جحافل نمل جائع

قد تسللت إلى كل ثنايا جسدي من عش قريب، وراحت تنهش في جلدي. قفز أبو ثائر من مكانه، وقفزت معه وراح كل منا ينفض النمل عن جسده، خلعنا ملابسنا بسرعة ونزعنا النمل الملتصق بجلدينا والذي كان مازال ينهشنا بنهم، بعد أن اشتم رائحة بقايا الجراح التي مازالت لم تندمل من جراء التعذيب، وانطلقنا نهرول في الحقول حتى وصلنا سفح الجبل.

قال أبو ثائر ضاحكا:

- يبدو أن الحيوانات والحشرات تساعدنا هي أيضا في الهرب. فأرك في الزنزانة، والخرفان في الشاحنة، والآن النمل الذي أيقظنا، ولولاه لانقضى الصباح ونحن نغط في سبات دون أن نشعر بأنفسنا وربما اكتشفوا أمرنا.

من بعيد بعض الأغنام كانت ترعى بسكينة، راعيها يجلس على صخرة، ينفخ بشبابة لحنا شجيا، وإلى جانبه حمار وكلب ضخم ينبح بشدة. نباح الكلب أعادني بالذكرى إلى مضارب شامة وكلابها. وكم تمنيت أن تكون معي الآن ونهرب سويا إلى أبعد نقطة في العالم. تقدمنا نحو الراعي الذي نهر الكلب ورحب بنا ضاحكا قائلا:

- أهلا بالهاربين.

نفخ أبو ثائر نفسا طويلا ثم قال:

- لقد نجونا. يكفي أن نصل إلى قمة الجبل ثم ننحدر إلى الجانب الآخر. ولكن قبل الصعود لا بد أن نأكل شيئا. سأطلب من الراعي أن يسعفنا بشيء من الطعام.

- هل لديك ما تسعفنا به من طعام؟

- حليب الغنم والخبز.

- أسعفنا بهما وسننقدك الثمن.

الكلب توقف عن النباح وجلس قبالتنا وهو ينظر إلينا بتوجس.

الحليب الطازج من ضرع الشاة وقطعة الخبز كانا أشهى وأطيب وجبة أكلناها لفرط ما كنا نشعر به من جوع. نظر الراعي إلينا ونحن نلتهم الخبز ونشرب الحليب بنهم ثم قال سائلا:

- منذ متى لم تأكلا؟

- إنه جوع عتيق ياصاحبي، رد عليه أبو ثائر.

- تريدان أن تجتازا الحدود؟

- نعم.

- سأرشدكما إلى الطريق الأقصر والأسهل لتصلا إلى بيروت.

- جزاك الله خيرا.

- لستما أول من أساعد في اجتياز الحدود. فالهاربون من هذا البلد كثر. عندما تصلان إلى سفح الجبل. ستجدان طريقا ضيقة بين الصخور تصل إلى قرية طفيل، وهي أول قرية لبنانية تصادفكما في طريقكما. في هذه القرية يوجد دكان في وسط القرية، صاحبه يعمل في التهريب يدعى أبو ديب. تتفقان معه على مبلغ ويوصلكما إلى مدينة رياق عبر عين الجوزة. لأن هذه المنطقة الآن موحشة وشبه خالية. فمعظم أهلها هجروها إلى الخارج، وخاصة منذ أن بدأت الحرب في لبنان. ولا توجد فيها طريق معبدة، لذا فمن الضروري أن يرافقكما أبو ديب، وفي رياق ربما وجدتما سيارة تقلكما إلى بيروت.

كانت الطريق وعرة وتحتاج لأحذية متينة. وأسمالنا لم تعد تتحمل أسنان الصخور التي تنهش حتى الحديد. فسلمت الروح في منتصف طريق الصعود. بات التسلق مؤلما لأقدامنا التي لم تكن قد برئت تماما من الضرب بعصي الجلادين. أقدامنا بدأت تنزف دما. توقف أبو ثائر وقال :

- يجب أن نستخدم قطعة من ملابسنا ونلفها حول أقدامنا لنتقي نتوء الصخور. قميصانا باتا حذاءين. تابعنا الصعود

بصعوبة. عندما وصلنا القمة كانت الشمس قد مالت نحو النصف الثاني من السماء. البرد ازدادت ضراوته وتسلل أكثر في عظامنا. السماء تغطيها غيوم صامتة هاربة سريعا تدفعها يد الريح نحو هضاب أخرى بعيدة. عطر الهواء النقي البارد المشبع بالحرية، فاح ومخر تعاريج الأنف لتمتلئ به الرئتان التواقتان إلى الأكسجين، بعد سنوات استنشاق الهواء المكتوم بين جدران الزنازين العفنة.

التفت أبو ثائر إلي وقال بعد أن تنهد:

- ما أجمل الحرية، فتح ذراعيه وراح يصيح:

- أنا حر. أنا حر، أنا حر، لن تنالوا منا. لن ندعكم تأسرون حريتنا أيها السفلة. يا أولاد العاهرة سننال منكم يوما.

وقفت إلى جانبه وفتحت ذراعي وصرخت بأعلى صوتي:

- ها أنا هنا حر طليق يا صلاح الدين. ها أنا حر طليق يا صلاح الدين.

نظر إلي أبو ثائر مستغربا ثم سألني بتعجب:

- صلاح الدين! ومن هو صلاح الدين؟

- قصة قديمة يا صاحبي. صديق قديم كان يرافقني في السجن.

انحدرنا سريعا نقفز من صخرة إلى أخرى كسخلتين هاربتين من ذئب جائع . في طفيل نقدنا أبا ديب مبلغا من المال وانطلقنا جميعا إلى رياق حافيي القدمين في طريق جبلية وعرة. في هذه المدينة الصغيرة التي كانت قاعدة للجيش الفرنسي إبان الانتداب. وجدنا شاحنة متوجهة إلى بيروت، ساومنا السائق على المبلغ المرتفع الذي طلبه. لكنه رفض المساومة بحجة أن الحرب على أشدها وأن الطريق محفوفة بالمخاطر، ونقاط التفتيش، وهو مضطر في كل مرة أن يوزع على الحواجز بعض الجوائز ليتمكن من العبور. تجارة نقل الأشخاص خلال هذه الحرب، ككل الحروب، كانت رائجة، وتدر أرباحا كبيرة على مالكي السيارات، وهناك دائما من يستغل مصائب الآخرين ليجني فوائد كبيرة ويصبح من أغنياء الحرب. بعد الاتفاق وضعنا في الصندوق الخلفي للشاحنة بين أقفاص للدجاج كانت في طريقها إلى سوق بيروت وقال:

- لا تتحركا أبدا عند نقاط التفتيش.

التفت أبو ثائر إلي وقال:

- بارك الله في الحيوانات التي تنقذنا دائما.

مع أول نقطة تفتيش، قبل الوصول إلى مدينة زحلة، فتح رجال الميليشيات الباب الخلفي للصندوق، نظروا إلى صناديق الدجاج. أزاحوا أول صندوقين فقط فلم يلحظ وجودنا، ثم قال أحدهم للسائق:

- يا أبا مهدي أختر لنا خمسة فراريج سمينة لعشاء الشباب. فراريج المرة السابقة كان عظمها أكثر من لحمها.

رد عليه أبو مهدي بسرعة:

- غالي وطلب رخيصا، سأعطيك هذه المرة فراريج ريانة لحمها أكثر من عظمها، ثم مد يده إلى أحد الأقفاص وأخرج منه الفراريج وهي تملأ المكان صياحا.

بعد أن انطلقت الشاحنة تنفسنا الصعداء، نظر إلي أبو ثائر وقال:

- سليمة والحمد لله.

وصلنا ظهر البيدر حيث الطريق خطرة والمنحدرات حادة المنعطفات، تطل على وديان سحيقة. ثم طلت صوفر من بعيد، تخطيناها إلى بحمدون، في منطقة الشوف، ودخلنا مدينة عاليه المسيطر عليها من قبل قوات كمال جنبلاط دون أن يعترضنا أحد. أسرع السائق نحو الحازمية ثم جسر الباشا، على أبواب بيروت كنا نسمع دوي المدافع،

وطلقات الرصاص بشكل كثيف. توقفت الشاحنة. فتح السائق باب الصندوق الخلفي وقال:

- اهبطا الآن، لا يمكنني أن أتقدم أكثر من ذلك لان المعركة حامية الوطيس، وهي في أولها بين الكتائب والمقاتلين الفلسطينيين، يجب أن تكملا مشواركما مشيا على الأقدام نحو تل الزعتر. ولا تنسيا أن تدفعا لي ثمن الفراريج. فرد عليه أبو ثائر قائلا:

- فراريجك عظمها أكثر من لحمها ولا تستحق ثمنا باهظا ونقده بعض المال.

كنا في منطقة الدكوانة القريبة من تل الزعتر قفز أبو ثائر من مكانه وقال:

- لنسرع إذن.

هبطنا سريعا وانطلقنا مولين وجهنا شطر تل الزعتر تحت أزيز الرصاص ودوي المدافع. كان الليل قد لف المدينة الياقوتة، المدينة المنارة، المدينة الفاجرة، المدينة الغانية، التي وضع الجميع السكاكين في نحرها، بوشاح سميك من الظلام، فلا أنوار سوى ومضات القذائف، وطلقات الرصاص. ولا أصوات سوى دوي المدافع وهدير موج البحر الصاخب الغاضب. سلكنا

شارع شارل دباس. في أول الطريق التفت أبو ثائر إلي وقال:

- بتنا الآن في مأمن. هنا معقل الفلسطينيين وقلعتهم الحصينة. لا أحد يجرؤ على المجيء إلى هنا.

في أول مفترق طرق سلكنا طريق فؤاد شهاب، ومنه إلى طريق جبران خليل جبران حيث يقطن أهل أبي ثائر. التفت إليه وقلت متعجبا:

- أنت تسكن في حي الكاتب والشاعر الحبيب على قلبي جبران !!

- نعم، وحبيب على قلبي أيضا.

- من مفارقات الزمن أنك تسكن في شارع الشاعر الذي يقول :

ويل لأمة تكثر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين
ويل لأمة مقسمة إلى أجزاء وكل جزء يحسب نفسه فيها امة

أجاب بمرارة قائلا :

- وهذا هو حال هذا البلد للأسف الشديد. ألا تسمع دوي المدافع ، وأزيز الرصاص. يقاتلون بعضهم بعضا على مرقد عنز، بدل أن يجتمعوا على كلمة، ويوفروا جهودهم لمقاتلة العدو الحقيقي الذي يتربص بنا جميعا. لقد كان جبران على

حق، وكأنه كان يتوقع أن بني وطنه سينحرون بعضهم بعضا.

- متى يا ترى ستستيقظ أمة العرب؟ حتى متى ستظل مقطعة الأوصال، مشتتة الاتجاهات، متناحرة الأبناء؟

- عندما يتجرد كل فرد فيها من مذهبيته، وطائفيته، ومصالحه الضيقة، ويتوطن على مبادئ وأخلاق جديدة قوامها المساواة، واللحمة الوطنية، والنظر معا بعيدا نحو هدف واحد.

- ربما ستتحقق في أجيال قادمة، ولكن ليس في زمننا المر هذا.

- أنا أكاد أكون على يقين يا أبا ثائر بأننا سنرى يوما هذه الشعوب العربية تهب هبة رجل واحد لتطرد حكامها وكل من يتسلط عليها. ستراها كالبركان الهادر من المحيط إلى الخليج تهتف بصوت واحد للحرية والكرامة.

- من فمك إلى باب السماء. كفانا ذلا وهوانا.

عندما وصلنا المكان وقف أبو ثائر أمام الباب خائفا، مرتجفا. يبدو على وجهه قلق واضح.

- ما بك يا أبا ثائر؟

- أوصالي ترتعد.

- لماذا؟

- أخشى ما أخشاه أن أكون قد فقدت واحدا من عائلتي، فأنا منذ سنين لا أعرف عنهم، ولا يعرفون عني شيئا. كيف سأقابلهم؟ كنت دائما أخشى هذه اللحظة.

- اطرق الباب وتوكل على الله.

طرق ثائر باب المنزل. أمه سألت بتوجس من وراء الباب:

- من الطارق؟
- أبو ثائر يا أماه.
- من؟!!!
- أبو ثائر يا أماه.

لم تصدق الأم ما سمعت أذناها، وما رأت عيناها، ابنها أبو ثائر، أبو ثائر الذي اختفى منذ سنين، ولا أحد كان يعرف له مكانا. حتى أن البعض قالوا بأنه مات منذ زمن، ووطنت نفسها على أن ابنها قد مات كما تكهن البعض، لكنها رفضت أن تقيم له جنازة الغائب، كان دائما يحدوها الأمل أن يعود يوما، كانت كأمي لها حاسة سابعة تقول لها إن ابنك ما زال حيا، وربما كان في السجون السورية. لقد صدق حدسها. وقفت جامدة في مكانها. نظرت إلى ابنها غير مصدقة هل هو فعلا ابنها أم لا، خاصة وأن بعض ملامحه قد تغيرت من آثار التعذيب، والهرم.

- هل أنت أنت، ولدي أبو ثائر؟ ولدي حبيبي، وراحت تصيح في المنزل أبو ثائر حي، أبو ثائر حي، أبو ثائر حي، وانطلقت بزغردة والفرحة حلت بكل المنزل، فهرول الأب والأخوة مهللين يقبلونه بشوق ولوعة والدموع تنفر من عيون الجميع.

أشار بيده إلي وقال:

- مالك صديق السجن، هربنا معا وهو يحتاج أن يختبئ عندنا.

- نخبئك في عيوننا قالت الأم ودموع الفرح رسمت دروبا من ماء على خديها المجعدين.

ثم نظرت إلى حالتنا وأشكالنا التي هي أشبه بأشكال المتسولين وقالت:

- أخال أنكما بحاجة لحمام، فكأنكما كنتما تنامان في قن دجاج.

- لم تخطئي يا أمي فقد كنا بضاعة رخيصة في صندوق شاحنة دجاج أجابها أبو ثائر. وضحك الجميع.

لم نستحم بالماء الساخن منذ سنين، والأوساخ المتراكمة على جسدينا تشكل طبقة أخرى فوق الجلد، وتفرز روائح غريبة تنفر منها حتى الخنازير. عندما هطل الماء

مطرا ساخنا فوق جسدي شعرت براحة كبيرة خاصة بعد أن أزلت طبقة الأوساخ المتراكمة منذ أمد. عندما خرجت أحسست أن أمي قد ولدتني من جديد، تماما كما كنت أشعر عندما كنت أخرج من حمام زنوبيا، وتذكرت قصة طراد المتعب بعد أن خرج من حمام الناصري لأول مرة، وتيقنت أن الحمام نعيم الدنيا.

مرت الأيام مريرة نستنشق فيها البارود، وننام على دوي المدافع، نتابع أخبار المعارك، التي اتسعت أكثر، وبدأت تقترب من تل الزعتر. أبو ثائر التحق بكتيبة للمقاومة ككل إخوانه. جاءني يوما ببندقية وقال

- خذها ودافع بها عن نفسك إذا تعرضت لخطر فالمعارك تقترب من هنا.

- أود أن ألتحق بالمقاومة أيضا.

- هذا ما كنت أتوقعه منك.

- لست أفضل من أبي وأخي اللذين استشهدا في المقاومة. وعلقت والدتي بندقيتهما على الجدار.

- إياك يا مالك إن مت أن تعلق بندقيتي على جدار، قالها أبو ثائر متجهما ثم تابع بالقول:

- البندقية وجدت لتحمل لا لتعلق. فالذئاب تهرّ على من لا كلاب له. الدولة القوية تفرض احترامها على الجميع.

انظر إلى كل الدول النووية لقد فرضت نفسها على الجميع ، والجميع يخشى جانبها، وتخشى بعضها بعضا. القوة يا صديقي وحدها التي تعيد لنا حقوقنا. ويجب أن نقاتل من أجلها، ونتسلح بالصبر والحكمة، ولا بد أن نصل يوما إلى هدفنا ونتحرر. ثمن الحرية غال يا صديقي، ويجب أن ندفعه، وإلا سنبقى أبد الدهر بين الحفر.

أخذت البندقية وسرت خلف أبي ثائر إلى منطقة قريبة حيث مكان مرتفع للمناوبة على الحراسة. كان دوي المدافع لا يتوقف، قذائف الكاتيوشا من كل الجوانب، أصوات الجدران وهي تهوي. كانت بيروت تتهدم أمام أعيننا. بيروت لؤلؤة البحر المتوسط، هذه الغانية الجميلة التي يحبها الجميع لجمالها، وجسدها الرائع الممتد على ألف هضبة وهضبة، تولي وجهها للبحر الزمردي، وللشمس، ومشرعة الأبواب أمام الجميع ، من جاءها من فج الصحراء العميق ينعم بلياليها، ومن جاءها هاربا من ظلم وملاحقة الأنظمة العربية يختبئ بين أضلعها الدافئة التي تحتضن كل الهاربين، ومن جاءها متجسسا ينقل منها نبض العرب ولسانهم الثرثار في مقاهيها ومطاعمها وجد فيها مرتعا خصبا. ومن كان منها هناك من يدفعه لقتل ابن وطنه على الهوية لأسباب طائفية. القبيلة هنا ليس لها مكان. الطائفة

هي قبل الوطن، والكل يدين بدين المال. تتغير التحالفات وتتبدل بتبدل وجهات الريح، فلا تعرف من يقاتل من؟ ولماذا؟ وحتى متى؟

مع تقدم المعارك واحتدامها، واشتداد ضراوتها، ازدادت مساحة الخراب، وارتفع عدد القتلى والجرحى. حرائق في كل مكان، رائحة اللحم الآدمي المتفسخ يملأ الأجواء نتنا ورائحة لا تطاق. للتخلص منها. كانت تحرق مكان سقوطها، فتكون الرائحة أشد وطأة، رائحة اللحم الآدمي المتفسخ المحروق الممزوج برائحة البارود، وريح البحر المزمجر الغاضب.

اقتربت المعارك أكثر من نل الزعتر بعد أن اتسع نطاقها. فريق كاد أن ينتصر على فريق، ثم سمعنا بأن قوات من الجيش السوري قد دخلت لبنان. في البداية لم يكن أحد يشك في أن هذه القوات، التي أعطيت اسم قوات الردع المفوضة من قبل الجامعة العربية، بأنها ستواجه القوات الفلسطينية، حتى الجنود لم يكونوا على علم بالأوامر المبيتة. شاهدنا فصائل فلسطينية تتمركز في تل الزعتر، ويوما بعد يوم كان يتحول إلى معسكر كبير. وكأن هناك معركة فاصلة يحضر لها من الجانبين.

ذات فجر استيقظنا جميعا على انفجارات قوية وكبيرة على أطراف التل. ما لبثت أن باتت في وسطه ثم تحولت إلى معركة حامية، بل إلى حرب مستعرة بين القوات السورية والفلسطينية. تل الزعتر تحول إلى جهنم. القذائف تتساقط كالمطر في كل جانب موقعة قتلى وجرحى بالعشرات. ثم بالمئات، من كل الأعمار. هرع أبو ثائر إلى الخطوط الأمامية مع كتيبته لصد الهجوم، ورفضت أن أشترك في هذا القتال. قلت لأبي ثائر:

- لن أصوب بندقيتي إلى صدر أبناء وطني، فإن أصبت أحدهم أصابني رصاصي.

شد على كتفي وقال:

- أفهمك يا صديقي. وأنا كذلك. إنهم يدفعوننا للاقتتال دفعا، ونحن مضطرون أن ندفع عن أهلنا هذه الحمم.

قلت:

- كم هو مؤلم أن يقتتل الإخوة ويسفك أحدهم دم الآخر. وكم يؤسفني أن يقتل إخواني إخوانك. وإخوانك إخواني. كأننا نقتل أنفسنا بأنفسنا. إننا أمة تنتحر، أمام عدو ينتظر. إننا نضع حبل المشنقة حول عنقنا. عانقته بحرارة وقلت:

- سأنطلق مع مجموعة أخرى لإسعاف الجرحى، وأكون قريبا من عائلتك.

غادر أبو ثائر المكان، وتوجهت صوب مستشفى الميدان. في المستشفى الميداني تحت خيمة، كان الجرحى يئنون، ومن لا يئن قد مات متأثرا بجراحه. على سرير في زاوية الخيمة شاهدت أم ثائر، لم تكن تئن. اقتربت منها. لمست يدها الباردة وبكيت بكاء مرا.

كانت هذه المرة الأخيرة التي رأيت فيها أبا ثائر الذي فقد أمه دون أن يعلم، ولم أكن أعلم أن الغيب سيجمعني به مرة أخرى، وفي معارك أخرى. كانت المعارك تشتد ضراوة مع مرور الأيام. ويشتد معها الخناق على التل من كل جانب بعد أن تمت محاصرته من جميع أطرافه. كنت أتساءل دائما إذا كان أبو ثائر ما زال على قيد الحياة بعد أن امتلأ التل بالقتلى والجرحى، أم أنه انسحب من المكان مع باقي المقاتلين بعد أن بات الدفاع عن التل مستحيلا.

15

بعد أن هدأت المعركة وتمت السيطرة على التل وسدت جميع المنافذ، ألقي القبض على كل من فيه، وكنت من بين المقبوض والمغضوب عليهم، بعد التعرف على هويتي. ساقني أحد الضباط، وهو يصفعني بشدة، إلى أحد المباني الفارغة حيث تم احتجاز مجموعة أخرى، بعضهم قيل إنهم رفضوا الأوامر بتوجيه بنادقهم إلى صدور الفلسطينيين، بل إنهم التحقوا بهم. وكانت عقوبتهم الإعدام. بعد عدة أيام في المعتقل جاؤونا ليلا وقيدوني مع مجموعة أخرى، وساقونا إلى شاحنة كبيرة انطلقت باتجاه حمص سالكة طريق العريضة. نفسي حدثتني أننا نتجه إلى سجن تدمر الرهيب. وتأكدت ظنوني بعد أن بدأت أشم ريح الصحراء. وأشعر بلسعات البرد التي كنت قد تعودت عليها سنين مضت. خفقات قلبي تسارعت عندما اقتربنا من الفرقلس ثم البيضاء. نفسي حدثتني أني بت قريبا من ديار شامة.

فهنا تركت شيئا من مهجتي. وهنا بدأت محنتي وآلامي. وإلى هنا أعود. كأن القدر يصر بخبث على وضع خططه بما لا أعلم، لماذا جاء بي إلى هذا المكان، ولماذا يعمد أن يعيدني إلى هذا المكان. ماذا فعلت لأستأهل كل هذا العذاب؟ عذاب القلب والروح، وألم النفس والجسد.

سرقت النظر خلسة من شق في غطاء الشاحنة. لمحت سريعا منظر الصحراء. لم يعد هناك شك. إننا نتوجه إلى سجن تدمر. السجناء الآخرون عندما باتوا أيضا متأكدين من وجهتنا انتابهم ذعر شديد لسمعة هذا السجن المريع. وبدا على وجوههم شحوب واصفرار كلون الأموات.

على باب السجن وقف عدة جنود. فتح أحدهم الباب الخلفي للسيارة وألقى علينا نظرة سريعة ثم أمر بفتح الباب. ما أن نزلنا من السيارة حتى كان باستقبالنا مجموعة من الجنود وبأيديهم قضبان من الخيزران والسياط. انهالوا علينا بالضرب والجلد بشكل عشوائي. كنا نتلقى الضربات على أنحاء مختلفة من أجسادنا التي لم يكن يكسوها سوى رداء خفيف. تلقيت ضربة قاسية على رأسي. حاولت أن أتقي الضربات بيدي بقدر استطاعتي. لكن الضرب كان من كل جانب. فلا يعرف أحدنا ماذا يتقي. ولا يعرف متى

ينتهي. يرافق هذا الضرب سيل من الشتائم. لا ترفعوا رؤوسكم يا أولاد القحبة سنفعل بأمكم. سنفعل بأختكم. يا أبناء العاهرات. تريدون أن تقلبوا النظام. سنريكم نجوم الظهيرة. ستلعنون أمكم التي ولدتكم. سنجعل منكم لحما للكلاب. سنسلخ جلودكم كما نسلخ الخرفان. يا أولاد القحاب.

كانت هذه حفلة استقبال جميع السجناء في سجن تدمر. بعدها يوزعون على المهاجع.

سجن تدمر كان سجنا عسكريا فيما سبق، ثم تم تحويله إلى سجن مدني تشرف عليه الشرطة العسكرية. وقد تم بناؤه من قبل الفرنسيين إبان الانتداب الفرنسي على سوريا في ثلاثينيات القرن العشرين. ويتكون من أربعة وثلاثين مهجعا تضم أكثر من ألفي سجين وسطيا، تنفتح على ثلاث باحات منفصلة.

أدخلت المهجع السادس دفعا وضربا مع ثلاثة آخرين. كان الدم ينزف من أجسادنا. استقبلنا السجناء القدامى بصمت مطبق وهم ينظرون إلينا بعيونهم الحزينة. الألم والجوع والخوف والحرمان من النوم جعلت منهم قامات نحيلة بوجوه حادة كالسكاكين، وبعيون صغيرة تحيط

بها هالة من لون البنفسج القاتم، تنظر بعضها إلى بعض بنظرات تختزن مزيجا من الحزن الدفين والثورة، والحقد، والانتقام، وبشفاه نسيت الابتسام، ولسان هجره الكلام. كل شيء ممنوع. النظر في وجوه الجلادين ممنوع، الحديث بين السجناء ممنوع، الاستماع لمذياع ممنوع، التحرك ليلا ممنوع، قائمة الممنوعات كانت طويلة بحيث بتنا نشك في كل شيء نفعله إذا كان منها أم لا.

المهجع مستطيل الشكل. بطول عشرة أمتار إلا قليلا، وبعرض سبعة أمتار أو أكثر قليلا، في زاوية منه حمام تنبعث منه روائح الغوط كالمعتاد. في السقف فتحة تجتازها قضبان حديدية يدعونها بلغة السجن «الشراقة» يطل منها الحراس على المهجع المكتظ بالمساجين. وبين الفينة والفينة يتوجهون إليهم بالشتائم.

- يا أولاد العاهرات لا نريد أن نسمع أحدا يتحدث مع أحد.

وإذا لا حظوا أن أحدا خرق القاعدة نادوه ليقف تحت الشراقة وبالوا على رأسه دون أن يسمح له بالتحرك.

ارتميت أرضا. مضيت أتلمس بدني المنهار، وأتحسس جراحي، وأعض على أسناني من الألم في سكون. لم يكن

السجناء الآخرون بأفضل مني حالا. أحدهم فقد عينا. كان يردد ويده على عينه:

- لم أعد أرى بعيني. لم أعد أرى بعيني.

وآخر يمسك يده المتورمة التي أصابها كسر عندما اتقى بها عصا الجلاد، وثالث ينزف من أنفه وفمه. انشغل كل منا بنفسه يشد على جراحه وآلامه. وبين فينة وأخرى يسمع أنين مكتوم. فيصرخ السجان من الشراقة:

- أخرس يا ابن القحبة وإلا أتيتك وسددت فمك بحذائي، أو بلت عليكم جميعا.

فيكتم من يئن أنينه، ويبكي بصمت. في هذا المكان الرجال يبكون بكتمان، يصرخون في أعماقهم، يستغيثون، يتوسلون، من وقع ألم لا يساويه ألم، ومن ذل لا يفوقه ذل، ومن سحق النفس حتى العظم.

الدماء الجافة على الأرض من سجناء آخرين تغطيها دماء طازجة تنز من الجروح المفتوحة والمتقرحة. لا أحد يجرؤ على مواساة أحد، وإلا فالعقاب شديد. هذا المكان الذي لا يشبهه مكان في الدنيا، جعل مكانا للإهانة والذل، لتحطيم الأنفس، للتخلص من كل من يقول لا للذات العليا. لكل من يحلم بالحرية، لكل من يسأل عن مستقبل

الوطن، لكل من يرى بعينيه الحقيقة ويعلن عنها، لكل من يطالب بحق. هذا المكان هو آخر عتبة الحياة، وأول شفير هاوية الموت لكل من عصى العصا، لكن قبل أن يدفن، كما تدفن جيف الكلاب، في مقابر جماعية لا بد أن يمر بمحافل التعذيب عقابا على كلمة لا. وكيف؟ ولماذا؟ وحتى متى؟ ولا يخرج منه إلا طويل عمر، وطويل حبل الجلد والصبر. وما خرج منه طويل عمر، وطويل حبل جلد وصبر، إلا بعاهة متسديمة.

لم تمض ساعة على حالنا حتى فتح الباب مجددا ودخل الجلادون بسجناء جدد. انتفض أحد السجناء من مكانه ووقف منتصبا كجندي يقدم رتل جنود إلى ضابط مسؤول، وصرخ بقوله:

- المهجع حاضر للتفتيش سيدي.

ووقف السجناء الآخرون مطأطئي الرؤوس ووجوههم إلى الجدار لا يجرؤ أحدهم أن ينظر بعيون الجلادين، وإلا انهالت عليه السياط والعصي. قفزنا نحن أيضا من مكاننا بصعوبة كبيرة، واستدرنا إلى الجدار نكاد نسقط من الألم بعد أن خارت قوانا. انفجر الجلاد الأكبر بكلام فاحش يشتم فيه السجناء بقوله:

- أقسم أني سأفعل بأمهاتكم وبأخواتكم يا أولاد العاهرات كذا وكذا، يا أولاد الفاعلات. هنا ستتمنون أن أمهاتكم العاهرات لم تلدكم. لعن الله آباءكم. ثم أمسك بشعر سجين ينزف من جرح في وجهه وصرخ فيه قائلا:

- قل لي ماذا سأفعل بأمك وأختك؟

صمت السجين دون أن ينبس ببنت شفة، وهو ينظر إلى الأرض والدم ينزف من وجهه. انهال عليه الجلاد ضربا وركلا وهو يصيح به:

- قل يا ابن القحبة ماذا سأفعل بأمك وأختك؟

- ستنكح أمي وأختي سيدي. قالها بذل وانكسار.

- ردد بصوت عال حتى يسمعك الجميع.

- ستنكح أمي وأختي سيدي. قال السجين بصوت مرتفع.

رمى الجلادون لكل منا غطاء نتلحف به، وقطعة من قماش خيم قديمة ممزقة لنفرشها أرضا. كان الطقس باردا ولا أحد منا يرتدي ملابس دافئة. شدة البرد نفذت إلى عظامنا وجعلت أجسادنا ترتجف كأوراق خريفية في مهب ريح، وأسناننا تصطك بعضها ببعض كالمقرورين. كثير من السجناء أصيب بأمراض معوية ورئوية، ومنهم من قضى بمرض السل بسبب البرد الذي يمنع السجين من النوم،

فتضعف مقاومة جسمه، ويصبح هدفا سهلا لكل الأمراض الفتاكة التي لا تجد مناعة تقاومها.

في الصباح الأول في هذا السجن- المسلخ سمعت السجان يصرخ بأعلى صوته:

- بلدية، أسرعا يا سافلان.

كان السجناء غير السياسيين يقومون بأعمال السخرة، من تنظيف، وتحضير الطعام، وتوزيعه، ويطلق عليهم اسم البلدية.

وقف اثنان من البلدية أمام المهجع ووضعا حلة من الشاي، وقطعا من الخبز الجاف، وعددا قليلا من قطع جبن مغلفة ببقرة ضاحكة. تناولها السجناء ووزعوها على الجميع فأصاب كل سجين قطعة خبز بحجم الكف، وقطعة جبنة بحجم حبة الفول، وكأسا من الشاي تعلوه طبقة من الزفر. القدامى من السجناء وجدوا في ذلك وجبة دسمة بعد أن اعتادوا عليها، وأجبروا أنفسهم عليها للبقاء على خيط الحياة الرفيع، وإلا فإن الموت المتخفي وراء باب كل مهجع سيتسلل سريعا إلى الأضلع.

أحدهم، وكان شابا فتيا، لم يقو على الجلوس لتناول طعامه، بالأمس عاد من جلسة تعذيب استعملوا فيها

الكرسي الألماني، وهو كرسي متحرك المقعد، مثبت الظهر يجبر السجين على الجلوس عليه ثم يقيد بقوة ويسحب مقعد الكرسي فيحدث ضغوطا قوية على العمود الفقري، ويسبب آلاما مبرحة تؤدي في بعض الأحيان إلى كسر فقرة من فقرات العمود الفقري فيصاب السجين بكسر في العمود يودي أحيانا إلى الشلل، أو إلى الحركة بصعوبة كبيرة. أحد السجناء حاول إطعامه وهو ملقى على الأرض. رآه أحد الجلادين من «الشراقة» فصرخ فيه قائلا:

- دعه يأكل بنفسه، وإذا كان لا يستطيع فليمت جوعا. أما أنت فعلم نفسك.

ويعني بكلمة علم نفسك، أي ضع علامة على نفسك، فيأتي الجلاد ويسأل من المعلّم؟ فيخرج الشخص المعني فينهال عليه ضربا بحبل معدني أمام الجميع.

هذا السجين، علمت فيما بعد أن اسمه صالح، وأنه أستاذ في العلوم، عندما صاح به الجلاد، وفي يده الحبل المعدني، خرج مطأطئ الرأس، وأدار ظهره للجلاد الذي جلده عشرين جلدة حتى نفر الدم من جروحه وهو يصرخ من شدة الألم، ولا أحد منا كان بمقدوره أن ينبس بكلمة، أو يقوى حتى على النظر إلى هذا المشهد المرعب، وإلا لقي المصير ذاته.

لم يكن يمضي يوم واحد دون أن يضرب، أو يعذب كل واحد منا مرة أو مرتين. وتختلف طرق التعذيب من سجين إلى آخر. فجماعة الأخوان المسلمين كانوا الأكثر معاناة من باقي المساجين. واحدهم كان يعذب عدة مرات في اليوم. ويستعمل فيهم أقسى درجات التعذيب، من جلسات كهربائية، توضع خلالها ملاقط الكهرباء في الأنف، وشحمة الأذن، والعضو التناسلي، فيرتعش السجين من قوة التيار الساري في جسده ويترك ندبا جلدية عميقة، ويؤثر على الدماغ فيفقد الوعي في أكثر الأحيان، فيسكب وعاء ماء على رأسه، وتعاد الكرة من جديد.

ذات ليلة كان السجناء نياما. فتحة التهوية العليا يمر فوقها الحراس جيئة وذهابا كالمعتاد. يراقبون المهجع من عل في ذهابهم وإيابهم. وإذا ما سمعوا همسة، أو حركة، صاحوا بالجميع. ناموا يا أولاد القحبات وإلا فجمنا رؤوسكم. تلك الليلة تحرك أحد السجناء، ويقع مكانه تحت فتحة التهوية، نهره الحارس وأمره بألا يتحرك، ثم بال على رأسه. ولم يجرؤ السجين على التحرك والبول يتساقط عليه من الشراقة.

ذات ليلة أخرى وكنا نياما صرخ أحدهم فجأة بعد أن انتبه بأن جرذا سمينا كان يعضه من إصبعه. ضرب الجرذ

بحذائه بقوة على رأسه فمات. هرع الحراس إلى داخل المهجع ليستطلعوا الأمر. أخذوا الجرذ والسجين معا إلى غرفة التعذيب. سمعنا صراخا شديدا. بعدها عادوا به إلى المهجع وهو يتقيأ. وبقي يتقيأ ثلاثة أيام، ولا يقوى على إدخال طعام في معدته. في صباح اليوم الرابع استيقظنا جميعا كالمعتاد على صراخ الجلادين وهم يفتحون الباب. عندما دخل الحراس المهجع، وقفز كل السجناء من مكانهم عندما صرخ عريف المهجع:

- المهجع جاهز للتفتيش سيدي.

ووقفوا باستعداد مطأطئي الرؤوس، لم يقف هو. أسرع أحد الجلادين ورفسه رفسة قوية لكنه لم يتحرك. رفع الغطاء عنه ليجده ميتا. علمنا فيما بعد أنهم أطعموه الجرذ عنوة تلك الليلة.

ذات يوم كئيب، كان السكون مغلفا بصمت السجناء الرهيب. صمت الخوف من خطر داهم دائم. خوف يجرف الجوف في كل مرة يدخل فيها الجلادون المهجع. سمعنا صوت أخشاب ترمى على الأرض، ثم أصوات مطارق تغرس مسامير في الخشب. ركض أحد السجناء وراح يتلصص من ثقب صغير بحجم رأس الدبوس في الباب.

عاد إلى مكانه وهو يرتعد. وراح يهمس للآخرين. إنهم ينصبون أعواد المشانق. توجسنا جميعا ينظر بعضنا إلى بعض وكأننا نتساءل:

- هل هي النهاية؟

الدقائق مرت بصعوبة بانتظار المجهول. فتح الباب فجأة.

- المهجع جاهز للتفتيش سيدي.

وقفنا جميعا مطأطئي الرؤوس كالمعتاد. دخل الجلادون وعلى رأسهم رئيسهم. جال بنظره علينا ثم قال:

- كل من يسمع اسمه فليخرج من المهجع. أوصالنا بدأت ترتعد. أحسسنا جميعا أننا بتنا على حافة الموت، لا يفصلنا عنه سوى بضع خطوات.

تلا الاسم الأول. صاح صاحبه:

- الله أكبر.

تلا الاسم الثاني. صاح صاحبه:

- الله أكبر.

وكذا الثالث، والرابع، والعشرين. وكلهم كانوا يصيحون:

- الله أكبر.

بعدها انتقل الجلادون إلى المهاجع الأخرى. وكرروا المشهد ذاته. في كل مرة كان يوضع حبل المشنقة حول عنق سجين كنا نسمع:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. كان يقولها المشنوق بصوت عال وكأنه يبلغنا باستشهاده.

سمعنا عشرات الشهادات ونحن نرتعد، وننظر إلى أنفسنا. ذاك النهار كان مأتما كبيرا. حزن أسود لف السجن بأكمله. فقد كل واحد منا صديقا، أو أخا، أو أبا.

أحد السجناء وكان أبا لولدين، سمع شهادة ولديه على المشنقة. فمات بعد أسبوع بسكتة قلبية من الحزن، والكمد وقلة الطعام.

الشهور توالت على منوالها. جلسات تعذيب متواترة. موت مؤلم لزملاء. سجناء جدد كل يوم. طعام رديء. إصابات بأمراض. هزال مستمر، حتى بات من طال سجنهم أشباحا وكأنهم جاؤوا من عالم آخر.

ذات مرة سرت شائعة رددتها الألسن همسا، وتلقتها الآذان شغفا. سمعنا أن أحد السجناء قد تلقى زيارة من عائلته. تساءلنا كيف حصل ذلك. ففي هذا السجن منعت الزيارات منعا باتا. وهناك من قضى سنين طويلة دون أن

يعرف أهله حتى بمكانه، أو أن يعرف هو عنهم شيئا. كانت أخبار المهاجع الأخرى، ومستجدات السجن يتناقلها السجناء عن طريق إشارات المورس. في كل مهجع كان يتواجد سجين أو أكثر، ممن خدموا في الجيش، يتقنون لغة المورس ويلقبون « بأبي شفرة»، وكان أحدهم يضع طاسا على الجدار ثم يلصق أذنه عليها، ويبدأ بإرسال الإشارات بطرق خفيف على الجدار حسب إشارات مورس المستخدمة في الجيش. وسجين آخر يراقب الشراقة إذا مر فوقها أحد الجلادين لينبهه كي يتوقف. ذاك النهار كان كل السجناء في استنفار عام للوقوف على صحة الخبر. بدأ أبو شفرة بالإرسال:

- « فاء، ياء»، في. صمت «أ، ل، م، ه، ج، ع.» المهجع ». صمت. « هاء، لام،» هل « صمت. « هاء، نون، كاف، هناك» صمت. « زاي، ياء، راء، تاء،» زيارة» وهكذا.

الكل كان ينتظر الجواب بلهفة. وضع أبو شفرة أذنه على الطاس الملصق بالجدار. بدأ النقر ببث الجواب، وبعد طول نقر، واستلام الرسالة حرفا حرفا جاءت كالتالي: « أحد الأخوة في المهجع الحادي والعشرين، قام أهله بزيارته».

وجم الجميع. زيارة!! كلمة نسيها السجناء من زمن. وحذفت من قاموس الكلمات المتداولة بينهم. فمعجم

الكلمات اليومية المستعملة تنحصر بكلمات مثل: تعذيب. سوط. عصا. كهرباء، قيد، جوع، مرض. موت. مشنقة... كيف؟ وماذا؟ ولماذا؟ ثم وصلت أخبار تقول إن مدير السجن الجديد يسمح بالزيارات لمن يدفع أهله كيلوغراما من الذهب الخالص. بالنسبة لي لم أكن أهتم كثيرا بهذا الخبر، إذ لم يكن لي من يزورني، أما الآخرون فكانوا تواقين لرؤية أهاليهم، ولكن من بمقدوره أن يدفع كيلو غراما من الذهب الصافي ثمنا لزيارة.

قلت في نفسي:

- يعتقلون الناس، يسجنونهم، ويعذبونهم، ويقتلونهم، ويبتزون أهاليهم حتى العظم. هناك من باع داره ليطمئن فقط على ولده إن كان حيا، وفي أي سجن موجود. وهناك من استدان مبالغ طائلة للاطمئنان على أب، أو أخ، أو أخت، أو زوجة. أو أن سجينات يغتصبن يوميا من أجل أن يزورهن أولادهن، أو أزواجهن.

سنوات كرت، سنوات مضت كأنها دهور وراء دهور. كنا جميعا نتجرع الحياة كأس علقم يومي حتى الثمالة. نصبر، نقاوم، نعض على النواجذ، نكافح من أجل بقاء بين الحافر والنعل. أملنا في الخلاص، ولو كان كأمل إبليس

في الجنة، كان المحفز الوحيد للجلد على الجلد، والصبر على الصبر. والمعاناة على المعاناة. حتى أجسادنا فقدت الحس، باتت أقوى من السوط. والنفس توطنت على أذى الكلام، تتحدى الموت الذي كان أقرب إلينا من رمش العين. كل سجين يسند رأسه إلى جداره يدخل في أنفاق النفس السرية يحاكيها، يعدها، وتعده، يمنيها وتمنيه. ينبش في أيام حياته المكدسة بنقرة على ملفات الذاكرة البعيدة. يبكي في أعماقه على أيام السعادة، الذكريات السعيدة هي التي تدر الدمع المكتوم المجبول بحزن ما بعده، ولا قبله حزن، سيأتي يوم تصبح فيه هذه الأيام بدورها ذكريات أليمة تكدس في ملفات الحزن، والحقد، عندما نصبح خارج هذه الجدران. ينداح الزمن مترنحا، وتكر الأيام بنسخ طبق الأصل من بعضها بعضا. الليل البارد. صرخة الجلاد فجرا. الوقوف على الجدار مهيض الجناح. البول على الرؤوس، صراخ عريف المهجع: المهجع جاهز للتفتيش سيدي. فطور شحيح. انتظار حفلة التعذيب، العودة إلى المهجع. الظهيرة موعد توزيع طعام لا يغني من جوع. عصافير فوق الجدران تنتظر، كأنها باتت على موعد يومي، وتعرف التوقيت لتلتقط ما سقط من حلة التوزيع. من حبيبات أرز أو عدس. الشمس تدور دورتها اليومية. تبدأ بجدار الباحة

الغربي، ثم تسوح في الساحة، تتسلل عبر شقوق المهاجع، وتحت أبوابها، ثم ترحل، تستريح قليلا على الجدار الشرقي ثم تختفي ويخيم الظلام الكئيب.

بعد عدة سنوات، بت من السجناء المتجلدين أمام الجلادين. السجناء الذين علموا بقصتي كانوا ينادونني بأبي كنز. وكم من سجين جاءني همسا يسأل:

- هل حقا وجدت كنزا كبيرا من الذهب؟

- نعم، ولكن فقدته.

- المنحوس منحوس ولو وضعوا على رأسه فانوس.

ذات صباح دخل جلاد وكان يحقد علي أكثر من كل الجلادين، وكنا ندعوه بالخنزير المدهون، نظرا لقصره وكرشه المندلق أمامه وشكله الشنيع، وخاصة بأنفه ذي المنخرين المفتوحين كأنف الخنزير، وناداني قائلا:

- أبا كنز، يا كلب، يا ابن العاهرة، اتبعني.

تبعته وأنا أعتقد أن هناك جلسة جديدة للتعذيب، لم تكن بالحسبان حسب العداد اليومي. فوجئت عندما أدخلني المطبخ. ضربني بسوطه ثم قال:

- من الآن فصاعدا ستكون من جماعة البلدية، ستقوم بتحضير الطعام وتوزيعه على السجناء.

سعدت جدا بهذه المهمة فبفضلها سأخرج إلى الساحات، في الهواء الطلق، سأرى الشمس. ثلاث مرات في اليوم، وأدخل المطبخ وأسلي نفسي بتحضير الطعام. سأتكلم مع الطباخ بأي شيء فلساني نسي الكلام. كان الطباخ سجينا قديما، دون محاكمة. صاحب أحد مطاعم دمشق. يدعى بأبي العز. اعتقل بتهمة إيواء اجتماعات حزب شيوعي محظور والاشتراك بها، وتوزيع منشورات تدعو لإسقاط النظام. القامة مديدة، الرأس سقط شعره منذ زمن، والفم فقد نصف أسنانه. والعينان سكنتا حفرتين متجعدتين مظلمتين كعشي غراب تحت حاجبين أبيضين. والأنف ريان كموزة هندية، والخدان نتأ عظمهما وتقعرا، وكأن أحدهما يريد أن يلتصق بالآخر. نظر إلي مليا ثم قال:

- ابدأ بتقشير البصل والبطاطا.

كانت أيام البلدية أقل وطأة، وعملي في المطبخ فسح لي المجال أن أضع في معدتي خلسة كمية أكبر من الطعام. أو قطعة لحم صغيرة يضعها أبو العز في فمي على غفلة من الحراس. أو أن أدس قطع خبز في سروالي لأعطيها فيما بعد لأحد السجناء. حتى جلسات التعذيب انخفضت وتيرتها لأني بت أمضي وقتا طويلا في مساعدة الطباخ في طهي الطعام.

ذات يوم حار ولزج، أكاد أتنفس وأنا أمام القدور التي تغلي بطونها بحساء شحيح الخضار والحبوب، دخل ضابط، ولم أكن قد رأيته من قبل، وفي يده قطعة لحم حمراء طازجة. لم أر مثلها منذ سنين. توجه إلى الطباخ وقال له:

- هل لك أن تشوي قطعة اللحم هذه لمدير السجن.

نظرت إليه كدت لا أعرفه من لباسه العسكري وقبعته التي انحدرت فوق عينيه. التفت إلي وكأنه شعر بأني أتفحص ملامح وجهه.

- هل هو هو؟ أم ليس هو؟ تساءلت بحيرة.

- بلى هو هو، لا شك في ذلك. الوجه النحيف هو هو، العينان الصغيرتان هما هما، الأنف الطويل هو هو، والقد النحيل لم يتغير. إنه منقذ. نعم. إنه منقذ. هاهو أمامي، يتفرس في وجهي، ويتفحصني كما أتفحصه، لا أكاد أصدق ما أرى، ولا يكاد يصدق ما يرى، ربما شكك بأمري، أكثر مما شككت بأمره، فشكلي المزري، بهذه الملابس المرقطة برقع من كل الألوان، وحذائي الفاغر الفيه، وعيناي الغارقتان في كهف، ووجنتاي المحفورتان بعد أن كانتا ممتلئتين، وذراعي اللتان باتتا كقصبة جافة بعد أن كانتا ناتئتي العضلات، وجسدي النحيل الذي يخال من يراه بأنه على وشك أن

ينهدم، تجعله يتفحص بدقة أكثر إذا كنت أنا أنا، مالك حصيرة بجلده وعظمه.

ساءلت نفسي:

- يا إلهي أي قدر جاء به إلى هذا المكان؟ وماذا يفعل في هذه الجهنم؟ هل بات هو أيضا من الجلادين؟ منقذ المسكين يصبح من الجلادين! لا، مستحيل، لا بد أن في الأمر لغزا ما.

نظرت إليه بصمت، ثواني الصمت كانت أطول من ساعات، حتى كاد من كانوا حولنا يكتشفون أمرنا. بانت على وجهه الدهشة. تمالك نفسه. لم يتكلم. ظل صامتا. وظللت صامتا. ننظر إلى بعضنا ولا نقوى على الكلام. عض على شفته السفلى كإشارة بأن أبقى صامتا ولا أبدي أي حركة أو تصرف تجعل الحراس الموجودين في المكان يشعرون بأننا على صلة.

التفت إلى الطباخ وطلب منه الإسراع في طلبه فالمدير ينتظر. ثم أخذ قطعة اللحم المشوي وانصرف.

قلت: التقى الشتيتان بعد طول تشتت. هاهو منقذ، بات لي صديق في هذا المكان الموحش أستأنس به، حتى ولو كان بلغة الأعين. مجرد وجوده أعطاني بصيص أمل، كتائه ليل أنس نارا على علم.

مرت أيام وليال كانت أطول من مثيلاتها السابقات، غاب منقذ، لم يعد ولو مرة واحدة بقطعة لحم يشويها للمدير الجديد.

- هل أن المدير في إجازة؟
- أم هل غادر منقذ دون أن يعلمني؟
- هل هو خائف أن يفصح عن معرفته بي؟
- هل نسي أني أنقذت حياته في تلك البئر؟ ألم أجبر ساقه؟ ألم أساعده ماليا؟

لا، لا يمكن أن ينسى ذلك، وأنا لا أريد منه أكثر من أن يسعدني بوجوده فقط. كي أشعر أن لي صديق في هذا الزمن الجحود. فلم يعد لي في هذه الدنيا شيء سوى ذكريات، يلوكها فكري، يتحدث عنها بلغة الأفعال الماضية، والأفعال الماضية دائما ناقصة، وبكان وقبيلة أخواتها، وكلها عفى عليها الزمن. وأكل الدهر عليها وشرب مرات عدة. أكاد أنسى كل شيء. لم يعد يعنيني شيء في هذا الحد الأدنى من الحياة سوى الهروب من هذا الجحيم. أن يرى بصري شيئا آخر سوى هذه الأسوار. أن أنام دون وجع. أن أستعيد إنسانيتى بعد أن حولوني إلى حيوان. أن أعود لرؤية شامة، الوحيدة التي لم أنسها رغم كل المحن، أن أبحث عن أليس

الذي فقدت أثره، عن أبي حفص الذي أعض أصابع الندم لأني كنت السبب في إلقاء القبض عليه، وأبي عسكر كذلك. عن صديق السجن، ورفيق الهروب والدروب الطويلة الوعرة أبي ثائر. الآن في لغة الحاضر التام لا أستخدم سوى أفعال، آكل. أشرب. أتغوط. أتعذب، أتألم. أنام. منقذ مر كخيال واختفى، وأنا أنتظر. عاد الانتظار ليشكل جزءا من انشغالي اليومي، بعد أن اختفى. ولم أعد أنتظر شيئا، منذ سنين. فماذا أنتظر؟ حكم علي بالسجن، دون محاكمة، لمدة لم تحدد. بعد أن باتت التهم الموجهة إلي تتراكم تهمة تلو أخرى. فانا خائن ومتعامل مع عناصر خارجية لسرقة كنوز سوريا وتهريبها، والاعتداء على أجنبي، ومغتصب أجنبية، والهرب من السجن، والقتال في صفوف الإخوة الأعداء. كل هذه التهم لو حوكمت لتم إعدامي فورا، أو قضيت حياتي كاملة في السجن، المؤقت هو الذي يدوم في هذه البلاد. كل شيء مؤقت. شعب بأكمله يعيش بالمؤقت.

انقضت أيام كانت أطول، وأمر، من سابقاتها. وأنا أنتظر على جمر قطعة لحم المدير يحملها منقذ لنشويها له.

- ما بالك أراك مشغولا على غير عادتك هذه الأيام يا أبا كنز؟ قالها أبو العز همسا.

- لا شيء، مجرد كوابيس، وأتعاب، وألم العذاب.

- هون عليك ستفرج إن شاء الله. سمعت أن المدير الجديد يسمح لأهالي السجناء بزيارة ذويهم إذا دفعوا كيلوغراما من الذهب.

- وكيف يتم ذلك، هل يحمل هؤلاء كيلو الذهب ويتركونه عند الحراس؟

- لا، المدير أخبث من أن تتوقع، فهو يطلب من العائلة التي توفر المبلغ أن تسلمه لوالدته في دمشق. لا من سمع، ولا من رأى.

- أنا ليس لدي من يزورني، ولا أعرف أحدا يملك هذا المبلغ.

- لماذا يدعونك بأبي كنز إذن؟

- تسمية على غير مسمى.

- تريد أن تقنعني بأنك لا تملك كنزا، والجميع هنا يقولون أنك تنام على كنز كبير لا يقدر بثمن، ولهذا السبب أنت ترفض أن تقر بوجوده مهما عذبوك، وتنتظر الخروج من هنا حتى تهرب به. وهم ينتظرون أن تقر بمكانه ليسلبوك إياه.

- كلها أقوال يا أبا العز. الكنز بقي سرا مدفونا في صدر صديقي أليس الذي خطفه وهرب به كي لا يقع في يد الضابط الكبير الذي يسرق كنوز سوريا ويبيعها لمتاحف

الغرب، ولهاويي التحف. بأسعار خيالية، ولا أعرف له مكانا الآن.

- صادق يا صديق.

ذات يوم كئيب كنا نتبادل همسا كعادتنا بعض أخبار السجن، وأعيننا على الحراس المنهمكين بحديث آخر عن نسائهم وأولادهم، دخل منقذ وبيده وعاء يحتوى على لحم مطحون. غمرتني سعادة كبيرة لمجرد رؤيته توجه إلي وهو يغمز بعينه قائلا:

- بلدية. خذ هذا الوعاء وضعه على النار.

- حاضر سيدي، قلتها وأنا أقترب منه وأنظر في عينيه. غمز بعينه اليسرى وأشار إلى الصحن.

تناولت الوعاء من يده، مسك منقذ أصابعي من تحت الوعاء ودس فيها لفافة تبغ، ثم نظر إلي وعض على شفته السفلى. أخذت الوعاء من يده، وبخفة أخفيت اللفافة في لباسي الداخلي.

ساءلت نفسي:

- لماذا هذه اللفافة وهو يعرف أني لا أدخن. ربما اعتقد أني بت من المدخنين.

قلت:

- سأعطيها لأبي العز الذي يتوق إلى واحدة، وسيكون سعيدا بها أيما سعادة. ولكن ليس الآن حتى لا يكتشف أمر منقذ.

في المهجع مساءً، دخلت الحمام أتفحص اللفافة عل فيها شيئا. أفرغت محتواها من التبغ. ظهرت كتابة على صفحة الورق الداخلية. رحت أقرؤها بتلهف:

- رسالة منقذ رقم 1 : أخي مالك، يؤسفني أن أراك في هذه الحال. سأفعل ما بوسعي لمساعدتك.

أخذت ورقة اللفافة وكتبت على وجهها بعود كبريت محروق. وانتظرت حتى رأيته ثانية:

- جواب رقم 1 : شكرا، أنا سعيد بوجودك.

انتظار.

- رسالة رقم 2 : هل تحتاج لمال؟ أو لأي شيء آخر؟

- جواب رقم 2 : لا أحتاج سوى الخروج من هنا.

انتظار.

- رسالة رقم 3 : الأمر ليس سهلا. سأحاول التخفيف عنك.

- جواب رقم 3 : أخرجني من المهجع، وأوقف عمليات التعذيب.

انتظار.

رسالة رقم 4 : تحدثت مع مدير السجن عنك. سيبعث بطلبك.

جواب رقم 4 : لماذا ؟ ماذا يريد مني ؟
انتظار.

وقبل أن أستلم الرسالة رقم 5، دخل الخنزير المدهون إلى المهجع ، وصاح في وجهي قائلا:
- أبا كنز، يا ابن العاهرة، اتبعني.

نهضت خفيفا أتبعه، صفعني على رأسي وعندما وصلنا الباحة الداخلية قال:

- المدير أرسل في طلبك، سيذيقك الأمرين، هذه المرة، وأتمنى أن نتخلص منك على يديه، أيها الكلب الحقير. يا سارق الكنوز.

قبل أن أدخل مكتب المدير وجدت منقذ يقف أمام الباب. سلمني الجلاد له وانصرف. أخذ منقذ بيدي بحرارة، وضمني إلى صدره.

- ما الذي أتى بك إلى هنا يا منقذ؟
- بعد أن تطوعت في الجيش، تنقلت في الأماكن والمراتب، واختارني هذا الضابط لأكون مساعده قبل أن يعين مديرا

لهذا السجن، ولمحبته لي أبى إلا أن يصطحبني معه.

- لقد وضع القدر بخفاء، على غير عادته، خطة في صالحي هذه المرة.

- أتمنى ذلك. كن لطيفا مع المدير ووعد بأن يخفف عنك، وقد طلب أن يراك شخصيا بعد أن تحدثت معه مطولا عنك. إنه أقل سوءا من الآخرين ويحب المال حبا جما.

- جزاك الله خيرا يا منقذ أنقذتني.

- أنا لم أنس أنك أنقذتني يوما أنت أيضا. هل نسيت البئر. وساقي التي جبرتها.

- هل تعلم شيئا عن أبي حفص؟

- لا تسلني يا مالك لدي أخبار حزينة جدا لك.

- ماذا حل به بحق السماء؟

- مات يا صديقي. مات.

- وكيف كان ذلك.

- شنقوه يا صديقي شنقوه هؤلاء السفلة في هذا السجن اللعين قبل مجيئك إلى هنا.

- شنقوه!!! وماذا فعل؟

- اتهموه بالانتماء للإخوان المسلمين.

- ماذا؟! الآن فهمت لماذا كانوا يسألوني دائما ماذا أعرف عنه في جلسات التحقيق.

- ليس هذا كل شيء.

- ماذا لديك من أخبار أليمة غير هذا الخبر؟

- نعم يا صديقي. أخبارنا كلها أليمة. لقد مات أليس أيضا.

- أليس مات!!!

- نعم مات. مات تحت التعذيب بعد أن ألقي القبض عليه. هكذا سمعت من مدير السجن، دون أن يقر أين خبأ الكنز.

- مات كما ماتت صاحبته عبدة بنت هشام بن عبد الملك، هي أيضا ماتت تحت التعذيب قبل أن تقر عن مكان الكنز.

- وماذا عن أبي عسكر؟

- مات أيضا كمدا بسكتة قلبية بعد شهور قليلة من الإفراج عنه.

دمع حزين حار نفر من عيني، ثم نحيب مر، رددت في نفسي:

- كم كنت أحبك يا أليس، كم كنت سعيدا معك أيها الصديق. كم كانت الحياة جميلة بصحبتك، قتلتك الأيادي المجرمة. قتلوك هؤلاء الأنذال. كم أني نادم على كل ما حصل لك يا أبا حفص. يا أطيب الرجال واصفاها سريرة. وأنت يا أبا عسكر، يا أشجع الرجال، وأأمنهم على الوطن. قتلوك الأوغاد كمدا.

أمسكني منقذ من كتفي وقال:

- هون عليك يا صديقي. لقد بكيت مثلك عندما علمت بهذه الأخبار. كنت أبحث عنك أيضا. وقد ضاع أثرك عني.

- لا شيء في هذه الحياة يمكن أن يعوض أخا، أو صديقا تربطك به علاقات أقوى من علاقة الدم.

- أعرف ذلك. ولكننا نعيش زمنا جحودا. زمن سيطرة الغث على الثمين. زمن الفساد، والانحطاط، والتسلط. زمن اللا قيمة للقيم.

- لم يبق على قيد الحياة سوانا إذن.

- للأسف الشديد يا صديقي العزيز. لكني تزوجت من ابنة أبي حفص كما وعدته، ورزقتني بولد وبنت.

- ما اسمهما؟

نظر إلي وقال بعد لأي:

- مالك وشامة.

ضممته إلى صدري بقوة ودموعي تنساب بغزارة وقلت:

- أتمنى أن أراهما قريبا إن شاء الله.

أدخلني منقذ غرفة المدير. حياه تحية عسكرية ثم قال:
- مالك حصيرة سيدي، وانصرف.

كنت مطرقا أنظر إلى أرض الغرفة بانكسار، كما كان الجلادون يأمروننا عندما نقف أمامهم، وأنا أرتعد في داخلي. لا أعرف ماذا يخبئ لي القدر. خيم صمت رهيب لعدة ثوان، والمدير ينظر إلي ويتفحصني. كان شكلي أقرب إلى متسول في ثياب رثة، وحذاء تطل منه أصابعي المضمدة بقطعة قماش وسخ بعد أن اقتلعوا أظافري في آخر حفلة تعذيب، ولحية مبعثرة. وعينين منكسرتين تحت جفنين بلون البنفسج.

سمعته يقول بصوت أجش:
- أنت أبو كنز إذن.
- نعم سيدي.
- أين هو هذا الكنز؟
- لا أعرف سيدي.
- من الأفضل لك أن تقر أين هو الكنز، لأنك لن تخرج من هنا حيا لتستفيد منه.
- لو كنت أعرف أين هو لفعلت. لقد خبأه أليس وهرب سيدي .

- وأنت هربت من قلعة دمشق.

- نعم سيدي.

- وقطعت الحدود بدون تأشيرة خروج عبر جبل القلمون، والتحقت بالمقاومة.

- نعم سيدي، ولكن لم أرفع بندقية في وجه أبناء وطني، كنت أعمل في المستشفى الميداني لإسعاف المصابين.

- الشرطة وجدت بندقيتين في منزلك عندما إلقي القبض عليك.

- نعم سيدي، إنهما فخر العائلة.

- لماذا؟

- لقد دفعت عائلتنا الصغيرة شهيدين ثمنا للدفاع عن الوطن. البندقية الأولى لوالدي الذي استشهد في حرب الثمانية والأربعين، والثانية لأخي الذي استشهد في حرب السابعة والستين. علقتهما والدتي على الجدار لتصبحا وكرين للعنكبوت. واستشهدت بدورها قهرا وكمدا.

صمت قليلا. نظر إلي ثم قال:

- كنت أستاذا للأدب؟

- نعم سيدي.

صمت المدير وكأنه كان يفكر مليا في قصتي. ثم قال:

- إرو لي قصتك منذ البداية.

- لقد رويتها كثيرا للمحققين وهي مكتوبة في ملفي بالتفصيل سيدي.

- أروها لي وكن صادقا معي.

كان يصغي لقصتي بكثير من الانتباه. وازداد انتباهه أكثر عندما وصلت لاكتشاف الكنز. قاطعني بسؤاله:

- كيف كان هذا الكنز؟

- ثلاث جرار كبيرة مليئة بالحلي والنقود الذهبية.

- كيف عرفت؟

- فتحها جاك ورأيناه يخرج منها الحلي والنقود الذهبية. وهي أول دنانير صكت في الإسلام على عهد الوليد بن عبد الملك.

- إنها ثروة هائلة.

- نعم سيدي.

- ولا تعرف فعلا أين خبأها أليس؟

- كلا سيدي. ولكن يمكنني أن أبحث عنها في بعض الأماكن التي أعرفها يوما ما عندما يفرج عني.

فكر مليا ثم قال:

- أتمم حديثك.

عندما انتهيت من رواية قصتي توجه إلي قائلا:

- ارفع رأسك، وانظر إلي.

- المعذرة سيدي، لقد أجبرونا أن لا نرفع رؤوسنا أبدا في وجوههم.

- أنا أسمح لك الآن.

نظرت إليه، ونظر إلي مليا. كان رجلا حاد القسمات، بوجه أبيض وعينين زرقاوين، وشعر بلون الزعفران، وشاربين مرسومين بدقة فوق شفتيه. أخذ لفافة ووضعها بين شفتيه، وقدم لي أخرى، أخذتها منه متشكرا، ووضعتها في جيبي.

- لماذا لا تدخنها ؟

- لا أدخن سيدي، سأعطيها لصديقي أبي العز الطباخ.

- أثمن روح الصداقة.

نفث دخانه في الهواء، ورشف رشفة من فنجان قهوة ساخنة كان فوق مكتبه وقال:

- عائلتك دفعت شهيدين للدفاع عن الوطن إذن.

- ووالدتي الشهيدة الثالثة التي ماتت كمدا عليهما سيدي.

- هل لك أهل ؟

- كلا سيدي، وحيد في هذه الحياة كنصل دون جراب سيدي.

- أراك تحسن الكلام. وتحب الأدب والشعر.
- هوايتي كانت البحث عن الكلمة، والحكمة سيدي.
- وأنا أحب الشعر كثيرا أيضا، وأطرب لسماعه.
- أي الشعراء تفضل؟
- المتنبي سيدي.
- لماذا؟
- بلاغته، وصوره، وفخره، وأنفته، وفروسيته.
- إذا طلبت منك أن تنشد بيتين من شعره الآن فأي بيتين تختار.

بليت بالأرزاء حتى بات   جسمي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام   تكسرت النصال على النصال

صمت طويلا وهو ينظر إلي. نفث آخر نفس من لفافته، ثم سحق رأسها في مرمدة أمامه بعد أن رشف آخر قطرة من قهوته ثم سألني قائلا:
- هل تعرف كم من الوقت قضيت في هذا السجن؟
- لا أعرف سيدي. ولكن عدة سنوات. السنوات تمر هنا دون حساب. والأيام متشابهة.
- هل تعرف تاريخ اليوم؟

- كلا سيدي.
- اليوم هو آخر يوم في سنة تسع وسبعين.
- كل عام وأنتم بخير سيدي.
- وأنت بخير.

كلمتان فقط قالهما : وأنت بخير. دفعاني للبكاء بصمت.

- لماذا تبكي؟
- سيدي، لأول مرة منذ سنين شعرت بأني أستعيد شيئا من إنسانيتي. خلال سنين طويلة لم أسمع سوى الشتائم، ولا أرى غير السوط، وأدوات التعذيب.
- كم هي مرات التعذيب التي تخضع لها ؟
- كانوا يخضعونني لجلسة تعذيب يوميا. ومنذ أن عملت في المطبخ أخضع لثلاث جلسات تعذيب في الأسبوع، والضرب والشتائم في الذهاب والإياب.

صمت قليلا ثم توجه إلي سائلا:
- هل تحسن صناعة القهوة والشاي ؟
- نعم سيدي، وأنا أعمل في المطبخ منذ فترة.
- بدءا من الغد ستقوم بخدمتي. وسأوقف عمليات التعذيب.

- جزاك الله خيرا سيدي.
- انصرف الآن.

خرجت من غرفة المدير وأنا لا أصدق نفسي. وجدت منقذ بانتظاري على باب الغرفة. ضممته إلى صدري بقوة وأنا أدمع وأقول:
- لقد أرسلك الله في وقت فقدت فيه كل أمل. كنت أعيش كحيوان في قفص. كنت خارج القبر وداخله في آن. كنت على مشارف الدخول في عالم الهلوسات والجنون واللامعقول. كنت خارج الزمن. في قعر جهنم. لقد أنقذتني يا منقذ. لن أنسى فضلك ما حييت.
- هون عليك يا صديقي. لم أفعل سوى أني رددت لك جميلا سابقا.

أبو العز عندما أعلمته، كاد ألا يصدق. حتى أنه قال لي عندما أعطيته لفافة التبغ الفاخر من المدير:
- هذه أول مرة في تاريخ هذا السجن يعامل سجين هذه المعاملة. ثم توجه إلي سائلا:
- هل وعدت المدير بالذهب اللماع الذي يعشق بريقه؟
- ومن أين لي هذا الذهب؟
- من الكنز الذي خبأته.

- ليت لي أن أعرف أين هو هذا الكنز لأعطيته إياه واشتري حريتي منه.

بت أنام في زنزانة منفردة قريبة من مبنى المدير. وأقضي اليوم في المطبخ، أحضر مشروبات المدير وطعامه، وأقوم على خدمته في تنظيف مكتبه والغرفة التي ينام فيها. وأساعد أبا العز في تحضير طعام السجناء. ولم أعد أرى كثيرا الجلادين، وخاصة الخنزير المدهون الذي زاد حقده علي بعد أن علم بوضعي الجديد، حتى أنهم باتوا يتحاشونني إذا رأوني. وصرت ألتقي منقذ يوميا. أستقي منه الأخبار التي أنقلها لأبي العز، وأبو العز ينقلها لأبي شفرة، وأبو شفرة ينقلها لجميع المهاجع. صار لنا شبكة اتصالات. أخبار الخارج بدأت تدخل إلى الداخل. ويوما بعد اليوم بتنا أكثر اتصالا مع ما يجري وراء هذه الأسوار. أمور البلاد تزداد سوءا. الصراع بين الإخوان المسلمين والسلطة يتفاقم حدة. اعتقالات، وإعدامات، وتفجيرات، واغتيالات.

كان المدير يقضي معظم وقته في حمص مع عائلته، وعندما يعود يحضر معه بعض الفواكه واللحم والحلويات. وعندما يغادر يترك ما بقي منها ويقول لي:

- تصرف بها، ولكن لا تعط أحدا من السجناء منها.
- حاضر سيدي.

كنت أنتظر مغادرته حتى أغنم هذه الثروة الغذائية رغم شحها. تفاحة، أو برتقالة، أو قطعة لحم صغيرة. أو نصف قطعة حلوى. كانت مرتي الأولى التي أعض فيها على قطعة لحم، أو آكل فاكهة. كانت سعادتي كبيرة عندما ترك مرة قطعتي حلوى، وموزتين، وقطعة لحم. أخذت نصفها وأعطيتها سرا لأبي العز. كاد يطير من الفرح. ألتهمها التهاما خفية وقال:

- جزاك الله خيرا أبا كنز، ودمت لصديقك أبي العز.

ذات يوم حار من بداية الصيف جاءني منقذ وفي عينيه قلق جلي.

- ماذا في الأمر يا صديق ؟
- الأخوان يا مالك الأخوان ؟
- ماذا بهم ؟
- حاولوا اغتيال الرئيس، لكنهم لم ينجحوا.
- سترك يا رب.
- أخشى من عملية انتقام ضدهم.

من أبو كنز إلى أبي العز، ومن أبي العز إلى أبي شفرة ثم إلى باقي المهاجع. « م. ح. ا. و. ل. ة. محاولة. ا. غ. ت. ي. ا. ل. اغتيال. ف. ا. ش. ل. ة. فاشلة. ل. ل. ر. ئ. ي. س. للرئيس. م. ن. من. ا. ل. إ. خ. و. ا. ن. الاخوان»

بعد أن انتشر الخبر كالنار في الهشيم. عم خوف شديد بين جميع السجناء. عمليات التعذيب اشتدت حدة. ولم تمض سوى أيام معدودات حتى جاءني منقذ يقول :

- هناك شيء رهيب سيقع. لا أعرف ما هو.
- سترك يا رب. ما تظن أنهم فاعلون؟
- أخشى أن يقوموا بإعدامات كثيرة انتقاما.
- هل سيعلقون المشانق؟
- لا أعرف؟ ولكن ما يثير مخاوفي كثيرا أن المدير أوصاني بأن أقول لك بأنك ستكون من بين الأموات.
- ماذا؟ سيقتلونني؟
- ستكون حيا ميتا.
- ماذا، حيا ميتا!! وكيف ذلك؟
- نعم. سنقوم بتهريبك ونضعك في سجل الأموات. وتابع بالقول:

- المدير قال لي بأنه يقوم بذلك إكراما للشهيدين اللذين قدمتهما عائلتك. شريطة أن تعطيه نصف الكنز إذا وجدته.

- وكيف سأخرج من هنا؟

- لقد حضرت لك كل شيء. خذ هذه البزة العسكرية تضعها عندما أقول لك، وسأصطحبك إلى باب خلفي، وتخرج تحت جنح الليل. وأعتقد أن شيئا يتم التحضير له لصباح الغد. لقد سمعت المدير يقول بأن هناك طائرات ستصل غدا ولكن لا أعرف ماذا تحمل.

تلك الليلة لم أغمض عينا. كنت تواقا أن أوصل هذه الإخبار لأبي العز، لكن لا يوجد وسيلة. قبيل الفجر كان الكل نياما، الصمت يلف المكان. فجأة امتلأ الفضاء بصوت هدير طائرات. تملكني خوف شديد. رأيت منقذ يركض مسرعا نحوي، ومعه مفتاح الزنزانة. فتح الزنزانة وطلب مني أن ألبس البزة العسكرية. وأنطلق وراءه بسرعة.

كان الكل منشغل. الجلادون يركضون في كل مكان ويحدثون جلبة كبيرة. لمحت الخنزير المدهون وهو يجري وكرشه يجري أمامه، قلت في نفسي سيأتي يومك أيها الخنزير المدهون. جنود يهبطون من الطائرات ويدخلون السجن. توجهت مع منقذ بسرعة كبيرة إلى

باب خلفي مخفي. فتح الباب وأخرجني بعد أن عانقني بحرارة وقال:

- سنلتقي قريبا إن شاء الله.

خرجت من السجن ورحت أركض بكل ما أوتيت من قوة، وهدير الطائرات كرعود أيقظت الجميع. لمحت عن بعد هبوط عدد كبير من الجنود بأسلحتهم. تابعت الركض باتجاه عمق الصحراء.

دقائق معدودة مرت رحت أسمع أصوات أزيز الرصاص في كل مكان. وانفجارات. وصراخ أكاد أسمعه من بين طلقات الرصاص:

- الله أكبر. الله أكبر.

قلت في نفسي. إنها المجزرة. لم يخب ظن منقذ. إنه الانتقام. الانتقام من سجناء عزل. يواجهون الرصاص بصدورهم العارية. تابعت الركض لاهثا وأنا أتوسل:

أيها الليل.
أيتها النجوم.
أيها الفجر.
هل فعلا نجوت ؟ أما زلت حيا ؟
لا أكاد أصدق.

هل حقا، أنا أنا بشحمي ولحمي، أركض سالما، أسابق الريح هربا ؟

هل فعلا نجوت؟

لا، لم أنج بعد؟

لا، لم أنج بعد؟

أيها الفجر، أتوسل إليك إذن، لا تنبلج. تأخر ولو قليلا. خالف ولو مرة ناموس الطبيعة. اعص قوانين الكون. لا تقضم أذيال الليل بأنياب نورك. هب لي فرصة التخفي تحت آخر جلباب ظلام. دعني أصل إلى مغاور حمام زنوبيا ثم افعل ما شئت.

يا ما وراء الكون.

يا نور السماوات والأرض.

يا سر الأسرار.

يا نا فخ الروح.

يا قابض الروح.

استجب لدعائي هذه المرة.

خذ بيدي وبقدمي.

هب لي من لدنك قوة.اعم على أبصارهم وأفئدتهم.

انتشلني بيديك الجبارتين من بين براثنهم.

أقدامي تكاد لا تلامس الأرض من سرعة الركض، ولهاثي كأنفاس طريدة طرية العود تنجو من مفترس شرس. الريح تحملني كطائر غر غض الجناحين يخفقهما حينا ويحط به الضعف حينا، وأنا أتجه، لا ألوي على شيء، نحو حمام زنوبيا، المكان الوحيد في هذه الصحراء الذي أعرفه عن ظهر قلب، ربما كنت الوحيد المتقن لمسالكه ودهاليزه وأنفاقه الممدودة في كبد الأرض كأصابع قفاز مارد.

صوت هدير طائرات.

صوت هدير طائرات.

لأختبئ إذا في أي مكان، وراء صخرة، فوق شجرة، في قعر حفرة.

ولكن هنا في هذه الصحراء الممدودة ككف سائل، أين أجد مكانا كهذا. كأن يدا كونية طويلة الأصابع مسحت الأرض. مهدتها. جعلتها قاعا مستويا كبطن صبية. علي أن أتوجه إلى أول مقبرة تدمريه. المقابر ليست بعيدة من هنا.

عنفات الطائرات ترعد عن بعد وتملأ قلبي رعبا وهلعا. طلقات الرصاص مازالت تدوي في الفضاء. طلقة، طلقة. رصاصات موجهة إلى الرؤوس للتأكد أنها فارقت الحياة.

لن ينجو أحد.
لن ينجو أحد.

ربما كنت الشاهد الوحيد على المجزرة. عواء ذئاب، ونباح كلاب مسعورة تملأ المكان وتدب في قلبي القشعريرة، وفي عظامي رجفة الهلع. يجب أن أسرع أكثر قبل أن يفضحني جزر الظلام، ومد الفجر. الطبيعة لا تغير نواميسها مهما توسلت. هي سرمدية، منذ أزل ما، وإلى أبد ما. الأفضل أن أعتمد على ساقي وأعجل الخطى أكثر.

تجلد.
تجلد.

حمام زنوبيا لم يعد بعيدا، حمام زنوبيا لم يعد بعيدا. بات على مرمى حجر، أو مرميين.

تجلد.
تجلد.

لكن الموت يجري خلفك بأسرع مما تتصور. يلازمك حذو النعل بالنعل.
لن يرحموك.
لن يرحموك أبدا.

سيتلذذون بتعذيبك. سيطلقون على جسدك ألف رصاصة تخترق لحمك وتهشم عظامك.

أسرع. وإلا فإن الموت سيكون أسرع منك.

ساقاي لم تعودا تحملاني. قدماي لم تعودا تسعفاني، كما كانا منذ سنين مضت،عندما كنت أجوب هذي البوادي، قبل سنين السجن الطويلة. والتعذيب الذي هد جسدي، عندما وقفت لأول مرة، ذات هزيع أخير من ليل بهيم، على قارعة الطريق العتيقة، التي تربط حمص بتدمر، أنتظر سيارة تقلني إلى الفرقلس.

أسرع، أسرع، الفجر يفضح خطواتك، الضياء ينتشر في كل مكان.

ها أنا بت قريبا من حمام زنوبيا. بات على مدى النظر. هاهو أصبح أقرب.

الرصاص مازال يلعلع في الفضاء منبعثا من وراء أسوار السجن. أسرع، أسرع قبل أن ينكشف أمرك.

ها أنا تقريبا وصلت. هاهو الحمام على مرمى حجر.

لقد قتلوا الجميع بالتأكيد. قتل الجلادون أبا العز، وأبا شفرة، وكل من أصابه رصاصهم.

على باب الغار نظرت حولي، تفحصت على مدى البصر باتجاه السجن. لا أحد يتبعني. الحمد لله.

دخلت سريعا، وغصت في المياه الحارة بعد أن خلعت ملابسي وخبأتها في فجوة جانبية. توغلت في شرايينه إلى أبعد نقطة يمكن أن أصلها. استلقيت في الماء الحار وأنا أشعر بسعادة كبيرة، ممزوجة بذكريات أليمة. هنا في هذا الغار كنت أستحم مع صديقي أليس. هنا كنا نصخب سويا، ونضحك، ونعربد. هنا كنا نأتي لنحط أوزارنا من عناء عمل مضن، وغبار الصحراء، هنا كان أليس يصب الماء على رأسه ويقرأ شعر شاعره المفضل أبو نؤاس وكأنه يتعمد من خطاياه :

أنا العبد المقر بكل ذنب وأنت السيد المولى الغفور
افر إليك منك وأين إلا إليك يفر منك المستجير

يغوص في هذه المياه الحارة، يشعر بسعادة غامرة ثم يقول :

- كم أني تواق إلى رحم رحيم كهذا الغار. أغوص فيه وأعرص.

كم كان يحب الحياة. حبه للحياة السعيدة كان كحبه للوطن. كان يحب أن يعيش في وطن سعيد. تصخب في أرجائه رياح الحرية. كان يقول لي دائما:

- لا أشعر بالحرية إلا في هذا الغار. هنا أصرخ ملء فمي، فلتسقط الذات العليا من عليائها. هنا أقول قصائدي فلا أعين تصطادني، ولا آذان تسمعني وينشد مطلع قصيدته العصماء التي سجن وعذب من أجلها :

إذا الملك الجبار بالشعب غدر
رفض الشعب الغدر
وهدر
يخال الملوك أن التيجان خالدة
فلا خلود إلا للشعب
إذا صبر

مات أليس. قتله القتلة. أراه بين أيدي جلاديه يثخنون في جراحه. يتلذذون بهدم جسده الجميل، يطفئون سجائرهم في الوشوم البديعة على ذراعيه المفتولي العضلات، يفتتون جلده بالسياط. يعلقون جسده في السقف بقيد في معصميه حتى يحز القيد في عظمه. يقتلعون أظافره. ينتفون شعره. يولجون قضيبا حاميا في شرجه، أو قارورة مهشمة الرأس. يصعقون كل موضع من جسمه بالكهرباء، حتى فاض الروح المرح من العذاب والألم. آه يا صديقي كم أفتقدك الآن. إنك الشهيد الرابع

في عائلتي. ولكن بدون بندقية أعلقها على الجدار. الشهيد الذي لم يقتله الأعداء بل أبناء الوطن. لأنه حريص على الوطن.

وفي هذا الغار فضت ماري بكارتي. تذوقت أول رشفة رجفة لذة الجسد. هنا وضعت إصبعي على أول سر من أسرار البقاء. وهنا هبطت ماري كما هبطت حواء من السماء. هنا اكتملت رجولتي. وهنا كان فردوسي الأول. ومن هنا انحدرت من عليائي إلى جحيم ما بعده ولا قبله جحيم، وها أنا أختبئ فيه الآن من السفلة القتلة كما اختبأ أهل الكهف من ظلم الظالمين.

تأملت أطراف الغار وتساءلت:

- هل طمر أليس الكنز في هذا الغار؟

- وهل هناك مكان في هذه الصحراء سوى هذا المكان الأمين؟.

- ربما.

- ولكن ماذا تريد من هذا الكنز الذي جلب لك ولكل أحبائك البلاء. كنزك هو حريتك. وحريتك الآن ملك يديك. أما الكنز فلا.

أسندت رأسي إلى صدر حجر ناتئ وأغمضت عيني، ورحت أفكر في شامة. شامة التي لم أنسها يوما. شامة التي عاشت معي آلامي، ومحني. شامة التي كانت محفزا لي في الصمود، في الجلد، وفي كسر قيد الجلادين. في التمسك بخيط الحياة، وكأن سبابتها كانت تمس سبابتي تمدني بزيت الروح. بملح الصبر. هي التي كانت تزور أحلامي. هي التي كانت نافذة النفس المطلة على فضاء الصفاء.

- أين هي الآن؟
- هل مازالت على قيد الحياة؟
- ربما؟

في الماء الحار استسلم الجسد المتعب، المنهك، المنهدم من سنين الجمر، والقهر، لراحة ما بعدها راحة، وطار الروح في علياء اللاشعور. عاد صلاح الدين برفقة فاتح ماضي وأليس، رأيتهم يقفون على مدخل حلق الغار بألبسة بيضاء ناصعة، ونور الشمس يغمرهم جميعا، ينظرون إلي ويضحكون، صلاح الدين يحمل سيفه المسلول، وفاتح ماضي كتاب التاريخ، وأليس كأسا مترعة، ثم طاروا جميعا وحلقوا بعيدا في سماء صافية. وهم يلوحون لي بأيديهم تلويحة الوداع.

استيقظت من حلمي وأنا أشعر براحة كبيرة، وكأنني نمت يوما أو بعض يوم. أول خيوط نور فجر ساطع دخل من حلق الغار، والصمت يخيم على المكان.

خرجت من الغار وكان الفجر غضا. ضياء تقترب من لحظة السطوع تلد من رحم الليل. الصحراء تمتد من المدى إلى المدى. كل شيء بدا هادئا. جلست على صخرة أتأمل المد الرملي بسكينة، وأنا غير مصدق نفسي أني خرجت من ذاك الجحيم، وأني حر. مسحت وجه السماء بنظرة وهي تزيل ما تبقى من سواد الليل عنه. خنفساء عبرت تدركل بعرة بعير، أعادتني بالذاكرة إلى اليوم الأول الذي أتيت فيه إلى هذه الصحراء منذ سنوات مضت، شريط ذكرياتي مر سريعا أمام مخيلتي، بكل آلامه ومعاناته، وجراحه. بانت شامة من بينها كذكرى لا تمحى، الذكرى الوحيدة في ذاك الزمن الغادر التي أسعدت قلبي، وجعلتني أكابر الزمن الأسود في غياهب سجون الجلادين، وأعاند الموت. الحب يصنع المعجزات، حبها فقط جعلني أتمسك بالحياة، أصارع القدر الفاجر الغادر ومخططاته الخبيثة. اليوم سأصنع قدري بيدي تحت شمس جديدة، وسماء جديدة. تركت الخنفساء تدركل بعرتها وشأنها كي لا أفسد عليها جهدها، حرة تتمتع

بحياتها كما تشاء. ثم انطلقت أجري متوغلا في الصحراء أبحث عن شامة صارخا في هذا الفضاء الرحب:

- ها أنا حر يا صلاح الدين، ها أنا حر يا فاتح ماضي. ها أنا حر يا أليس. أنا حر، أنا حر، لن ينالوا مني هؤلاء السفلة. لن يرضخوني لإرادتهم. لن أدعهم يكبلوني مرة أخرى. لا بد وأن يدفعوا الثمن وإن طال الزمن . سآخذ اسما جديدا، لقد مات مالك حصيرة، ودفن في المقبرة الجماعية مع القتلى، وسيلد إنسان آخر، بإسم جديد، وفكر جديد، وأمل جديد. وأنا أعد أبا حفص، وأبا عسكر، وأليس، وأبا شفرة، وأبا العز. وكل هؤلاء المساجين المساكين بأني سأكتب يوما هذه الرواية بحبر الشرايين.

لقد علم العالم أجمع فيما بعد بهذه المجزرة الكبيرة التي وقعت في هذا السجن الرهيب والتي قتل فيها مئات السجناء بدم بارد في الثامن والعشرين من شهر حزيران \ يونيو من العام 1980، في مهاجعهم وفي الباحات، بالرصاص والقنابل اليدوية، وأن الدم كان أنهارا. باعتراف اثنين من الذين قاموا بهذه المجزرة على شاشة التلفزيون الأردني، بعد أن ألقي القبض عليهما في محاولة اغتيال فاشلة لرئيس الوزراء الأردني، بتخطيط من النظام السوري. وقد تم إغلاق السجن فيما بعد، بعد أن حولوا كل سجنائه إلى سجن صيدنايا الرهيب أيضا، وتلك رواية أخرى.

من إصدارات سلسلة «عيون المعاصرة»

منصف الوهايبي
عشيقة آدم
تقديم : صلاح الدين بوجاه

« حديثنا نحن الاثنين – لو نحتفظ به – يصلح مادّة لنصّ سرديّ لم يحلم به لا ماركيز ولا كاواباتا... سنكتب أوّل رواية فايسبوكيّة بطلتها أنتِ... »

2012/348 صفحة/10,700 د.ت

حسين الواد
سعادته... السيد الوزير
تقديم : شكري المبخوت

لقد صفّى السيد الوزير أملاك الدولة ونظّف خزينتها. لم يسرق المعلّم المخلص، وهي القيمة الوحيدة التي ظل متمسكا بها، ولكنّه مدّ يد المساعدة للسرّاق حتى يأكلوا لقمة حلالا على مقتضى القانون والمناشير المنظمة للصفقات. لم يخن حقا وكل ما في الأمر أنّه نفّذ مهمّة بيع الوطن.

2011/368 صفحة/13 د.ت

حسين الواد
روائح المدينة
تقديم : صلاح الدين الشريف

مدينة لم يذكر المؤرخون اسمها، والحال أنّ من روى وقائع الروائح من جوفها انبرى يقصّ ما تضوّعت به أشياؤها.

2010/368 صفحة/13 د.ت

الشاذلي مبارك
الحرقه
تقديم : جمال خليفي

شباب عاطلون معطّلون. يحييهم الأمل. ويذبحهم الألم. يركبون لوح الموت تلقاء المجهول فراراً من وحل الحاجة والحرمان.

2012/228 صفحة/10,700د.ت

نور الدين العلوي
تفاصيل صغيرة
تقديم : أحمد الودرني

نص من التفاصيل المربكة يتحدث بجرأة عن السمسرة والعلاقات المشبوهة، عن النفاق الاجتماعي وهشاشة مؤسسة الزواج. رحلة شاب ضاقت به الأرض وتهاوت به جسور أراد أن يمدها مع الأهل والحبيبة والناس.

2010/304 صفحة/12 د.ت

يحيى امقاسم
ساق الغراب
تقديم : فيصل درّاج

في هذه الرواية ما يفاجئ القارئ حقا، فهي لروائي سعودي يكتب نصا جميلاً يثير الفضول، يسائل في حقبة منقضية معنى الوجود الإنساني كله.

2010/344 صفحة/13 د.ت

تم طبع هذا الكتاب
بمعامل فنزي للطباعة
دفتر الاشغال عدد 997
اكتوبر 2012

من هول وويل لفظ هذا الكتاب، على النفوس قاسٍ لا يحدّثها، أكثر ما يحدّثها، إلاّ بأسود مرعب كثقيل الكابوس في ليل عناء طويل. نكدُ عيش وتشريد شباب، ومظالم وكمّ أفواه، ورشاوى تبتزّ، ووشاياتُ تكيد، وسجونٌ وسياط عذاب، وأرواحٌ تزهق جملة وتفصيلا ...

... فُتح له باب خفيّ فاندفع منه مالك لا يلوي على شيء... فينظر إلى آتي أيّامه وفي أفق الرؤية وجه شامة حبيبة الروح وكأنّها بالاسم مؤنّث الشام ورمزه، والبلاد قد تصوّرت فيها غادة، مغصوبة الجسم قهراً كمثلها، والروح لا تزال كمثلها عفيفةً أبيّة.

رياض معسعس

كاتب وصحافي سوري، من مواليد دمشق 1948. حاصل على شهادة دكتوراة دولة في علوم السمعية البصرية من جامعة السوربون في باريس.

ساهم في تأسيس وإدارة العديد من المؤسسات الإعلامية العربية كإذاعة الشرق وإذاعة مونت كارلو في باريس، وإذاعة الامم المتحدة مرايا في الخرطوم، وإذاعة سبيكتروم، وقناة إم بي سي اللندنيتين، وقناة أبو ظبي، وقناة الجزيرة، وقناة العالم، وقناة ميدي 1 سات، وقناة يورونيوز.

كاتب مقال في أكثر من صحيفة عربية.

صدر له كتاب تقنيات الصحافة المسموعة والمرئية في العام 2010.

الثمن : 10,700 د.ت.

ISSN : 0330-5627

ISBN : 978-9938-01-062-6

9 789938 010626